



خالد محمد خالد
من العلماء

هنا.. والطوفان

«بدون شجاعة لا توجد حقيقة..»
«وبدون حقيقة لا توجد فضيلة..»

الناشر
مكتبة الانجباء المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

اهداءات ١٩٩٩
الأستاذ/ كامل إبراهيم
أستاذ وفنان الخط العربي



خالد محمد خالد
مِنَ الْعُلَمَاءِ

١٩٣٥

هَذَا.. أَوَّلُ طُوفَانٍ

بحث هادف.. موضوعه: أخلاقنا من جديد

«بِدُونِ شَجَاعَةٍ لَا تُوجَدُ حَقِيقَةٌ..»

«وَبِدُونِ حَقِيقَةٍ لَا تُوجَدُ فَضِيلَةٌ..»

رقم الكتاب	١٧٠
رقم التسجيل	١٨٦٠/٥

الناشر
مكتبة الانجبلو المصيرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

100% TOTAL

مراجع

- ١ - القرآن الكريم ، تفسير ابن كثير
- ٢ - أحاديث الرسول ، كتاب تيسير الوصول ويشتمل على الصحاح الستة
- ٣ - الكتاب للقدس
- ٤ - علم النفس والأخلاق ، تأليف ج . ا . هادفيلد ترجمة الأستاذ محمد عبدالحمد أبو العزم . وراجعته الدكتور عبدالعزيز القوصي
- ٥ - المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، تأليف اندريه كرسون ، ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود ، والأستاذ أبو بكر زكري
- ٦ - التربية الجنسية ، تأليف سيرل بيبي . ترجمة الأستاذين محمد رفعت رمضان ، ونجيب اسكندر ابراهيم
- ٧ - الديمقراطية والتربية ، تأليف جون ديوى . ترجمة الدكتور متى عفراوي ، والأستاذ زكريا ميخائيل
- ٨ - ديوان ابن الفارض
- ٩ - التربية لعالم حار ، تأليف سيروتشرد لفنجستون . ترجمة الأستاذ وديع الضبع
- ١٠ - مدارج السالكين ، تأليف ابن القيم
- ١١ - نفسية أبي نواس - تأليف الدكتور محمد البويهي
- ١٢ - قصة الحضارة ، تأليف ول ديورانت . ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود
- ١٣ - فلسفة من الصين - تأليف لين يوتانج ، تعريب الأستاذ منير البعلبكي
- ١٤ - شرح الحكم - لابن عجيبة

الاهـداء

إلى الذين يحبُّون الحقيقة ..
وأيضًا .. إلى الذين يكرهونها ..
لأنَّ الحقيقة لا تحمل ضِغْنًا لأحد ...

فصول الكتاب

صفحة

- | | |
|---------|------------------------------------|
| « ٥ » | الفصل الأول - هنا . . لا هناك |
| « ٤٩ » | الفصل الثاني - طبيعتنا الحرة؛ أعلم |
| « ٩٩ » | الفصل الثالث - المنبع قبل المصب |
| « ١٥١ » | الفصل الرابع - أقدم لكم الفضيلة |

هذا الكتاب ..

أنصح للذين سيأخذون هذا الكتاب أن يقرأوه كله أو يتركوه كله .. وإذا هم لم يفعلوا ؛ فلا أقلّ من أن يريحوا أنفسهم من مشقة الحكم له ، أو عليه .

وأقول لهم في غير من : إن وراء كل سطر من سطره جهداً كابد الصعاب واستنفد الوسع ليصل إلى ما يحسبه حقاً . ثم ليصوغ هذه السطور وفق الحقيقة المظنونة ..

وهذا الكتاب - نذير يخرج في قومه ليهتف بين ظهرائهم : احذروا أن تبسطوا طريق المستقبل فوق هاوية ..

ذلك أننا نرث أرضاً مهوطة بالألغام الخبوءة . لا في مصر وحدها ، بل وفيها حولها من بلاد وأمم .. وفي كل مجال . في السياسة ، والاقتصاد ، والتربية ، والاجتماع - يجب ألا نضع حجراً في بناء ، حتى ننبش الأرض أولاً ، ونظهرها جيداً . ولقد أراد كتابكم هذا أن يصنع شيئاً من ذلك ، واختار مكاناً قصياً ، قلما تشد إليه الرحال .. أجل ، لقد اختار مجال السلوك والأخلاق .

ونحن أمة زاغت أخلاقها ، يوم زاغ فهمها ، وتلغثم إدراكها . ومن قبل ، يوم فقدنا الرغبة في استشراف الحقيقة . وفقدنا الشجاعة في تقبلها .

إن المسلك الخلقى لمجتمعنا ردىء - ما في ذلك ريب ، وإنما الأمم الأخلاق - قضية لا تنكر .. ولكن لماذا انحرف مسلكنا ، وكيف يعود

إلى الجادة والهدى . ؟ - هذه هي المسئلة . ولقد ذهب كتابكم هذا
يبحث ، ويلتمس الشواهد والبيانات ، وينبش الأرض ليلبغ الأوتاد التي
تشد سلوكنا إليها ، وتحول بينه وبين النماء . ولقد قاسى الريح والمطر .
يبد أنه عاد بنتيجة يحسبها ظافرة . وعلى صفحاته القادمة سيبحث فيكم
مشاهداته ، واستنتاجاته .

سرون كيف تواصت الخرافة الدخيلة على الدين والرجعية الاقتصادية ،
وكبت الطبيعة الإنسانية بأخلاق هذه الأمة فتبرتها تقيراً . .

وسنبصر الركام الهائل من تقاليد الفزاة الذين تعاقبوا فينا تعاقب
الليل والليل . . لا تعاقب الليل والنهار . . سنبصر كيف ضلل هذا الركام
فهمنا ، وكيف حرمننا من العرفة ، فخرمنا بالتالي من الفضيلة . أجل . .
وكيف لا يزال هذا الركام محسكاً بمحاولاتنا الخلقية أن تبلغ غرضها ،
ومصمماً على أن يرد روحنا الحيّ تراباً في تراب . . فتطهير ذاكرة المجتمع
من رواسب هذا التراث ومضلاته . واصطياد الخبرات الأليمة والعقد الويبة
الثاوية في عقله الباطن : مهمة الفصول الثلاثة الأولى للكتاب وهي :

(١) هنا . . لا هناك . (ب) طبيعتنا الحرة أعلم . (ج) المنبع قبل المصب .
أما الفصل الرابع والأخير وهو .

(د) أقدم لكم الفضيلة . . ؛ فيحاول أن يرسم خطة ويشير إلى
منهاج . ؛ فعلى الذين يعينهم الأمر أن يهيشوا أنفسهم لعمل شاق يبد أن تمتع ،
من أجل تعلية سلوكنا ، وتجويد أخلاقنا .
ولكن عليهم قبل هذا - أن يقفوا . ، وينظروا ، ويسمعوا . .

مألم

هنا.. لا هُناك

« لست أعرف شيئا عن سر الآله
« ولكنى أعرف أشياء عن بؤس الإنسان »...
- بوذا -

في هذا الفصل

من الغابة .. إلى المدينة
من المحراب .. إلى غرفة التشريع
ليس هناك شياطين ..
التدين قد يكون انفعالا مرضيا ..
هذا هو الإنسان ..

من الغاية . . الى الهدية

منذ اكتشف الإنسان نفسه ، وهو يعمل دائماً لترقيتها . وفي كل جيل من أجيال البشرية نلتقي بنفر لم يكن يطيب لهم العيش إلا في المستقبل حيث يرتادون لقومهم طريق الغد ، ويومضون في الأفق الأزرق تجاربهم ورؤاهم ، كأنها تنادى موكب الزمن الهادر : أن اتبعني ، فأنا دليلك على الطريق . .

ولقد ثبت في روع الإنسان من يومه البعيد الذي نهض فيه قائماً ، أنه يسير إلى أفضل . . وتحت ضغط هذا الإحساس المبهم الوطيد مضى يقتلع خطواته من الأرض شجاعاً خفياً ، ويتحدّر في طريق الحياة باحثاً عن بقية حياته . .

وكان لا يفتأ يتذكر المخلوقات الفذة ، من الزواحف المهولة ، والحيوانات الجبارة — تلك التي كانت معه في سباق لاهث للسيادة على هذا الكوكب ، وامتلاك زمامه . .

أين هي الآن . ؟ ، ولمن الملك اليوم . . ؟ !
الملك اليوم للإنسان ! ! ، أما هي ؟ فقد تخلفت في الطريق بعد أن ملأت أرض المعركة بأشلاء ضحاياها .

لقد عجزت عن التكيف ، ولم يعجز الإنسان .
ونسيت تأمين الأرض التي تحت قدمها ، ولم تحسن استشراف المستقبل الذي سيكون مناخاً لازماً لحياتها ، أما هو فقد فعل . . انتهج التكيف ،

وبذل من نفسه المائلة في سبيل نفسه المقبلة ، واصطنع التقاليد والأخلاق
ليؤمن بها الأرض التي يقف عليها ، ويدعم بها حاضره .
وهكذا تفوق على الحيوان ، وسيطر على الحياة .
ولكننا كان يطيب له أن يستعرض أسلحته التي خاض بها المعركة
ولا يزال .؛ فما وجد مثل الأخلاق سلاحاً شق له الطريق ، وممكنه من البقاء !
أجل .. إنه لم يتفوق بالطعام ؛ فمن الحيوان ما يأكل في وجبة واحدة
ما يكفي الإنسان عشرة أيام . !

ولم يتفوق بالقتال ؛ فمن الوحوش ما يقتلع بزئيره الجبال . !
ولكنه تفوق يوم أوتي العقل ؛ فأحسن استعماله ، واصطنع الأخلاق ؛
فأرسى بها قواعد حياته . ولقد عاد « دارون » من رحلته الباسلة يعلن
هذه الحقيقة المضيئة :

« إن الضمير ، أو الحس الأخلاقي هو أظهر فاصل بين الإنسان
والحيوان » .

ولكن أليس للحيوان أخلاق .. ؟ أليس الكلب وفياً . ؟ ، أليس
الفيل حكماً . ؟ ، أليس الأسد شجاعاً . ؟ ، أليس الحمار فاضلاً وحليماً .. ؟ !
بلى ، ولكن الحيوان أدرك شيئاً وغابت عنه أشياء لم تغب عن الإنسان
وإن كانت لاتزال تغيب عن أمم بأسرها من بني جنسه . فلقد وقع الإنسان
القديم خلال تجاربه المتساوقة على مفتاح البقاء والخلود .. ذلكم هو التكيف ..
لم يكن يعرف اسمه ، ولكنه عرف حتميته وجدواه ، فجعله معراجاً يتبع
عليه آماله الصاعدة ، ومن ثم ؛ فقد لبث وهو ماض إلى مستقبله يعدل
من أخلاقه ، ويتسامى بتقاليده وعاداته .

لم يكن - إذن - ليقنع بوفاء الكلب ، ولا بحكمة الفيل ، ولا بحلم
الحمار وفضله . ومضى يتوكأ على صديقه الودود - التكيف - بين معائر
الطريق .

كانت الخيانة ، والقسوة ، والعنف أخلاقاً فاضلة للإنسان . . !
كانت المرأة في بعض القبائل ترفض الزواج من رجل ليس له سابق
فضل في قتل الأبرياء وسفك الدماء . . ! !

وكان من تمام البرّ بالأبوين الهرمين : أن يقتلها الأبناء . . ! !
وكان العهر الجنسي ضرباً سامياً من ضروب السخاء والجود ؛ فليس
كريمياً ذلك الذي لا يقدم لضيعة زوجته أو بنته . . ! !
وكان الاحتفاظ بالبكارة رذيلة يعاقب المجتمع صاحبها بالعزوف عنها .
وتركها عائساً منبوذة . . ! !

وأما الأخلاق الدينية ؛ فقد كانت تقتضيهم أن يزفوا إلى المذبح الرهيب -
في حفاوة وبشر ، موكباً طويلاً من الرجال والنساء والولدان قرباناً للاله
كي ينبت الزرع ، ويدرك الضرع ، ويبارك القبيلة . . ! !
فأين هذا التراث اليوم ؟

لقد تخلّى عن مكانه لأخلاق جديدة ليست غريبة عن القديم بل منبثقة
منه ؛ بيد أنها في نقطة أعلى تناسب المدّ الزاخر الذي بلغته الحياة .
وهكذا يكيف الإنسان أخلاقه ، إنه لا يهدمها ثم يقول :

دع الربيع الذي اندثرا - يقاسى الريح والمطرا
بل يفنديها ويصونها بكل طاقته ووسعه وإصراره فلقد علمته التجربة
الحالدة الباقية في عقبه أنها التفوق ، وأنها الحياة . .

ولكن ، أضحى أن التجربة البليغة لا تزال في عقبه باقية هادية . . ؟
حين نرسل من فوق مرتفعات تطورنا التاريخي ، نظرة أو نظرتين
يكتنفنا أسف غير قليل .

فلئن كان آباؤنا الأقدمون جدا قدّموا المئات من أنفسهم قربانا
للآلهة ، فنحن اليوم نقدم الملايين من البشر قربانا لمطامع حفنة آبهة من
ذوى الغرور والجشع . . !

وإن التناقض الذي تتشعبه أنظمتنا ليكاد يرينا في أن تكون أخلاقنا
متكيفة صاعدة . ؛ فنحن مثلاً نحذف الرق من حياتنا ونعتبر تجارته مروقاً
من الانسانية وتنكيساً لأعلامها الخافقة فوق أرض التقدم ؛ ثم نبارك
الحروب وندق طبولها ؛ مع أنها الأم الرءوم للرق . . !

وليس ذلك فحسب ؛ بل نحن نحرم الرقيق عند ما يكون بيع فرد
لفرد . . ونحيزه بل نتسابق فيه عند ما يكون بيع أمة لأمة . .

أجل . كان الرقيق في الدهر الأول يساقون في سلاسل من حديد ،
أو في حبال من مسد ، يساقون إلى حيث يجيئون لسيدهم بالمغم والرج .
إن في السوق حيث يباعون . ، أو في الأرض حيث يعملون .

واليوم نبصر أمماً بأسرها . وشعوباً برمتها توثق في سلاسل غير
مطروقة . وحبال غير مجدولة . وتسخر لخدمة دول عريضة الأطماع ؛
بمفاذا تغير من المأساة . . ؟ ؟

أليس العنوان والأطار فقط . . ؟

فالسلاسل القديمة وضعت اليوم تحت اسم المنفعة . .

والسخرة القديمة وضعت اليوم تحت اسم التعاون . .

والمبانيات الجمّة التي كانت تدعى أسواق الرقيق . أقيمت لها العمارات
الشاهقة ، وهيئت لها المقاعد الوثيرة ، والمنصات المضاعة ، وصار اسمها -
المنظمات الدولية . . . !

ومع هذا ؟ فليس لليأس مبرر يا أصدقائي ؛ فأرادة التسامي والقدرة
عليه جزء من طبيعتنا . وإن مجرد إحساسنا بتخلفنا في مضمار الخلق ليشد
زناد الفهم والمحاولة لتحقيق في مجال ارتقائنا وتطورنا إنسانية أمثل ، وسلوكا
أفضل . - ولكن علينا أن نشحذ العقل ونمكنه من جميع سلطاته فهو
رفيق باسل وصدوق . كذلك علينا أن نجنبه مهاوى الانتكاس وهو يختار
لنا سلوكنا .

ففي ذلك اليوم البعيد حين أراد العقل أن يكشف كنه الفضيلة وسبيلها
ركب ثبج الغرور قليلا ، وترك لباب المشكلة وراح يتنزه حول ضفافها ...
وبدلا من أن يبحث أخلاق الإنسان في الإنسان ذاته ، مضى يبحثها بعيدا
عنه ، حتى غافله الجوار والجدل ، واجتازا به الحدود إلى متاهات مضلّة ،
فاذا هو يبحث عما وراء الطبيعة ، ويسفسط حول المعرفة فيقول مثلا :

- « لا شيء موجود ، وإذا كان هناك شيء ؛ فلا سبيل إلى معرفته ،
ولو عرفناه ؛ فليس في مقدورنا أن نعرف الآخرين به . » ! - وهكذا
غادر العقل مكانه الحق في المشكلة تاركا الأخلاق تنمو نمواً وجدانياً غير
بصير حتى فتحت الحياة بابها لزائر مهيب ، ورائد خفاق - وقف على
أرض أثينا يقول لأهاليها :

- ارجعوا إلى أنفسكم ، واعرفوها . . إن الحياة والموت - إن الخير
والشر - إن السعادة والشقوة - كل أولئك في نفوسكم ؛ فاقروها . . .

كان ذلك الزائر - سقراط . .

هتف بالعقل الجموح أن يعود إلى الانسان إذا كان يريد تهذيبه
وهتف بالانسان أن يساعد عقله ، ويدأب حتى يحقق لنفسه فضائلها
اكتساباً لا صدفة :

— « إذا وجدت الفضيلة بدون أن تبحث عنها فذاك حظ سعيد ،
أما إذا كنت مديناً للفضيلة بعنايتك وجهدك وطول بحثك وبلائك ؛
فهذه هي الفضيلة ، وهذه هي السعادة » . . وهكذا طرق سقراط أبواب
المدينة وفض أغلاقها .

أجل . إنه في تقديرنا الخاص لم يدخلنا المدينة ، ولكنه وقف بنا
أمام أبوابها التي فضها بعد أن قطع وقطعنا معه في سرعة الضوء آخر
مراحل الطريق الطويل الذي طال عليه سيرنا ومسرانا مخلفين الغابة
وراءنا . . وميممين شطر المدينة وجوهنا .

كيف فتح سقراط العظيم أبواب المدينة . . ؟

لقد دقها ثلاث دقائق تخلت بعدها المصاريع عن أماكنها ، وهذه
هي الضربات الثلاث :

— فلنعرف أنفسنا . .

— لا فضيلة بغير معرفة . .

— إنما نفتقر الشرّ مكرهين . .

وعرفت الحياة ما يحمل هذا الطراز النادر من الخلق ، من
برّها وإنعاش لها ؛ فوضعت سمعها على طريق الأبدية تتنشق أنفاس
العابرين ، وتبلو سمعهم . ونجأة فتحت أبوابها لرجل آخر عظيم جد عظيم .

وقف يعلن في إعجاز وبهر أن الفضيلة غير ممكنة ، مادام نقيضها ممكناً .
— أيها الناس : الفضيلة هي السعادة ، والرذيلة هي الشقاء ،
أترون السعادة ممكنة ما دام الشقاء ممكناً . . ؟
وإذن فلكي تظفروا بالسعادة الفاضلة ، لا بد من هزيمة الشقاء
المرذول . . —

وواصل « أبيقور » حديثه العذب المعتلى :
— أتعرفون لماذا يشقى الانسان . . ؟
— لأنه يترك شئونه للآلهة معتقداً أنهم وحدهم سيديرونها .
— ولأنه يخاف . . يخاف الموت ، ويخاف الآلهة . .
وفقر الأثينيون أعينهم وأفواههم . وحوصر « أبيقور » بدائرة
فولاذية من شرر لافح متوهج قذفته أعين كأنها أفواه مدافع . .
ولكن الرجل الذي جاء ينقذ الناس وينقذ الفضيلة من الخوف ، ما كان
ينبغي له أن يخاف ؛ فاقذف من جديد مندداً بسيد آلهتهم « جويتر » :
— « أتقولون إن جويتر - يتدخل لحفظ الخير والحق والنظام . . ؟
« إذن ؛ فاسألوه : لماذا يرسل الصواعق على معبده ، ولا يرسلها
على - أبيقور - الذي ينكره ولا يعترف له بأى سلطان . ؟ !
« أيها الأثينيون : لا تشغلوا أنفسكم بما تريده الآلهة . .
« إن الآلهة لا تريد منكم شيئاً ، ولا تعيركم بالاً ، فافعلوا نحوهم
ما يفعلونه نحوكم . . .

« والموت ، لماذا تخافونه . . ؟ ؟

ثم جمع الكلمات في فمه جمعا مدهشاً . وأطلقها كطابور متهاك
من رصاص مقدوف :

— طالما كنا على قيد الحياة ؛ فالموت غير موجود . . .
« فإذا وجد الموت ؛ فإننا نكون قد صرنا إلى اللا وجود » . . .
وأحسب أن الأثنيين بعد سماع هذا الخطاب ، قد تدفق إعجابهم كالسيل ،
وتفتحت حناجرهم كالشلالات العظيمة هاتفة : — مرة أخرى هذه
الروائع يا أيقور . . .
فيعود — أيقور — ويقول :
— « طالما كنا على قيد الحياة ؛ فالموت غير موجود ، فإذا وجد
الموت ؛ فإننا نكون قد صرنا إلى اللا وجود » . . . وهكذا اقتحم —
أيقور — المدينة التي تركنا سقراط على بابها . . .
لقد كنا ندع من دخولها ونخاف ؛ فأزاح الرجل العظيم المخاوف
من طريقنا . ، ودخل أمامنا ملوحاً من بعيد بيده البارّة : أن ادخلوا . .
فهل دخلنا . . . ؟

من المحراب . . إلى غرفة التشريح .

هذه التعاليم التي بشر بها سقراط وأيقور ، والتي أهابت بالإنسان
أن يفتح حمى نفسه ، ويتقدم غير مدعور لدراستها ، واستنباط فضائلها
الثاوية فيها . هذه الصيحة المباركة التي دمدم بها « أيقور » على الخوف
كي يسعى الناس إلى الفضيلة في رغبة لا رهبة ، لم يتح لها أن تبلغ
في الضمير الإنساني القدر الذي يمكنها من الثبات والاستقرار .
ذلك أن فتي شاحب البدن ، مشرق النفس قدم إلى الدنيا في زيارة

سريعة . ومن فوق الشرفة العتيدة في هيكل ■ أورشليم « المقدس ، وقف
يقول في ابتهاج ضارع وصوت حالم :

— تبارك اسم الله القدوس الذي خلق الملائكة ليعبدوه ، وتبارك الله
الذي خلق الشيطان وأتباعه ، الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يسجد له . .
■ تبارك اسم الله القدوس الذي من جوده ورحمته أراد ؛ خلق
خلقه ليعبدوه . .

« الرب يقول لكم : من فقد نفسه من أجلى وجدها . .
« والحق أقول لكم : إن كان أحد لا يولد من فوق . . لا يولد
من الماء والروح ، لا يقدر أن يرى ملكوت الله » كان ذلك النذير البشير
هو — المسيح عيسى عليه السلام — ومن هنا أخذت قوتان خارقتان — الدين
والعلم — تتنازعان العقل الإنساني وتتوزعان . كانا يلتقيان حيناً .
 ويفترقان أحياناً . . وعلى الرغم مما ينطوى عليه استعراض المعركة التي
دارت بينهما من فتنة تغري بتبعتها ، فلا ينبغي أن نسمح لأنفسنا بأن
تستدرج بعيداً عما نحن بصدد بحثه ؛ فلنبق مكاننا متابعين مصير الأخلاق
بين العلم والدين

كان من الطبيعي أن يدعو الدين إلى الفضيلة ، وإنه ليفقد ذاته
لو هو أهمل الدعوة إليها

ولكن الرؤى الهائلة التي تسيطر على الدين تجعله يحصر اهتمامه
في الله . . ، ومن ثم فهو يهيب بالناس أن يصيروا آلهة . . أي يتخلقوا
بأخلاق الله . . بيد أن العلم يرى في الدعوة إلى هذا السمو البعيد إغراء
بالقعود والنكوص — ذلك أن أهدي السبل لكي لا تطاع . أن تأمر
بما لا يستطيع . .

لقد وقف المسيح عليه السلام ينادى الناس قائلاً :

— « لا تقاوموا الشر » . .

وبعد قليل سيجيء محمد عليه السلام ليقول :

— « تخلقوا بأخلاق الله . إن ربي على صراط مستقيم »

وكلا الدعوتين نبيلة وفاضلة . ، ولكن هل يستطيع تنفيذها . . ؟

لقد يكون من العقول أن نتوجه بموعظة المسيح إلى الرب سبحانه
مبتلين إليه ألا يقاوم الشر . . وسيجد الله من كمال ذاته . ومطلق قدرته
ما يصرفه عن مقاومة الشر . ومع ذلك فالله يرفض هذا الالتماس قبل أن
نتوجه به إليه . فهو سبحانه يقاوم الشر كما لا يقاومه أحد . . ويرسل
« جبريل » إلى قريتي سدوم وعاموراء ويأمره بأن يقتلعهما من الأرض ،
ويحملهما على جناحيه . حتى إذا أرهاقهما صعوداً في جو السماء كفأهما على
الأرض فتبرهما تتييراً . لا ينجو من الكارثة طفل ، ولا طير ، ولا نبات . . !
وهو سبحانه يرسل خمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ليقاوموا شر
قريش وبأسها . . فكيف إذن يطالب الإنسان بأن يكون أكثر ألوهة
من الإله ، ويقال له :

— لا تقاوم الشر . . ؟ !

وموعظة الرسول : تخلقوا بأخلاق الله . . كيف السبيل إليها . ؟

إن تمت استحالة مادية تعترض طريقنا . فنحن البشر لنا أمعاء يحتشد
فيها الميكروب احتشاداً يدفع النفس مكرهة إلى سلوك لا ترضاه ولا تريده . .
ولكل إنسان كبد وغدد ، إذا أصاب إحداها الخلل سرت العدوى في
غير إبطاء إلى سلوكه فجعلته غضوباً ، أو مدمناً ، أو عريئداً . .

فكيف أرنو إلى مستوى إله لا كبده ولا أمعاء . . ؟ !

ومع ذلك ؛ فقد ظلت تعاليم الدين موضع تقدير العلم وإجلاله ، وهب من العلماء من جعلوا رسالتهم التوفيق بين المثالية التي تدعونا إليها السماء والواقعية التي تجذبنا إليها الأرض . حتى خلف من بعد الأنبياء الطاهرين خلف على النقيض أمعنوا في تجاهل الإنسان ، وقسموا تبعات الفضيلة والتزاماتها بينهم وبين الناس قسمة جائرة . ؛ فعليهم مهمة التبليغ فقط . ؛ وعلى الناس مهمة التنفيذ . . ! !

وكانوا كما يقول « اندريه كرسون » مؤلف « المشكلة الأخلاقية والفلاسفة » :

— « صارت الفضائل الدينية كال فقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والسذاجة والرحمة ومحبة الله والعدل — واجبا على عامة المؤمنين والمتصوفين ، كما كانت مادة ثروة للخطب والمواعظ . . أما الشخصيات الكهنوتية الكبيرة ؛ فقد كان لهم شيء آخر — البذخ ، والأحاديث المتأنقة مع النساء ، والشهرة ، والخدم ، والمناصب . والأرباح » كانت هذه الفضيلة من رجال الدين مسيحيين ومسلمين كارثة على دين الله وعلى دنيا الناس . ولقد وصل العلم الذي حاربوه ولا يزالون يحاربونه ، وصل من الدين ما قطعوه هم بغياهم وسوء سلوكهم . .

ذلك أنهم شقوا على النفس الإنسانية وأرهبوها حتى شمت العمل الصالح ، وتراخت قبضتها على الفضيلة

هذا أول . . وشيء آخر ، هو أنهم بالغوا — عن سوء قصد — في تخويفها بالجهول وترويعها منه . . وإذا كان لكل فعل رد فعل ؛ فقد

صمم الإنسان على اكتشاف ذلك المجهول فلما لم يجد هناك شيئا يخيفه بسط
ساقه ومدّ قدمه في وجوه آبائه الروحانيين - سابقا - وكان من الطبيعي
أن يمرق من كل قيد فاضل ، ولقد همّ ليفعل ، وأوشك الدين أن يقف
ليتقبل التعزية في وفاة الفضائل التي جاء ينشرها ويرعاها - لولا أن العلم
كان هناك في الانتظار ؛ فأعطى الفضيلة مفاهيم جديدة ، وبثّ في قلوب
الناس وعقولهم اقتناعا جديدا بحتمية الأخلاق ولزومها - اقتناعا لا ينبعث
من رهبوت ولا جبروت ، بل من واقع الحياة الإنسانية وتجاربها
واحتياجاتها ..

ولم يحدد العلم فضل الدين وضرورة بقائه في الميدان ولكن بعد
تطهيره من بعض رجاله أولا ، ومن الطفيليات التي أقحمها عليه سفهاء
شريرين ثانيا ..

واشترط العلم على الدين أن يقتسم التبعات ، ويعمل كل في نطاق
اختصاصه .. وكان فيما أخذه العلم لنفسه تصور المفاهيم الجديدة للأخلاق ،
وتشخيص الرذيلة تشخيصا مستمدا من الاعتراف بطبيعة الإنسان وواقعية
جسده وبيئته ثم أخيرا تحديد أمثل وسائل التقويم والعلاج . فإذا كنا
- في بلادنا - نريد أن نعطي الأخلاق الرفيعة حقها من العناية ..

وإذا كنا جادين في محاولتنا بعث الفضيلة حارة دافقة في سلوك الناس ..
وإذا كنا مصممين على إنشاء مجتمع سوى فاضل يسير كما يقول
- كونفوشيوس - بأقدام ثابتة وطيدة على صراط الفضيلة .. فلنمض
على ضوء هذه الاتفاقية المبرمة بين الدين والعلم ..

ولنهم جيدا . أن أخلاق الإنسان حين تدرس ؛ فيجب أن تتم هذه

الدراسة على ضوء صلة الإنسان بالأرض ، لا بالسما . . .
ولندرك أيضا أن سلوك الإنسان ليس نتيجة لتدخل من الله .
ولا تدخل من الشيطان - وإنما هو ثمرة الإنسان وحده . ثمرة أعصابه
وغددته ، وغذائه ، وتربيته ، وأسرته ، ومجتمعه . . .

ولسائل أن يسأل : هل معنى هذا أن مهمة الدين بالنسبة للأخلاق
قد انتهت ، والكلمة اليوم للعلم وحده . . .
ونجيب في إخلاص وصدق . كلا ، ولسوف نزامن الدين ويزامله
طوال بحثنا هذا - بيد أننا سننظر إلى أخلاق الإنسان كنتاج إنساني
محض . . . إن الخلق شبيه الذكاء - الكلمة الأولى في تشخيص علته
واختيار وسائل تجويده وتصعيده للعلم . . . والعلم بعد هذا يعرف كيف
يستعين بالدين في أداء دوره المحتوم .

ونوجز القضية كلها في هذه العبارة - إذا كان الحكم على الشيء -
أى شيء - فرع عن تصوّره ، فلا بد إذن من تصور الأخلاق . وهناك
لهذا التصوّر طريقتان - التصوّر الديني ، والتصور العلمي التجريبي . . .
ونحن نختار الثاني ، معتقدين أن الله ذاته يزكى هذا الاختيار .
ولكن لا بد من أن نسأل أنفسنا : لماذا تؤثر التصوّر العلمي
للأخلاق على التصوّر الديني . . . ؟

ونجيب :

أولا : إن التصوّر العلمي للمشكلة الأخلاقية يتيح لنا فرصة الكشف
عن المصادر الحقيقية لأخلاق الناس وسلوكهم - تلك التي تتمثل في تكوينهم
الجسدي والنفسي والبيئي . وهذا فضلا عن توكيده للمسئولية الأخلاقية ،

يهيب بالناس أن يضاعفوا من جهدهم المبذول في سبيل ترقية النفس وإعلاء طبيعتها . ما دامت الرذيلة التي تتعبد لهم ليست قدراً مكتوباً ، وما دامت وليدة عوامل من الممكن إزاحتها والتخلص منها ، ثم هي بالتالي توجه الجهود إلى الأهداف الحقة التي تبدأ من لديها محاولات التسامح والأعلاء .
إن تسعين في المائة إن لم يكن أكثر من قومنا لا يعرفون عن السلوك الانساني إلا أنه « المقدّر والمكتوب » !!

ويعبرون عن منابع هذا السلوك بآية من القرآن - « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشداً » . . .
تسعون في المائة أو يزيدون ، لا يبصرون الصلات الوثقى بين سلوك الانسان وتاريخه الوراثي ، وبين سلوكه وتكوينه الطبقي ، وبين سلوكه وحظه من التربية والصحة والغذاء . . .

إنها مشيئة إلهية تقمصت ذاته ؛ فهو صادق أو كذوب . متواضع أو مغرور . عفاً أو عرييد . لأن الله اختاره لهذا أو لذلك . . . !!
وإذن ؛ فما أوهن شعورهم بالمسئولية الأخلاقية إن كان لها في أنفسهم وجود . . . إنهم ليرددون في يقين عذب قول الشاعر :

كان الذي صورني يعلم في الغيب ما أجنى وما آثم
فكيف يحزني على أنني أجرمت ، والجرم قضاً مبرم . . ؟
وهذا الفهم كما قلنا لا يهدم المسئولية الخلقية فحسب بل يقعد بأصحابه عن محاولة السيطرة على النفس وتقويمها . وهذا يفضي بنا إلى سبب آخر من أسباب إثارتنا التصور العلمي . وهو :

ثانياً : التمكين للاعلاء والتفوق .

إن الكثرة الكاثرة من الناس تعتقد أن هذا الذى يسير فى موكب الغواية نشوات ثملا ، قد خلق لهذا . وليس إلى مرد من سبيل . . . والذى يسير فى موكب الصلاح قد خلق لهذا ، وليس إلى مفر من سبيل .

مشيناها خطى كتبت علينا — ومن كتبت عليه خطأ مشاها وإن الوعاظ ليتلون على مسامعهم آناء الـيسل وأطراف النهار ، نبأ الرسول حين خرج على أصحابه وفى يده كتابان . .

طوَّح الذى فى يده اليمنى وقال : إن أهل الجنة فى كتاب مثل هذا — قد علمهم الله فكتب أسماءهم ، وما سيعملون . .

ثم طوَّح الذى فى يده اليسرى قائلاً : وإن أهل النار فى كتاب مثل هذا ، قد علمهم الله فكتب أسماءهم وما سيعملون . . جفت الأقلام ، وطويت الصحف . . .

وسأله أصحابه :

— إذن ، فِيمَ العمل يا رسول الله . . ؟

فأجابهم : اعملوا ؛ فكل ميسر لما خلق له . . .

إن الحيرة التى اعتملت فى وجدانات أصحاب الرسول ، والى عبروا

عنها بسؤالهم الداهل الميهوت : فِيمَ العمل إذن . . ؟

هى التى تجعلنا نرثى لأنفسنا حين نقيس السلوك الإنسانى بهذا المقياس .

إن عبارة « فِيمَ العمل » عقبة ضخمة توضع فى طريق التسامى

والاعلاء ، وهى نتيجة محتومة للإيمان بأن الله قد اختار لكل إنسان نوع

سلوكه . وإذن فلا سبيل لتهديب هذا السلوك وترقيته . .
أما التصور العلمي للاخلاق ؛ فهو إذ يراها ثمرة ظروف خاصة تتغير
بتغيرها ؛ فإنه يطلق كل قوى النفس وراء الكمال حتى تدركه ويضع بين
يديها الوسائل اللازمة لبلوغ هذا الكمال

ثالثاً : الكشف عن المعايير الصحيحة للفضيلة ؛ فنحن مثلاً قد نصف
رجلاً بأنه زاهد - وهو في حقيقته بليد . .

أو نصفه بأنه قنوع - وهو في حقيقته عاجز . .
أو نصفه بأنه ضالّ - وهو على خير عظيم . . فما سر هذا التباين ؟
سره أن تصورنا الديني للسلوك لا يساير القواعد التي استنبطها له العلم
من أعماق التجربة الإنسانية . وعلى الرغم من ترحيب الدين بهذه القواعد ،
بل واستشراقه لها من زمن بعيد ، كما سنرى فيما بعد ، فإن التصوّر
الديني الذي تحتلّ الخرافة من كيانه مساحة كبيرة لا يزال يصرّ على
إهدار ما لكشوف العلم من قيمة .

وأضرب لكم مثلاً - رجلاً مثل « نجيب الريحاني » - على السرح - .
إذا نظرنا إليه من خلال تصورنا الديني للأشياء ، حكمنا عليه بأنه فاسق ،
وضننا عليه بالرحمة التي نرجوها لأمواتنا . . .

أليس يفرض عليه موضوع القصة أحياناً أن يتحسس يديه جسداً
غضاً ، أو يمتص من شفتي حبيبته في الرواية رحيقاً عذبا . . ؟ إن ذلك
إثم وفسوق . . .

فإذا نظرنا إليه من زاوية التصوّر العلمي هتفنا في إعجاب صادق .
بالفيلسوف الساخر . إنه معلم . وإن فنه للجامعة تلقى على المجتمع أبلغ

الدروس وتوجهه نحو أسمى الفضائل . . . ذلك أن العلم لم يجد في الريحاني سوى فنان يعكس على المسرح في سخرية . ما تأتيه حياتنا الواقعة في تبجح ، ثم هو ينفى على المشهد الروائي من أضواء نفسه وتجربته وحكمته ما يجعله هداية مجسدة لا يكاد الناظر ينساها . :

عندما كان المجتمع المتبجح الدليل مشغولا بالسجود لحفنة آبة من الأمراء . ويؤم الساجدين أصحاب الفضيلة الذين يغارون على الفضيلة - خرج الريحاني على الناس بروايته « سلامة في خير » وجعل أحد مشاهدها الطويلة العامة . مشهد أمير وحاشيته ، ظن الريحاني واسمه في القصة « سلامة » أنهم يأتمرون به ليسرقوا وديعة المال التي يحملها ، وهناك في قاعة تشبه قاعات العروش وقف « سلامة » يسخر من الأمير وكأنه يقول للملايين : اصنعوا مثلي !! اصنعوا مع الأمراء الزائفين الذين عندكم في المجتمع ، مثلما أصنع أنا مع هذا الأمير الزائف على الشاشة . أو المسرح . . وقف الريحاني يقول :

— انتم يا أصحاب السمو كده .. حرامية .. غجر .. آه يا غجر .. !!
ومن هنا ، فأن الريحاني لم يكن رجلا فاضلا فحسب . . بل كان رائدا من رواد الفضيلة الخالدين .

رابعا : دراسة النفس الإنسانية ، والسلوك الأنساني دراسة تجريبية لا دراسة لاهوتية . . بمعنى أن نعرف حقيقة الضمير والغواية . ونضع الخطيئة في مكانها الحق بوصفها - عواطف ضلت طريقها - ، والمرض الخلق بوصفه « عقدة مرضية » تحرض علينا اندفاعاتها المغوية المردية . . ثم نرسم نهج العلاج غير متأثرين بغير ما أفضت إليه البحوث النابعة من الخبرة والتجربة

أعرف شاباً اضطربت حياته الانفعالية الجنسية اضطراباً وجه سلوكه
وجهة منحرفة شاذة . . . وكان من حسن حظه أن استمع إلى نصيحة
ألقيت إليه بأن يتعلم فنّ الرقص ويمارسه كهواية دائمة ، وجاءت النتيجة
بما لم يكن منتظراً من الفضيلة والاستقامة والتسامي . ، فلو أن النصيحة
التي ألقيت إلى الشاب كانت عبارة عن موجز لأحدى الخطب المنبرية
التي تدعو إلى التقوى وتنهى عن الأثم ، وهو ما يتوصل به تصورنا الديني
لمسلوكنا الخلقى ، إذن لكان هذا التعس قد سجل رقماً قياسياً في الاستجابة
لنوازع علمته وعقده . .

إن العلم قد وضع الإنسان تحت مجهر كبير وعدسات بصيرة وسلط
ضوءاً غامراً على دهايز نفسه واكتشف الثعابين الملتوية المتكورة - تلك
العقد الخبيثة التي تضله وتغويه وأعطى التصورات الدينية للشيطان والقلب
والروح مفاهيم واقعية صحيحة وبذلك وجه الجهود المبذولة لتصحيح
شخصيتنا ، والظفر باكتئالنا وجهة عملية مجدية . . وإذن فلنمض معه ،
ولنبداً من هنا . .

ليس هناك سباطين . !

لقد لعب الإيمان بوجود شيطان يسكن قلب الإنسان ويوجهه ، دوراً
هاماً في حياتنا السلوكية ، ولعلّ هذا الإيمان كان نافعا يوم كان الإنسان
يتلقى عن غريزة الخوف إيمانه الوجمل بكل ما هو غيب غير منظور . .
وإذا صحّ أن يكون هذا التصور للشيطان ولمسكنه - القلب - وسيلة
لاكتئالنا في مرحلة متقدمة من تطورنا ؛ فإن هذه المرحلة قد دخلت
في ذمة التاريخ منذ أجيال . وبقاؤنا عندها يعنى وقف نمونا ، ويعنى

بالتالى انقراضنا . . . وإذ كان انقراضنا غير ممكن ؛ فإن طبيعتنا العاقلة
القادرة تتولى نقلنا إلى المرحلة التالية . . . ومن ثمّ رأينا فكرة الشيطان
تنقرض من ثلثى العالم المتحضر تقريبا ، وهى فى طريقها إلى الفناء التام . .
وإن خير ما يزرجه الصلحون فى بلادنا هذه أن يتعاونوا مع التطور والتاريخ
فى تطهير وجدانات الناس من تلك البقايا . . . بقايا القرون التى لم تعد
سوى حديث وذكرى .

ولعلّ ماوتسى تونج كان يعنى تحقيق هذا الغرض عندما سبق إليه
أحد رجاله وكان قد باع بعض أسرار قومه لغريمهم «شيانج كاي شيك» . . .
وبتفتيش الرجل عثر معه على بعض الدولارات الأمريكية . . . وقال يعتذر
عن فعلته ، وقد تحوّل وجهه إلى قوس قزح - أصفر ، أحمر ، أخضر . .
معذرة ؛ فقد أغوانى الشيطان . . .

فأجابه ماوتسى : « وقد استلّ دولارا من التى ضبطت معه ؛

— إذا كنت تعنى هذا الشيطان ؛ فقد صدقت . وإذا كنت تعنى
شيطانا آخر ، فدلنا على مكانه فى جسمك لنريحك منه . . . أجل - إن الشيطان
الذى يسكن قلب ابن آدم ويوسوس له ، قد لقي حتفه من زمن بعيد -
وإن الأيمان بوجود قوة مستقلة عنا تحمل هذا الاسم ، ولها سلطان علينا
تدفعنا به إلى الغواية والأثم ، لأكبر معطل للنمو الخلقى الذى يستمد
فاعليته من الشعور الأكيد بمسئوليتنا الكاملة عن أكتالنا - هذه المسئولية
التي تقوم على أساس وطيد من الحرية والأرادة والاختيار . . . إن خمسة
وتسعين فى المائة من قومنا لا يزالون يعتقدون أن الشيطان هو الذى
يدفعهم إلى كل موبقة وعار . وفى كل موعظة ، أو خطبة جمعة يسمعون

عن الشيطان أحاديث كأن أصحابها رأوا هذه الشياطين وواكلوها .
وساروا في رعايها ، وهم يرددون في ذلك أحاديث لا يفقهون ، ولا يحاولون
أن يفقهوا حقيقة معناها وأهدافها . ونحن لا نكذب رسول الله . وإنما
نكذب الفهم المضطرب لأحاديثه . . فالرسول مثلا يقول : إن لكل إنسان
لوتين - لمة ملك و لمة شيطان . ؛ فهل مفهوم هذا الحديث أن في جوف
كل إنسان ملكا وشيطانا يتصارعان . . ؟

لو كان ثمت وجود مادي للآتين لوجب أن يغلب الملك الشيطان .
ويبطل سحره وتأثيره ، لأن الملك ممثل الله الذي لا يغلب ولا يقهر . .
أو لوجب إذا كانت النتيجة عكسية ألا يؤاخذ الإنسان بشر يأتيه أبدا ،
فليس هو أقوى جنانا ، ولا أعز سلطانا من الملك . .

إذن فمعنى الحديث أن في كل إنسان قوتين نفسييتين تابعتين من ذاته
وكيانه - هما ما عبر عنهما علم النفس الحديث بالأرادة ، والاندفاع -
أو ما يعبر عنهما علم الأخلاق بالضمير ، والغواية .

ويشبه هذا قول الرسول : إن الشيطان يضع خطمه على خطم ابن آدم -
فأبنا حدث له هذا ، أو رآه . . ؟

ولكن لما كانت اندفاعاتنا الغريزية الشريرة تسلك للتعبير عن نفسها ،
دائما ، أو غالبا - الوسائل التحتية ، والهواجس المستخفية ، وذلك
لأحاسيس بأنها تتحدث التقاليد المرعية والمواضعات الاجتماعية ، كان
من أبلغ صور الحديث أن تشبه عقدنا النفسية المستكنة المتربصة بهذا المثال -
لا سيما والمخاطبون بذلك هم قوم لم يكونوا منذ ألف وأربعمائة عام قد عرفوا
شيئا أي شيء ، عن علم النفس ، وعلم التشريح . . !

إذن ليس هناك شيطان ، بل لقد وصل العلم إلى أنه ليس هناك شرٌّ بالمعنى المعروف لنا .

والمسئلة تسير هكذا :

أ — لكل إنسان غرائز أو طبيعة إنسانية راسخة

ب — كل غرائزنا قيمة نافعة

ج — طريقة استخدامنا لهذه الغرائز هي التي تشر ما نسميه خيرا وما نسميه شرا .

د — وإذن فالخير هو الاستخدام السويّ لغرائزنا والشر هو الاستخدام المنحرف لهذه الغرائز .

ويؤيد هذا ما نراه من نسبية الخير والشر حتى بالنسبة للفرد ذاته ؛ فحب الظهور مثلا فضيلة عندما نكون في الخامسة عشرة من عمرنا لأنه يشجذ انتباهنا ويوجهه نحو العناية بتكوين الذات والمستقبل . ولكنه حين نبلغ الستين مثلا يصير رذيلة وشرا

وما أصدق « هادفيلد » وهو يعرف الشرّ فيقول :

— « الشرّ مثل القذارة ، مادة في غير مكانها . أو على الأصح وظيفة

أسىء توجيهها ؛ فهي قيمة في نفسها ، ضارة إذا أسىء وضعها . »

ثم يضرب لنا مثلا فيقول :

— « الاحتقار مثلا خير وفضيلة — إذا وجه نحو الدناءة . . . وشر

ورذيلة . إذا وجه نحو أولئك الذين لا ذنب لهم إلا تواضع أحسابهم . .

والتملك أيضا إذا وصلنا غريزته بحمار جارنا فهو شرّ . . . وخير إذا

وصلناها بحديثنا الجميلة الناضرة . . » والآن نسأل سؤالا :

— إذا كان هناك شيطان مادي ينشر الرذيلة ، ويحمي حماها ،
أما كان من المحتوم أن تكون الرذائل واحدة في كل زمان ومكان . . . ؟
لكن المشاهد للموس غير هذا بكثير . فنحن اليوم وحق عامنا هذا
الذي نعيش فيه عام (١٩٥٣) نجد الرذائل مختلفة ، والفضائل متباينة
اختلاف العادات والتقاليد .

فعلى ربح استراليا مثلا تعيش قبائل تستحسن تعدد الأزواج ، ويرون
تعدد الزوجات إفكا وعارا . . . وفي بلادنا ، نبيح تعدد الزوجات ، ونرى
تعدد الأزواج إفكا يوجب الرجم بالحجارة . . .
فإذا اقترف أحد من قبائل استراليا إثم تعدد الزوجات أو اقترفت
امرأة من بلادنا وزر تعدد الأزواج ؟ فهل أغواها شيطان واحد . . . ؟
أم أن للشياطين جنسيات مختلفة ؟ فمنهم الاسترالي ، والأمريكي ،
والمصري . . . ؟ !

لعلّ الدين يأسفون لمهاجتنا الشيطان على هذه الصورة يمنحوننا
رضاهم حين يعلمون أن إيماننا بوجود مادي للشيطان — أي إيماننا بأن
الشيطان ذات تفكر وتدبر وتضل، وتغوى ، قد أفضى بقوم إلى عبادته
ودفع شره بتقديسه والتسبيح له . . .

ومنى . . . ؟ اليوم ، وغدا ، وبعد غد . . .

وأن . . . في بلاد مسلمة قريبة منا اسمها العراق . . . ؟ !

ثم ما هذا القلب الذي يسكنه الشيطان . . . ؟

لقد لعبت كلمة « القلب » في حياتنا السلوكية دورا مشابها لدور

الشيطان المزعوم

ولنبداً حديثنا عن مسكن الشيطان هذا بأعلان تصديقنا وإذعاننا
لقول الرسول عليه السلام :

■ ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد
فسد الجسد كله . ألا وهي القلب . . . »

ولكن ما معنى صلاح القلب وفساده في هذا الحديث . . ؟

هل يعنى الرسول الصلاح المادى . . ؟

لكم تقع أعيننا على أناس لهم قلوب تستطيع أن ترفع جبال الألب
بنفثها . ، ومع هذا فين أصحابها والصالحات الباقيات مثل ما بين القطبين
من أبعاد . . صحيح أن سلامة القلب بل وسلامة أى جهاز من أجهزة
الجسم تساعد على خلق سلوكٍ سوىٍّ وديع . كما سنذكر بعد ، ولكن ليس
ذلك قاعدة عامة أكيدة كما يفهم من الحديث .

أم هل يريد الرسول الصلاح المعنوى . . ؟ - وإذن فما مأتى هذه
السلطة العارمة لشيءٍ غير موجود . . . ! ! !

هناك نبأ آخر سيعيننا على دحض الفهم غير السليم الذى نفهم به هذا
الحديث ، والذى يجعلنا نمنح القلب سلطة غيبية وروحية ثم نوجه عزمنا
في عناء ضائع نحو استرضاء هذا الطلسم واستكناؤه .

والنبأ الذى نسوقه يروى قصة فخواها ، أن الرسول وهو غلام . وكان
ثاوياً في ديار مرضته حليلة - هبط عليه ملائكة من السماء . ومعهم طست
وإناء . شقوا صدر الرسول ، وانزعوا منه بضعة سوداء هى مسكن
الشيطان ، ، ثم غسلوا المكان بالمسك والكافور ، ولمسوا مكان الجرح .
فعاد كأن لم يمسه سوء . . . ! !

أصحیح هذا . . . ؟

إن إجلالنا لرسول الله هو الذى يحدونا لتزیهه عن حدوث ما يزعم الزاعمون أنه حدث . وإن هدم هذه الأسطورة لضرورى لأنشاء سلوك إنسانى فاضل - هذا السلوك الذى لا سبیل إليه حتى يتلاشى الوهم الجانم من تصوّر الشیطان ومسكنه فى أجسامنا . وحتى یعرف جهادنا للاكتمال طریقته إلى مكان المعركة الحقیقی . . . ونبدأ ؛ فنقول : إن الذین یحاولون تكريم الرسول بهذه القصة أصدقاء جاهلون . . . بمعنى أنهم یسیئون للرسول حیث یحسبون أنهم یحسنون . . . !

فمعنى ذلك النبأ - لو صحّ - أنّ فى كل قلب أو صدر بضعة سوداء .
فى مسكن ابن آوى . . . الشیطان . . . !

والكى يكون « محمد » صاحب خلق عظیم ، یؤهله للرسالة والقُدوة ،
زرع الله من صدره تلك البقعة السوداء حتى لا یجد الشیطان مكانا یاوى
إليه حين یعود . . . وإذن ؛ فلا فضل لمحمد علیه السلام فى سموّ خلقه ،
ولا فى عظمة نفسه . . .

وإذن ؛ فلو أن بیت الشیطان بقى فى صدره لاقترب مثلنا الآثام
والأوزار . . .

وإذن ؛ فنحن معذورون حين نعب الخطایا ونكرعها أكوابا وأباريق
وأنهارا . . . مادام الله القدير الرحمن لم یستعمل مبعضه فى اجتثاث تلك
البضعة السوداء من صدورنا . . . !

یا أيها الناس . فكروا قليلا ، بل فكروا كثيرا ؛ فلیس مما ینشرح له

قلب الله أن يكون خلفاؤه في الأرض على هذه الشاكلة من السذاجة والغباء . .
والآن نستطيع أن نفهم ما يريد الرسول بقوله - إن في الجسد مضغة
إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد - ألا وهي القلب - وقوله
وهي ينجي ربه :

- يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك -

إنه يعنى الإرادة ، وبهذا يحقق الرسول معرفة ونبوءة ، فغاية ما وصل
إليه علم النفس أن سلوك الإنسان الذى هو ثمرة عوامل كثيرة يسيطر
عليها عاملان - الإرادة ، والاندفاع - ولما كانت الإرادة هي القوة
التي تدفع السلوك إلى الخير فقد كان الرسول لا يفتأ يسأل ربه أن يثبت
إرادته دائماً على الحق . . ونستطيع بالنسبة للحديث الأول أن نفسره
تفسيرا طبييا ؛ فعافية الجسد مرتبطة إلى حدٍّ غير قليل بعافية القلب
أما أن يكون القلب « فيلا » يسكنها شيطان ؛ فإذا كان لا بد من
أن يكون هذا صحيحا ؛ فإنه لا بد أيضا أن يكون قد انقرض نوع الإنسان
الذى كان يحمل بين جنبيه هذه « الفيلات » وحلَّ بديله نوع
من الأنسانية جديد .

النفس قد يكون انفعالا مرضيا

ولا بد لتحرير سلوكنا من العوامل التي تعتاق نموه وتهذيبه .
من أن نفرق بين تبعاتنا الدينية ، وتبعاتنا الخلقية . .
إنك تستطيع أن تصلى وتصوم وتحج . وأنت مشحون النفس بالعقد
المكبوتة . . ولكنك لن تكون قط صاحب ذات منظمة وطيدة ، وسلوك

سوى مكتمل ، وفيك هذه الشحنة المدمرة من العقد النفسية .
والصلاة مثلا ، لن ترد عن سلوكنا تلك الآفات التي تعترضه ، كالخجل ،
والخوف ، والانحصار داخل النفس ، والتطلع الجنسي وغيرها . . وإنما
تردها تلك الوسائل التي استحدثتها علم النفس والتربية والأخلاق ، ولا شك
أن الصلاة مضافة لهذه الوسائل العلمية ستكون عاملا مساعدا .

وإنا لنلبس الحق بالباطل حين نخال التدين - السبيل الأوحى
إلى الأخلاق . . وأود من القارىء أن يذكر جيدا أنني أتحدث عن التدين ،
لا عن الدين . . والتدين هو سلوكنا الدينى . أي طريقة تنفيذنا للتعالم
الدينية . . وأنا ، وأنت ، والآخرون - نعرف كثيرين من الذين يرهقون
الأرض بسجودهم ، يصومون النهار ، ويقومون الليل ، ومع ذلك فهم
كما يقول الرسول نفسه عليه السلام لا ينالهم من صيامهم إلا الجوع .
ولا ينالهم من قيامهم إلا السهر . . ! !

أجل . . كثيرا ماتقع العين على نظراء هذا الذى حذر الأعرابي
الحكيم منه ولده حين رآه يطيل سجوده فقال :

صلى فأعجبني وصام فرابنى - نَحَّ القلوص عن المصلى الصائم
هؤلاء وأولئك الذين يلبسون جميع مسوح الرهبان وتنطوى جوارحهم
القائمة على ركام هائل من الحقد والخبث ، والأنانية ، وعشق الجريمة .
ويمشى الواحد منهم بين الناس كما يقول الشاعر : بوجه أبى ذر وقلب
أبى جهل . . !

إذن ، فمن الواقع فعلا - أن يؤدى الرجل الطقوس الدينية . ويظل
مجردا من الأخلاق الفاضلة الكريمة . ومن لم يسغ منا هذا القول . أو إذا
كان هناك من سيحسبه غمزا للدين ؛ فليقرأ هذا الحديث الصحيح :

« ذكر عند رسول الله نبأ امرأة تقوم الليل وتصوم النهار وتداوم على الصلاة والذكر . بيد أنها تؤذى جيرانها بلسانها ؛ فقال الرسول عنها - « هي في النار - » . . . !

هذه امرأة تصلى وتذكر الله وتصوم وتقوم . ومع هذا فهي رديئة الخلق . . .

وليس ذلك فحسب ، بل إن الرسول ليخبرنا في حديث آخر - أن أول من يدعى للحساب يوم القيامة ثم يقذف به في النار - رجل حفظ القرآن ، ورجل قتل في سبيل الله . . . لماذا . . . ؟ لأن سلوكهما لم يكن سائرا وفق مظهرها الديني ، وكان ينقصهما عنصر التطابق بين النية الصالحة ، والعمل الصالح . . .

ونحن لا ننكر أن الدين يدعو للأخلاق الفاضلة ؛ فالمسيح مثلا يقول :
كونوا كاملين ، كما أن أبائكم الذي في السموات هو كامل . . .
- لا يغلبك الشر . بل اغلب الشر بالخير . . .
- لا تقرب الشمس على غيظكم . ولا تعطوا مكانا للغضب

والرسول يقول : ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن . . .

■ إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا . . .
« إن الله ليغض الفاحش البذي »

ولكن ، كيف السبيل إلى هذه الأخلاق . . .
أهو التدين من صلاة وصيام ونسك . . . ؟

لقد رأينا كيف يمكن أن يتدين الإنسان ، وملء نفسه غواية وهوى -
لا ، بل إن الدين كثيرا ما يكون ، سببا في بلاد كبلادنا - انفعالا مرضيا
لنقد مكبوتة . . وإدراك هذه الظاهرة ومحاولة فحصها من أجل القربات
إلى الله ، وإلى الحقيقة ؛ وإيصالها يضيع على المجتمع كثيرا من البر ومن
الخير ، ومن الصلاح .

ذلك أننا مثلا يأخذنا الجدل والحبور حين نرى شبابنا ينصرفون
في أعقاب المراهقة أو خلاها إلى المسجد ، أو إلى الكنيسة ، ويعكفون
على بعض المظاهر الدينية . ونحسب هذا السلوك منهم فضيلة واستقامة ؛
فنتام عن ملاحظة أخلاقهم وتعليقها في هذه السن الحاسمة والمرحلة الخطرة
الفاصلة ، ولو أننا بحثنا قليلا ، لعلمنا أن هذا السلوك نشوة طارئة ،
وانفعال غير طبيعي سيفضى إذا أهملنا ملاحظته وتهذيبه إلى ابتكاس
مروّع ، أو يتبادى بالشخصية حتى يدسها في حالة إدمانية ليس لها فواق
من البلادة والانطواء والتوهم .

ففي هذه السن تتحرك الغريزة الجنسية في موكب عارم من الرغبات
والمنى - وتقف ظروف بعض الشباب عقبة في طريقها ، ويكاد يسحق
شخصيتنا ذلك الجذب الشديد بين الرغبة والعجز ، أو بين الدافع ،
والكبح . فيهب العقل الباطن لأتقاذا من هذا التردد الموثس . فيشير نحو
المسجد ، أو الكنيسة ، ويوحى لعقلنا الواعي بالهرب شطر أحدهما .
دون أن يجبره طبعاً ، أن ما يفعله هو الهرب بعينه - الهرب من واقع
عجزنا عن تقبله والتفاعل معه . . ثم من موقف كريبه جاء نتيجة عجزنا
واضطراب حياتنا الانفعالية .

وهكذا يتدين الشاب في هذه السن ، ويفرح ذووه ظانين أنها هداية
الله أدركته . والحقيقة التي تغيب عن البال أن هذا السلوك الطارىء ليس
تدينا صادقا - إنه انفعال مرضي ، إنه الفجر الكاذب الذي يلتصع في الأفق
ليضل الناس عن الفجر الصادق الصحيح . . . ! ومن ثم نرى التدين
في هذه السن محاطا بحصار صارم من التعصب الأعمى ، كما نراه عاجزا عجزا
مطلقا عن التسامح مع الجنس الآخر - أعني المرأة . . . وهذا يكشف
عن لباب المسئلة ويؤكد أن صاحبنا ذاك ليس خيرا ، وإنما هو مريض . .
ذلك أن غريزته الجنسية همست في أذنه عند أول قدومها ، تذكره
بأنها هنا . . .

ولما لم يسمع ، أو تظاهر بأنه لم يسمع رفعت صوتها . . وأخيرا
تحركت تحرك الجنين ووجهت إليه إنذارا حاسما . ولأمر ما عجز صاحبنا
عن الاستجابة الشريفة لغريزته ، وهرب من الموقف على الطريقة التي
سقناها من قبل . وهكذا صار بطريقة لا شعورية يجد لذة ومتاعا
وسكينة في هذا الموقف الذي أنجاه من ورطته . .

وما هو الموقف . . ؟ إنه التدين . وهكذا فهو لا يتعصب لدينه ،
وإنما يتعصب في الحقيقة لحالة نفسية وجد فيها ملاذا و خلاصا من شقاء
التردد ولفح الغريزة ، وما الدين سوى إطار لهذه الحالة وعنوان .

أجل - إنه يتعصب للذة التي يجدها بعد أن نجح من الصراع العتيد
بين رغباته المتطلعة وقيود المجتمع الزاجرة الرادعة . وهذا يصل بنا
إلى الظاهرة الثانية وهي عدم التسامح مع المرأة . واستهجانه لكل
ما يتصل بالجنس

استعرض الشبان المتدينين جميعا - نعم جميعا - تجدهم يحتفون بكل كلمة يتجشأها واعظ ضد المرأة . . . ولقد يتسامح معك بعضهم الكثير لو أنك شككت في وجود الله ، ولكنه يرفض أى تسامح لو شككت في أن المرأة دنس وإثم . . . !

إن اللاشعور واقف كاليدبان اليقظ ضد كل قوة تريد أن تخرج صاحبنا من لدته الحاملة الواهمة ، هذه التي يجدها في موقفه السلبي من الجنس الآخر . . . وشيء ثان - هو أن شعوره بحرماته من تلك الفاكهة المحرمة يدفعه بوسائل لاشعورية إلى تعميم ذلك الحرمان ، وجعله سياسة عامة . وهذا هو سر الحرب القائمة بين الرجل والمرأة في مجتمعاتنا المريضة . . .

عام « ١٩٣٧ » كوّنت مع أربعة من زملائي جمعية سرية غرضها - نسف بيوت البغاء . . . وقطعنا يومذاك شوطا غير هين في سبيل التنفيذ الذي شاء فضل الله ألا يتم . . .

وفي عام « ١٩٤٦ » ألقت مع زملاء آخرين « جيش الخلاص » على غرار جيش الخلاص الذي أنشأه في إنجلترا - وليم بوث - وكتبت في النداء الأول للجيش ما يأتي :

- « .. أما الرذيلة ؛ فلا نقول : إتناستها جمها ، بل سنعاملها وهواتها معاملة تهذيب لا تأديب ، ورحمة لا قسوة . وسننظر إلى العصاة من خلال حكمة ذلك الصوفي القائل - ليس بين الطائع والآثم سوى غلالة رقيقة من ستر الله لو تكشفت عن الطائع لاستويا -

« لهذا سنكون رذاذا طاهرا رطبا ينساب على الرذيلة فيزيلها ويطهر مكانها ، ولن نكون سيفا مصلتا أبدا . . .

« لن نسمى المجرم مجرماً ، بل الصديق المصاب . ولن ندعو الآثمة
آثمة ، بل الأخت المنحرفة . » وعن طريق المصحات النفسية ، وبيوت
التوبة سيكون كفاحنا الدائب الهادئ للفساد الخلقى فى المجتمع . . .

والآن أطلّ على ذينك اليومين المتضادين . . يوم هممت أن أنسف
بيوت البغايا . ثم يوم أردت أن أفتح لهن بيوت التوبة ، وأسميتهن
- الأخوات المنحرفات ، فأرى الحقيقة بازغة بينهما كضوء النهار . .

فى المحاولة الأولى كنت فتي عجز عن التوفيق بين مطالب غريزته ،
واحتشام بيئته ، وهرب من الموقف القاسى إلى أقرب مسجد فى الطريق . . .
ثم تحولت انفعالات الحب الجنىسى إلى تقيضها - بغض ، وتعصب ، ورغبة
فى الانتقام على طريقة طيب الذكر . . شمشون . على ، وعلى الأعداء
- يارب .

وفى المحاولة الثانية ، كنت قد صرت زوجاً وأباً . . وكان قد مضى
على زواجى سبعة أعوام ، وهو زمن كاف لاختفاء مشاعر الخصومة الظالمة
القديمة بينى وبين المرأة بعد إذ زال سببها ومحركها - الحرمان . ؛ فعاد
للانفعالات كثير من صفائها وعافيتها ، وصارت تسامحاً ، وفهماً ، ورغبة
فى التقويم . . .

وأستطيع أن أتصوّر سماع مهمة مختلفة تقول :

- إذن ؛ فأنت تريد أن تحول تجربتك الخاصة ، إلى فلسفة عامة . . ؟

وأجيب ، بل هى تجربة عامة تنتظم جميع الحالات المماثلة أو غالبها .

ولقد وضعت خمسة وثلاثين من الشباب المتدين تحت الملاحظة الدقيقة

المستطاعة ؛ فخرجت بالظاهرة الآتية :

١ - سبعة وعشرون منهم يحرمون سماع صوت « أم كلثوم » حتى ولو كانت تمدح الرسول ، أو تترتل القرآن . .

ب - خمسة وعشرون ، يحرمون سماع الموسيقى - غير العسكرية - عشرة منهم يسببون التحريم بأنها ملهاة عن ذكر الله . . وخمسة عشر يسببونه بأنها تحرك نوازع الشهوة البهيمية » - وعبارة الشهوة البهيمية . . هذه جاءت على السنة ثلاثة عشر شابا . . ! !

ج - اثنان وعشرون منهم ، لا يرون بأسا في شهود الأفلام السينمائية التي لا تعالج موضوعات غرامية محرمة ، وخمسة من هؤلاء يرهق ضماؤهم - جدا - في حالة تحقق شرطهم السالف ، أن يحتوى الفيلم على قبلة أو غمزة عين . . !

د - من هؤلاء الاثنى والعشرين - وجدت أربعة عشر لا يرون بأسا في شهود أفلام الحرب والسطو ، والتدمير - ووجدت ستة منهم يرضون كل الرضا عن هذا النوع من الأفلام . . ؟ !

هـ - الخمسة والثلاثون شابا - يؤمنون بوجوب إخفاء محاسن المرأة حتى لا يراها أحد . .

و - ثلاثون منهم يرونه حراما وإثما ، أن تقرأ قصة غرام مهما يكن بريثا فهم لا يؤمنون بخرافة الحب العذري . وواحد لا يجد بأسا من قراءتها ويقول : علينا أن نعرف الشر حتى لا تقع فيه . . . (١١)

ز - من هؤلاء الثلاثين الذين يحرمون قراءة أدب الحب ، ثلاثة عشر لا يجدون بأسا في قراءة قصص « أبوزيد الهلالي » و « عنتر بن شداد » للتسلية المباحة . . وخمسة لا يجدون بأسا في القراءة لرجال مثل « دارون »

ويجدون لذة في أن يوقعوا بين الدين ودارون في نظرية أصل الأنواع
وتطورها . . .

وهكذا نجد معظمهم . بل جميعهم يناون . شاعرين أو غير شاعرين
عن كل محاولة تريد تذكيرهم بالمرأة فضلا عن إغرائهم بها . وفضلا عن
دعوتهم إلى تصحيح موقفهم المغلوط من الجنس . .

إنهم سعداء بعزلتهم ، وبعقدتهم ، ومن ثم فهم يتحدون كل همسة
تهيب بهم أن استيقظوا . . حتى ولو كانت أغنية ، أو لحنا شريفا ،
أو كلمة مسطورة . . .

وعلى هذا النسق نجد كل واحد من الذين يتدينون تدينا مرضيا
يتعصب للدين في النقطة التي كانت ملاذه وموئله من الموقف الذي أرهقه
وأضناه . ؛ فالناجر الذي أفلس بعد ثراء عريض ، ونجاح حافل - لا يتجه
بتعصبه ضد الجنس . بل ضد المال ؛ فيدافع في استبسال شامخ عن الزهد
والقناعة وبقية هذه العائلة الكريمة . ومثل هذا السيد يأخذه ثمل عميق
كلما سمع حديثا يلعن الدنيا ويلعن طلابها ، والمجاهدين فيها - وإذا تلوت
على سمعه قول بهلول الصوفي :

لا تركزنَّ إلى الدنيا وما فيها — فالموت لا شك يفنيها ويفنيها

أموالنا لدوى الميراث نجتمعها — ودورنا لحراب الدهر نبشها

فاعمل لدار البقارضوان خازنها — والمصطفى جارها والله بانها

تقول : إذ صيبت في أذنيه هذه الآيات ؛ فكأنك أفرغت في خزائنه

الحاوية أموال قارون ، والولايات المتحدة . . .

ونحسبه نحن رجلا زاهدا فاضلا ، وحقيقته أنه رجل فاشل هارب ..

أجل ، إن الدين ، وهو الطريقة التي نعلن بها عن إزغائننا الديني ليس كما أوضحنا في هذه السطور قرينا للأخلاق ؛ فقد يوجد تدين . ولا يوجد خلق . . وقد يحدث العكس . كما أن التدين نفسه قد يكون مرضاً خلقياً يحتاج إلى علاج ، ومن هنا نرى أن الاعتماد على التدين وحده في إنماء الخلق وتحسينه عمل غير صالح .

إنك تستطيع أن تملأ فجاج المجتمع بالطقوس الدينية الصالحة ، وبالمواكب الملهلة المكبرة . وتجعل الصلاة إجبارية ، وتفتش على عقائد الناس كما فعل آخرون من قبل - ولكن ذلك كله لن ينشئ فضائل النفس ، ولا فضائل السلوك . ولن يقدر على هذا سوى التعبير المتوافق المنسجم عن طبيعتنا ، وذلك يقتضي بادی الأمر دراسة هذه الطبيعة دراسة تجريبية لا غيبية . أي أن تعرف ، ما الإنسان ؟

هذا هو الإنسان :

يقول الفيلسوف الصيني « لين يوتاج » :
- « إن أوضح الحقائق التي تتعاضد عنها هي أننا نملك جسدا ، ويضيق مبشرونا ذرعا بنقائصنا وبغرائزنا ؛ فيعبرون في بعض الأحيان عن أسفهم لأننا لم نخلق على شاكلة الملائكة ، ومع هذا ، فإن مجرد التفكير فيما يمكن أن تكون عليه حالة الملائكة خلق به أن يربكنا ويذهلنا .
« إن الغلو في تجاهل الجسد وتوكيد الروح كان مهلكا إلى أبعد الحدود ؛ فقد جعلنا في حرب مع غرائزنا الطبيعية وجعل من المتعذر علينا تكوين فكرة كاملة عن الطبيعة البشرية ، ولقد جاء هذا الغلو وليد

معرفة ناقصة بعلم الأحياء ، وعلم النفس . وبمقام الحواس والرغبات
والغرائز في حياتنا . . . »

إن هذه الكلمات الجليلة لفتح الأعين البصيرة على لباب مشكلتنا
السلوكية ، ولقد قلنا من قبل إنه أتى علينا حين من الدهر ومصابرنا
النفسية تقرر في غيبة من طبيعتنا وتجاهل مطلق لوجودها ، والأخلاق
الفاضلة كالصدق والأمانة والعفة تملئ علينا إملاء دون ما اعتباراً لمكانياتنا ،
ودون أن يبذل جهد ما للكشف عن مصادر سلوكنا - لكأننا ملائكة
جردوا من الغرائز والعواطف والرغبات وفقدوا صلتهم بالأرض التي
يعيشون عليها . . . ومن جانب آخر كان تمت تنويم كامل لأهم مقومات
الفضيلة ، ونعني بها الإرادة . . .

كانت الأمور تسير هكذا :

— لماذا يزني « س » ؟

— لأن لعنة الله سبقت عليه ؛ فكُتبه من الزناة ؛

— ولماذا يسرق « ع » ؟

— لأن غضب الله سبق عليه فكُتبه من اللصوص .

— ولماذا يتصف « ز » بالأمانة ؟

— لأن الله كتبه من الأمناء .

وكان رواد السلوك الأنساني وأطبائهم ، هم أجهل الناس به - إنهم
الوعاظ والمبشرون الذين كانت مقدرتهم تنتهي عند تشنيف الأسماع
بحديث طويل عريض عن مناقب الفضيلة ومثالب الرذيلة . . ثم يحف أثر
هذه المائدة المقدسة عندما يحف ريق الواعظ وتنتهي محفظاته . . .

وقد نجأى دقة التعبير حين تصور هذه الحالة كما لو كانت حدثا ماضيا
مختصرا العبارة بالفعل « كان » . فالحق أنها حالة ماثلة وعلة قائمة ، بيد
أنه من الحق أيضا أن النتائج الباهرة التي أظفرنا العلم بها ، والكشوف
الصادقة التي وصل إليها في تفسير حياتنا السلوكية قد جعلت من بقايا النظرة
البداية للسلوك والأنسان شيئا كالماضى بعد أن فقدت الكثير من مقومات
الدوام والاستمرار

لقد آمن العلم بأن الوعظ مسكن لا علاج - وماذا تفعل موعظة
رهيبة ، أو حبيبة في العفة ، إذا كانت تلقى على رجل ينطوى تركيه
السيكولوجى أو الفسيولوجى على حوافز حادة تكرهه على الخطيئة . . .
وهنا أخذ الأنسان بيد رفيقه إلى غرفة التشريح فماذا وجده . . . ؟
لعلكم تذكرون أن علماء المنطق حين أرادوا أن يضعوا للأنسان
تعريفا مناسباً قالوا « الأنسان حيوان ناطق » .
لقد كانوا صادقين ، وبين والحيوانية والناطقية تمر شخصيتنا الأنسانية
بمقتضى التأثير من الجانبين .

إن كلمة « حيوان » تصور الجانب المادى فى الأنسانى وكلمة ناطق ،
تعبير عن الجانب الفكرى . والأنسان بهذه المثابة يبدو كنموذج تصوغه
مؤثرات مادية ومؤثرات فكرية ، نابعة جميعها من طبيعته المتمثلة فى كونه
حيوانا وكونه ناطقا . ومن هذه الطبيعة يتلقى قدره المكتوب ، ويتحدد
سلوكه فى هذا الوجود . ثم تجيء البيئة فتقوم بدور « الشهر العقارى » . . .
إنها تسجل فى لوحها المحفوظ هذا القدر ثم تسهر عليه كي تنفذ
فى دقة وإذعان .

ماذا يفعل إنسان له غدد وأمعاء وأعضاء...؟ لنقرأ من كتاب « فن العيش »
كلمات ساخرة بيد أنها معبرة . ، يطلقها الفيلسوف الساخر « لى ليوانج »
من فم مملوء بالحكمة والمرح . . ؟

— « . . الذى أراه أن أعضاء الجسم البشرى ، الأذن والعين
والأنف واللسان واليد والرجل - لها كلها وظائف ضرورية . . ولكن
العضوين اللذين لا ضرورة لهما على الإطلاق ، ومع ذلك فقد زودنا بهما
هما : الفم والمعدة اللذان أورثا الجنس البشرى خلال العصور بلاء قاصما
وهما مقبلا . ذلك بأن وجودهما جعل كسب المعيشة مسألة معقدة . . وعندما
يصبح ذلك كذلك ، تقحم الحيلة والكذب والخيانة أنوفها في الشئون
الإنسانية . . وبدخول الحيلة والخيانة والكذب في الشئون الإنسانية يبرز
القانون الجنائى إلى الوجود . . »

« إن فى ميسور النبات أن يحيا من غير فم ومعدة ؛ فلماذا زودنا
بهذين العضوين . . ؟ ، ولنفرض أنه لم يكن من تزويدنا بهما بد ؛ أفما كان
فى ميسور الخالق سبحانه أن يجعلنا نستمد غذاءنا كما تستمد السمكة
والحماره غذاءهما من الماء ، أو كما يستمد الصرار غذاءه من الندى . . ؟ ،
ولو أنه فعل . إذن لما كان علينا أن نناضل فى هذه الحياة ، ولزالت هموم
الجنس البشرى وأشجانه . . » !!

أجل أن الحقيقة لتكشف لطلابها ؛ فإذا الخطاة أدوات لتنفيذ ما نسميه
الجريمة ، يمثلون فى ذلك الأوامر التى يصدرها المجتمع تارة ، وتصدرها
طبيعتهم الإنسانية تارة أخرى . . فلماذا إذا كنا جادين فى نشدان
الفضيلة والخير ، لا نسي لتقويم مجتمعتنا ، وتعلية طبيعتنا . ؟

إن الإنسان لا يولد كاملاً ، ولا يولد ناقصاً - لا يولد خيراً ، ولا يولد شراً . ، إنه يولد فقط . . .

وهو مجموع خليط عجيب دقيق من الأعضاء والأعصاب والدم والأمعاء والغدد - وبين سلوكه ، وهذه الأجهزة صلات أشد متانة ووثوقاً مما بينها وبين كافة المواءمات والقوانين .

أجل ، إنها تؤثر في أخلاقه تأثيراً جماً لا يكاد يضاهيه سوى تأثير التربية والبيئة - بل إن طول القامة وقصرها ليؤثر في تفكيرنا وسلوكنا . يقول « الكسيس كاريل » مؤلف « الإنسان . . . ذلك المجهول »

— « إن تمت تفاوتاً عظيماً في وظائف الأعضاء بين الرجل الطويل والنحيل ، والرجل القصير الممتلئ ؛ فالطويل عرضة للإصابة بالسل والعتة ، والقصير عرضة للإصابة بالهوس والسكر . . . »

ثم يقول - « وإن سلامة أغشية التنفس والهضم لذات سيطرة عظيمة على مقاومة الجسم للأمراض المعدية ، وعلى توازنه وكفايته الفكرية . . . وتشدد غدد التناسل أزر القوى البدنية والعقلية والروحية ؛ فما من خصي أصبح فيلسوفاً عظيماً ، أو عالماً كبيراً ، وتفرز الخصيتان والبيضان في الدم مواد معينة تجعل لأفعالنا كافة مميزاتها الخاصة ؛ فإفراز الخصيتين يورث الجرأة والضراوة والقسوة . . . »

إلى هذا الحد نحن خاضعون لدولة الجسم ، بل إن علماء الأخلاق ليرون في اكتشاف الغدة الدرقية انقلاباً هائلاً في دنيا السلوك الإنساني . . . وذلك لما وجدوه لها من أثر في تحديد وجهته نحو الهدى أو شطر الضلال . . . وكل خلل ينتاب أجهزة الجسم يعقبه خلل في النفس والأخلاق . ولطالما

سقى إلى السجن أناس بسبب كبد مريض ، أو أمعاء مشحونة بميكروب
الدوسنتاريا »

ذات مرّة أردت أن أعرف كيف ينحرف الصبي البريء انحرافاً
ناجماً عن مرض عضوي ، وتوجهت إلى نيابة الأحداث حيث أعانني أحد
رجالها الفضلاء على ما أريد .

— هذه فتاة صغيرة السن ولتزمز لها بحرف « ف » تشتغل خادماً
لدى أسرة لا تمكنها من كفايتها من الطعام والطفلة شديدة النزوع إلى
السرقه . ولكن ليس كل شيء تسرقه ؛ فقد يلقي في طريقها شيء نفيس
من حلى ، أو متاع أو زينة ؛ فلا يثير حاسنها ولا اهتمامها . . إنها مولعة
بسرقه الطعام حيث تلقاه تخطفه ، ولومن البقال ، أو من بيوت الجيران . .
وعندما سلمت الفتاة إلى مكتب الخدمة الاجتماعية للأحداث وشرع يدرس
حالتها بدأ رحلته معها بتوقيع الكشف الطبي عليها فألفاها مريضة يديان
الأسكارس التي تقاسمها كل غداء يدخل جوفها ، ولما كان حظها من
الغذاء قليلاً ؛ فأنها تعيش في جوع دائم . . وهكذا بدأت أناملها تتحسن
طريق الطعام حتى تكوّنت لها عادة سرقة ، ولقد عولجت « ف » وطهرت
أمعائها . . وأجريت لنفسيتها تضميدات يسيرة ردّت إليها اعتبارها وثقتها
بنفسها . وعادت وديعة أمينة فاضلة . .

فأي مصير كانت المسكينة ستلاقيه لو لم يكتشف العلم جذور العلة
في أحشائها . . ؟

كان المجتمع الرشيد المحترم سينبذها بعد أن ينعم عليها بلقب مجرمة ،
وكانت هي من جانبها ستقاوم وترد تحية المجتمع بأحسن منها . فتسجل

أرقاما قياسية في فن السرقة ، وتمارس البغاء السرى ، أو يتلقفها أهل
المروءة والنجدة من عصابات المخدرات والرقيق الأبيض (!) فيستغلونها
في التهريب وغيره حتى يأتى على « ف » دورها في الترقية يوما ما ؛ فتتربع
على عرش الجريمة وتفوق ربا وسكينة ، بسبب شئ لم تسع إليه ولم تحرص
عليه ، ذلك هو - ديدان الأسكارس . . . !

ما أعجب المفارقات التى تنتظمها حياتنا . . ؟ فالإنسان الذى نصفه
بالصلاح ، أو الفساد ، بالاستقامة ، أو الاعوجاج ما هو إلا ثمرة أشياء
لا يمكن وصفها بشئ من ذلك أبدا . ! ؛ فهذه الغدد التى تسرف فى إفرازها
فتسبب لنا شعورا جنسيا ينقلنا إلى الخطيئة ، أيمكن أن ننعتها بالرديلة ،
أو نحملها المسئولية . . ؟ !

وهذا الجهاز العصبى الذى ينتظم الجسم من المخ إلى القدم والذى
- حين يرهق أو يمرض - يسبب انحرافات عقلية وخلقية باهظة النتائج . .
أيمكن أن نقول عنه إنه جهاز فاضل ، أو جهاز مرذول . . ؟

إن هذا ليدعونا إلى تغيير مناهجنا فى تكوين الأخلاق وتحسين السلوك
تغيرا أساسيا يبدأ من الاعتراف بواقعية هذه المؤثرات التى تفرض على
الإنسان حياته وسلوكه ، وتضع بديل المواعظ المتجشأة ، والتحريمات
المحرضة - تلك التجارب العليمة ، والنتائج الواعية التى تدأب لبلوغها
وتحصيلها علوم النفس والتربية والأخلاق .

أما أولئك الذين لا يفتأون يطلقون خوارا مزعجا ، أن أصلحوا
الأخلاق . . طهروا الأنفس ؛ فما نحسب خوارهم هذا إلا تزجية لفراغ ،
ولقد رسم الله تعالى الطريق اللاحبة ، والجادة الواضحة حين قال :

— « سيروا في الأرض ؛ فانظروا كيف بدأ الخلق . . . » ؟

رى هل فعل « دارون » غير هذا . . ؟

لقد امتطى ظهر الباخرة - بيكل - وعند ما هبط منها إلى أرض التجربة ، راح يغوص بين رمالها وصخورها ، ومخلفات القرون المستجنة فيها - وسواء أصاب شاكلة الحق أم أخطأها ؛ فقد فعل ما يجب أن يفعله كل مؤمن بالانسان ، وبالحقيقة وبواجبه حيال الانسان والحقيقة - وهو ما يصنعه اليوم علم النفس والأخلاق . . إنه ينظر كيف يبدأ خلقنا كل يوم . وكيف يجيء أحدنا إلى الدنيا معبأ بوراثات الأولين ، أو على حد تعبير أحد رجاله « كل امرئ منا سيارة كبيرة يركب فيها جميع أسلافه . . . » - ثم يمضي مع الانسان وهو يجتاز مراحل نموه ، ويبصر غرائزه وهي تنبثق في أنفة أمرة . ويرصد ظهور العقل الذي هو مجموعة وظائف الدماغ من مخ ، ومخيخ ، ودماغ . . وبروز المعرفة التي هي ثمرة خبراتنا السابقة ، ويرى كيف يلتحم عقل الفرد بعقل الجماعة عن طريق المحاكاة . والمشاركة وعدوى العواطف ، وكيف يتفاعل الجسد مع العقل تفاعلاً يشمر أخيراً هذا الذي نسميه « الشخصية الانسانية »

عند ما تبصر رجلاً لا يفعل الرذيلة بحسب ، بل ويقف من مسئولية فعلها موقف اللامبالاة ، فتريث قبل أن تحكم عليه بأنه مجرم . . فغالباً ما مستجده مريضاً بورم النخاع المستطيل الذي يفضي بدوره لذلك الاستهتار . . .

وعند ما تبصر مدمناً للخمر حتى لا يكاد يفيق ؛ فلا تسلط عليه واعظاً ، ولا شرطياً . . بل ضمه بين يدي جراح وثيق ليجرى له عملية

بزل في السلسلة الفقرية ؛ فإنه يرتد سليماً معافى لا يكاد يذكر عن الحمر
شيئاً . . . !

وصحيح أن المجتمع . سبياً إذا كان متخلفاً في ثقافته وإمكانياته
كمجتمعنا . غير مستعد لهذا النوع من العلاج الذي قد يعتبره تدليلاً
مفسداً . وحتى لو آمن بجدواه فإن ظروفه لا تسمح بوضع جميع الحالات
وهي تجلّ عن الحصر موضع الرعاية المطلوبة ؛ ولكن ذلك لا يعني أن
يقنع بعجزه وجهله . بل عليه أن يبدأ رسم سياسة جديدة ينقذ بها من
الحاضر ما يمكن إنقاذه ، ويتيح للمستقبل من الفرص العليمة والقويمة
ما يجعله وطاء شريفاً لمخلوقات شريفة .

وإلى أن نلتقي في الفصل الأخير من هذا الكتاب نكتفي بتسجيل
هذه الحقيقة التي نوجز بها جميع ما سبق .

إن أمراض النفس كأعراض الجسد سواء بسواء . ليس للمرء كثير
سبب في تحصيلها ، وليس من المجدي أن يلام عليها أو أن يلتمس له الشفاء
من مكان خارج عن ذاته ؛ فلنبحث عن حقيقة سلوكه في داخله ، وداخل
بيئته . ولن نبصر هذه الحقيقة قط وعلى أعيننا عصابة من سوء تقدير
الإنسان ، بأن نضعه فوق قدره ، أو دون قدره . . . وإذن ؛ فلندرس
سلوكه في ضوء اعتبارات ثلاثة :

أ — أننا ندرس سلوك إنسان ، لا سلوك ملاك . .

ب — أخلاقنا ليست قدراً فرضته السماء ، وإنما هي ثمرة ظروف
إذا تغيرت تغيرت الأخلاق معها . .

ج - ليس السلوك السوى هو الذى يقوم على أساس من تعطيل
طبيعتنا الإنسانية وكتبها ، بل هو الذى يعبر عنها جميعا فى توافق
وتناغم ورشد

فلننظر - الآن - كيف تعمل طبيعتنا . .
وما الأغلال التى تؤودها ، وتضنيها . ؟
وهل تستطيع ، إذا حل وثاقها ، أن تهتدى سواء السبيل . ؟

طبيعتنا المخزرة ، أعلم .

« إن السم يلتجج الترياق ، ومن
« طبيعتنا الرديئة تنبثق طبيعتنا الوضيئة
« نثقوا بها ، وتعاونوا معها ...
- دكلسن -

في هذا الفصل

السعادة ... لا التقوى
انتهى عهد الخطايا ...
أنت مريض ، لا آثم ...
الآثم ، إدمان الشعور بالآثم ...
التحريم ، معطل الإرادة وصانع الأغراء ...
غراثرنا تعرف الطريق ...

السعادة . . لا التقوى

إن خير ما نفعله لا اكتساب شخصية مكتملة وسلوك فاضل أن نجعل
الاكتمال والفضيلة جزءا من طبيعتنا ، وذلك لا يتأتى إلا إذا توافر لطبيعتنا
الإنسانية اقتناع كامل بأن الفضيلة تعنى السعادة . . أى أن نجس خلال
نضالها من أجل مستوى أعلى أنها تمارس رياضة محببة ممتعة ويكون سعيها
الحديث أقرب إلى الهواية . منه إلى النضال والمجاهدة - ولكي يتم هذا
على نسق رشيد مجد . فلا بد من أن يحى وفق الطبيعة لا ضدها . .

لقد وهبنا طبيعتنا لنسعد بها . واستعمالها على خير الوجوه هو السعادة ،
وبالتالى هو الفضيلة . ولقد أدركت البشرية المتطورة ذلك ، وبث هذا
الأدراك فى سلوكها الإنسانى حرارة وبشرا ؛ فتلك البلادة التى كانت
تسمى زهدا . . وذلك العجز الذى كان يسمى ورعا . . وذاك الخنوع
الذى كان يسمى تواضعا . . والانطواء الذى كان يسمى عفة . . كل هاتيك
القرانيق العلى انقرضت وأخذت مكانها فى جدارة واستحقاق - هذه
الأخلاق الجديدة النابعة من طبيعة الإنسان . والتى تريد لتكفل له سعادة
ناجمة عن ثرائه واكتفائه ، لا عن يأسه وخذلانه . .

ولقد أمعن الفكر الإنسانى فى ربط الفضيلة بالسعادة حتى رأينا أحد
أعلامه يعرف علم الأخلاق بأنه : تعليم الناس فن الحصول على السعادة
وتحاشى الألم . . . ١١

وطبيعى أن يكون المقصود بالسعادة هنا - التوافق المتناغم بين شخصيتنا
للثالثة ، وشخصيتنا للرجوة . . بين طبيعتنا ، ومثلنا الأعلى . .

وبقدر استثمارنا لهذه الطبيعة تجي سعادتنا زاهرة وافرة . والشخصية
السوية أعنى تلك التى تكون حياتها تعبيراً سليماً وافياً عن غرائزها
واحياجاتها . هى وحدها الخليفة بأن تكون فاضلة وسعيدة .
إنه لأقرب إلى الهداية والنضج - ذلك الذى يتفتح وجدانه على نمط
سواء وهو يصغى لأم كلثوم تغنى :

أبا الزهراء قد جاوزت قدرى — بمدحك بيد أن لى انتساباً
فما عرف البلاغة ذو بيان — إذا لم يتخذك له كتاباً
ثم وهى تغنى :

القلب قد أضناه عشق الجمال — والصدر قد ضاق بما لا يقال
يا زب هل يرضيك هذا الظما — والماء ينساب أمامى زلال...؟
ذلك أن البيتين الأولين يرضيان فينا رغبة دينية ، والآخرين يشبعان
فينا رغبة فنية . واستجابتنا للموقفين على صورة متماثلة ينبئ عن طبيعة
معتدلة عادلة ، تنطلق منها الرغبات انطلاقاً متساوياً متسامياً وهذا مثل
نضربه . ويقاس عليه كثير من الأمثال .

أما الذين يفرون من رغباتهم ، ويعلنون حرباً أهلية ضد طبيعتهم
فليسوا من الفضيلة ولا من السعادة فى شئ . . . ولقد يتساءل سائل :
لماذا...؟ إنهم سغداء فى نضالهم وحرمانهم وأنت تزعم أن الفضيلة الصحيحة
هى التى تتحقق بوسائل تجلب معها السعادة ؟ فلماذا لا يكون هؤلاء
السعداء فضلاء . . ؟

ونجيب : إننا لا نريد تلك السعادة الزائفة المغرورة ، فالهندي الذى
« يفرقش » الزجاج ، ويطوق جسده بالثعابين ، ويتقلب عرياناً على أسنة

الرماح وروس المسامير ثم يجد نشوة فيما يفعل ليس سعيدا .
وقد يسأل آخر : مادامت الفضيلة هي السعادة ؛ فأولئك الذين
يكرعون الخمر ، ويتقلبون بين الأحضان المثلة قوم فضلاء لأنهم سعداء . . .
ونجيب : من قال : إن هؤلاء سعداء . ؟ إنهم أنفسهم لا يجرءون
على ادعاء هذا ؛ فليس في العريضة سعادة . وإنما هي - لذة بين ألمين - ،
ونشوة كاذبة بين يديها شقوة ومن ورائها شقوة . . .

إننا نعني بالسعادة ، هذه الحالة الوجدانية الفرحة المشرقة التي نجدها
حين نعبّر عن غرائزنا الراسخة تعبيراً متوافقاً ، وبذلك أيضا - نستبعد تلك
الأسطورة التي عرفها الشرق طويلا تحت اسم « السعادة الروحية » هذه
التي تقوم على تحطيم الجسد وجحود طبيعته ، والتي يعتقد الناس أنها مثوبة
الذين يدخلون مع طبيعتهم في نضال مرير شاق تحت اسم « التقوى » !

وأكاد أحسب أن الإنسانية لم تضل طول حياتها بشيء يضاهي حظها
من الضلال الذي سببه لها إذعانها الأعمى لأسطورة السعادة الروحية ،
فلطالما كتب عليها أن تبقى تحت تأثير هذا النوم . راضية عن بؤسها
ورقها ، وشقائقها ، شاكرة أنعم الدين يسلبونها النعمة . . . ! ! مستعيضة
عن السعادة الحقة التي تطعم الجائع ، وتكسو العاري ، وتطمئن المذعور ،
وتهدي الضال ، بسعادة روحية تنبع من مجاهل لم نرها ، ولم يرها الدين
تحدثوا عنها فأطالوا الحديث . وبإلتنا نجد من يشخص لنا هذا اللون
الفكاهي من السعادة . . . وأين ياترى نجدها ؟

في الفقر مع الراحة ، أم في الثراء مع التعب . . . ؟
في العزوف عن الحياة ، أم في التفوق على الحياة . . . ؟

ثم متى تكون السعادة مادية . ومتى تكون روحية . . ؟ هاكم خليطا
من المشاهد ؛ فلننظر أيها يتبع الأولى وأيها يتبع الثانية .

* إذا قضى الرجل مع عروسه ليلة ودودة ، انطفأت فيها أضواء
الكهرباء ، وتألفت أضواء الرغبة ، فماذا تكون سعادتهما - مادية
أم روحية . . ؟ !

* إذا قضى العابد ليله يتأوح في ذكره وابتهالاته ؛ فماذا تكون سعادته
مادية أم روحية . . ؟ !

* إذا أكبَّ عالم على مختبراته سنين عددا يبحث عن مصل يغزوبه
قلاع ميكروب عنيد ؛ ثم يجد ضالته بعد طول عناء ، وتصطفق حواسه
الفرحة في غبطة هائلة ؛ فماذا تكون سعادته مادية أم روحية . . ؟ !

* إذا أكبَّ عالم آخر على أجهزته يتعجل اختراع سلاح يحقق أحدث
الأرقام القياسية في حصاد البشر وترويع الحياة . ثم يبلغ غرضه . ويشهد
تجاربه المبيدة في انفعالات راضية جذلى . فماذا تكون سعادته ، مادية
أم روحية . . ؟

الحق أن تنويع السعادة هكذا ، عمل خبيث بقدر ما هو جاهل ، ذلك
أن المفهوم الصحيح لها . أنها الحالة التي يترجم بها إلى الشعور ما يحدث
في داخل طبيعتنا من استشراف وحركة . .

في داخل طبيعتنا . ، أفهمنا . . ؟ ؟

وطبيعتنا ليس فيها ما هو مادي ، وما هو روحي . . لذلك كان « لين
يوتانج » صادقا حين سئل عن السعادة فأجاب : بأنها عملية هضم سليمة . .
وكان زميله الآخر مصيبا حين سئل عنها فأجاب : هي أمعاء نظيفة . .

إن قهر النفس وإذلالها لن يكون في حسابنا ونحن نتحدث عن الفضيلة والسعادة . . . ولقد أتى علينا دهر طويل ونحن نحرص على التقوى . أما اليوم فإن التقوى تتطور إلى سعادة . وليس معنى هذا إهمال التقوى والمتقين . ولكن معناه ارتفاع المحاولات المبذولة للاكتمال الخلق نحو نقطة أعلى - كشف عنها العلم والتجربة - فالتقوى هي أن تتوقى ضلالة الغريزة بخنقها . . . أما السعادة ؛ فهي أن تروض الغريزة ، ثم تمتطي صوتها وتنطلق بها في سياحة بهيجة عبر حياتك الممتلئة السامقة .

ولئن كنا مكرهين فيما مضى على التوسل بالتقوى بسبب من ضحالة معرفتنا ؛ فما ينبغي أن نقعد عن السعادة بعد إذ وجدناها . . . والفضيلة التي تبغيها السعادة لنا تتمثل في تحقيق طبيعتنا الإنسانية تحقيقاً كاملاً . ومنحها عن طريق مختار رغبته ومشيتها - وكل سلوك لا يتم وفق هذه الطبيعة ولا يحقق لوجودها تمكناً وصعوداً ، لن يكون فاضلاً . بل ولا إنسانياً . لأنه يقع خارج نطاق التجربة الإنسانية ؛ فكيف نعتبره فاضلاً - ذلك الذي يفرّ من تبعات الحياة متوسلاً بالانتحار البطيء الكامن في أيّ من تلك الرياضات الدينية القاتلة . . . ؟

وكيف نعتبره فاضلاً - ذلك الذي أخفق في تحقيق غرائزه فأثر تخطيطها . وفرض قيود مجنونة من الحرمان عليها . . . ؟ إن الفضيلة . وهذا ما سنظل نبدي فيه ونعيد . هي العمل الذي لا يقوم على هدم طبيعتنا . بل على الاستجابة الفاهمة لها ، والتعبير المنسجم عنها .

وإذن ؛ فلن نتم بفضيلة العفة على هذا الذي يجمع غريزة الجنس بالجوع . . .

ولا بفضيلة القناعة على هذا الذى يجمع طبيعة الطموح بالزهد . .
ولا بفضيلة الذكاء على هذا الذى يقف من مشاكل الإنسانية موقف
الحياة ، أو اللامبالاة . . .

فهؤلاء ونظراؤهم تقوم بطولتهم الخلقية على عجزهم عن إتيان الرذيلة -
كلأبكم الذى لا يكذب ، ليس له فى صدقه فضيلة لأنه لا يملك آلة الكلام
التي تجعله صادقا أو كاذبا . . كذلك هؤلاء الذين يبلغون فى ردع طبيعتهم
وتأديبها هذا الحد الذى يجعلها شبه معدومة

ألا ما أصدق كونفوشيوس وهو يقول : « الناسك الذى يهرب من
الحياة لا يأتى أمرا مذكورا ، أما الناسك الأعظم ؛ فهو ناسك المدينة » . . .
والآن ؛ فأن طبيعتنا غاصة بالأعشاب الضارة الكثيفة التي تعتاق نموها ،
وتمتص منها الحياة ، فالتكن محاولتنا الأولى تطهيرها من هذه الأعشاب

شهرى غمر الخطايا . .

فى وجداناتنا فكرة قديمة عن التعبير غير السوى الذى يكتنف سلوكنا .
فالدين سمى أخطاءنا السلوكية ذنوبا وخطايا ، وعلم الأخلاق أسماها رذائل
وعيوباً . وكان هدف الدين والأخلاق ولا يزال - هو التنفير من هذه
الأخطاء . ولكن الإنسان الذى خلق هلوفاً بالغ فى تصور هذه الدلالات ،
ومسمح لها بأن تكون ثقيلة الوطأة على نفسه ، فلفحت الضمير الإنسانى
بشعور طافح بالدونية ، واحتقار للذات ، وإحساس ناجم بالآثم والعار .
ولقد حدث نتيجة لهذا أن كثرت فى المسيحية والإسلام تلك الفرق التي
جعلت نهجها أن ترتفع بالنفس البشرية عن طريق إهانتها . . (١)

وفي كتب التصوف وسير الصالحين تعثر على حشد حاشد من الذين ذهبوا
في تعذيب أنفسهم وتحقيرها مذهبا بعيدا ، وارتدوا المزق القذرة ومنطقوا
بالأحزمة ، وطبعوا سلوكهم بطابع مضحك وذلك كي ينزعوا عن أنفسهم
لباس الكبر والاعتداد .. وهكذا ؛ فأن الدين لم يظلم الناس شيئا ، ولكن
الناس أنفسهم يظلمون . فلم يكن بد في ذلك الزمن السحيق من أن توضع
أخطاء السلوك تحت عدسة مكبرة حتى تبدو للمستهترين فادحة التبعات
وهو ما فعله الدين . فإذا كان الإنسان بحاجة إلى حافز يضبط سلوكه ؛
فأن هذا الحافز يتمثل في واحد من هذه الثلاث

(١) خوف العقاب ، (٢) رجاء المنفعة ، (٣) احترام النفس . أما الثاني
والثالث ؛ فما كانا يقنعا الإنسان الأول ، إذ كانا يتمثلان في شيء واحد
هو - حماية النفس ، وحماية النفس أشد تعنى الانتصار في معركة الحياة
والبقاء ، فإذا كان السبيل لهذا البطش والأباحية فلا بأس بهما لديه .
وأما الخوف من العقاب ، فلم يكن ليوفى على غايته إذا كانت العقوبة
تما استطاع دفعها بالقبضة العارمة . أو الحيلة البارعة - وإذن فليرتبط
هذا الخوف بالمجهول .. أو ليرتبط بقوة لا قبل للناس بها . قوة تكون
من سعة الاطلاع بحيث تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .. ومن القوة
بحيث تقول للشيء كن فيكون .. وليس ذلك لأحد سوى الله الذي قال
في كتابه الكريم : - وما نرسل بالآيات إلا تخويفا - . ولقد اختلطت
الخطيئة بالجزاء المرقوب لها اختلاطا كاد يأخذ على الناس مسالك الأمل
والنجاة ، وصار الغلو في الخوف الذي وضعوه تحت اسم « المراقبة »
غاية المتبارين والمتنافسين . ! !

كان ثمت شيخ صالح له مريدون ، ولقد اختص بحفاوته وحبه قتي
منهم نفس الآخرون عليه هذا الاحتفاء ، فسألوا الشيخ عن سر هذا
التميز فقال لهم : ليحضر كل واحد منكم معي غدا سكيناً ودجاجة . . وفي
الغد جاءوا يحملون ما طلبه الشيخ . الذي أمرهم أن يتفرقوا . ويذهب
كل لخبء يذبح فيه دجاجة بحيث لا يراه أحد أبداً . . وبعد قليل عادوا . .
يحمل كل منهم دجاجة وأوداجها تشخب دماً عدا الفتي المحبو بعطف
الشيخ فإنه لما يحضر بعد . . . ولكنه أخيراً يأتي ودجاجة الحية تصيح
في يده ، ودموعه تتحدّر من عينيه كأنها في سباق . .

سأله شيخه : لماذا لم تذبح دجاجةك . . ؟

فأجابه : لقد أمرتني أن أذبحها في خبء لا يراني فيه أحد . ولقد
كنت كلما أويت إلى مكان أبصر الله يراني . . . !

هنالك ابتسم الشيخ ونظر إلى الوجوه المبهوتة وقال : لهذا أفضله
عليكم . . !

ليست هذه القصة الصوفية قصة ذلك الفقي وحده ، ولكنها قصة موكب
طويل من الدين ساءوا أنفسهم لفكرة الخوف الديني تسليماً أفضى إلى
النقيض . . والخوف من الله محمود إذا كان تعبيراً دقيقاً عن إجلاله وتوقيره . ؛
فإذا جاوز ذلك المدى فقد نفعه وجدواه . . ونحن لا نزال نعتمد في الحث
على الصلاح والاستقامة ، على التخويف الشديد من عذاب الله . بيد
أنه من الخير لنا أن نعيد النظر في الموضوع ، ونعلم أن الاكتفاء بهذه
الوسيلة والاعتماد عليها كثيراً ما أنسيانا الهدف وأضلانا السبيل ؛ فنوع

التربية التي تلقاها ، ونوع الحياة التي نعيشها ، وطابع البيئة التي هي وعاءنا -
مع توقيير الله . هو الذي يقرر نوع سلوكنا . . ولطالما استهوت الرذيلة
أناسا يخافون الله ويهربون بأسه ؛ فأبو نواس الذي قال معبرا عن رجائه
في الله وخشيته له :

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة — فلقد علمت بأن فضلك أعظم
إن كان لا يدعوك إلا محسن — فبمنت يلوذ ويستجير المحرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا — فأذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا — وجميل عفوك ثم إني مسلم
هو نفسه الذي يقول وقد قهرته ظروف نفسه وجروح طبيعته

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر — ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
فما الغبن إلا أن تراني صاحبا — وما الغنم إلا أن يتعتني السكر
ولا خير في فتك بغير مجانة — ولا في مجون ليس يتبعه كفر
وهذا عمر الخيام يلهمه إحساس الخوف من الله فينشد

بيني وبين النفس حرب سجال — وأنت ياربي شديد الحال
أنتظر العفو والكنى — خجلان من علمك سوء الفعال
ثم يعود باللائمة على نفسه فيناديها

يا من نسيت النار يوم الحساب — وعفت أن تشرب ماء المتاب
أخاف إن هبت رياح الردى — عليك أن يأنف منك التراب
ولكنه يعود فيقع تحت وطأة ضاغطة من تأثير تربيته وبيئته وظروف
حياته فيقول :

قالوا امتنع عن شرب بنت الكروم — فأثم — تورث نار الجحيم

ولدتى فى شربها ساعة — تعدل فى عيني جنان النعيم
أين النديم السمع أين الصبح — فقد أمضى لهم قلبى الجريح
ثلاثة هن أحب لى — كأس وأنعام ووجه صبيح

ولطالما تحدث القرآن عن الذين يضلون عن علم . . علم بالحلال
وبالحرام . وعلم بحجرات الله وقوة بأسه

فالخوف من الله غير كاف لأحراز الاستقامة . . ومن هنا نرى
فشل التربية التى تعتمد عليها الهيئات الدينية فى تقويم السلوك عن طريق
الأخافة وحدها . ونستطيع أن نبصر الرسول وهو يزج عن كواهل
الناس هذا الفائض من الخوف بما يضربه لهم من أمثلة .

هذا رجل يأتية مرتجفا يقول : يا رسول الله لقد استوجبت حدا .
فیرت على كتفه . ويسأله : هل شهدت معنا الصلاة . . ؟ فيجيب : نعم .
فيقول الرسول : لا بأس عليك إذن . إن الحسنات يذهبن السيئات . .
ويعود الرجل مشبوب الحياة متواثب العزم ، قريبا من الله . بعيدا من
اليأس . . وهذه أم تحمل ولدها فى حنو ودود . تقبله وتحتضنه ؟ فيسأل
الرسول أصحابه قائلا :

— أترون هذه الأم طارحة ولدها فى النار . . ؟

فيجيبونه — أبدا . . يا رسول الله . ، فيعقب قائلا

— والذى نفسى بيده . الله أرحم بعبد من هذه بولدها . .

وهذا عمر بن الخطاب الذى أخبر الرسول بأنه لو كان بعده نبي لكان
عمر، يرى الناس وقد احترقوا بالشواظ المنقذف من تصورهم للنار وطول

تذكرهم لها ، فيقول : والذي نفس عمر بيده ، ليأتين على جهنم يوم تصطفق فيه أبوابها ، لا تجد من تحرقه - كما روى عن عمر - ابن القيم في كتابه حادى الأرواح . .

ولما كان هذا الخوف المدمر ينبع من مبالغتنا في تقدير الخطيئة ؛ فقد غنى الدين الصحيح لا الدين الذى فى جماجم الجهلة والمغرضين - بأن يلاشى هذه المبالغة من وجدانات الناس فمضى يشير فى وضوح إلى الحقيقة التى اكتشفها العلم فيما بعد وهى أن أخطاء السلوك طبيعة إنسانية وضرورة بيولوجية .

أجل - لقد جهر بهذا عيسى ومحمد ، وكان صوتهما المرتفع هو الذى عجل بمقدم العلم الذى تسلم الزمام .

ها هو ذا المسيح يقول : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . .
أى أنكم جميعا معشر البشر خطاءون . . وما كانت الخطيئة ليكون لها هذا الشمول لو لم تكن أرسخ من أن تكون شيئا طارئا .

وها هو ذا محمد يقول : والذي نفس محمد بيده ، لو لم تذبوا للذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم . .

ويتنزل الوحي بكرامة للذين يتجنبون كبار الأثم والفواحش إلا الله . .
أى صغار الخطايا فيطمع الرسول للناس فى عفو أشمل ويقول ملو حابذراعه شطر السماء

إن تغفر اللهم - تغفر جما - وأى - عبيد لك لا ألما
أ كان هذا من الرسولين الكريمين عيسى ومحمد ، تحريضا على الآثام . .؟
بطبيعة الحال . كلا ، وإنما هو وضع للأصابع التى تؤود الإنسان وتكاد

تبيده - تلك التي لا تدفع إلى الفضيلة بقدر ما تصرف عنها وتنفر منها .
ولما كانت المسئلة الجنسية وطأة باذخة على الناس ، سيما أولئك الذين
لا يقدرّون على الزواج ، فقد هدم الرسول وطأتها حين قال : كتب على
ابن آدم حفظه من الزنا ، مدرك ذلك لا محالة . فزنا العين النظر ، وزنا
اليدهي اللمس . ثم ذكر في ختام الحديث أن العضو التناسلي يصدق ذلك
أو يكذبه . .

ومعنى الحديث أن كل إنسان في طور شبابه يخضع لانفعالات عاطفية ،
مدرك ذلك لا محالة . فإذا لم يسمح لانفعالاته الهادئة هذه أن تتحول إلى
خطيئة جنسية كاملة فإنه لا يكون قد آتى خطأ ولا إثمًا . .

إن كثيرين من مدعي الورع والصالح يرفضون هذا التفسير وكأنهم
بهذا يضعون أنفسهم في منزلة أرفع من منزلة رسول الله عليه السلام ، فلنضرب
بهم عرض أقفيتهم ، ولنقف بجوار محمد فإنه أتقى وأعلم .

إن هذا الحديث فوق أنه احترام لطبيعة الإنسان ؛ فإنه تمزيق للأطار
المتضخم الذي وضعت فيه أخطاء السلوك وهو مثل ينسحب على كل انفعالاتنا
التي ستعرف في الصفحات الآتية كيف نتسامى بها ، ولكن بعد أن نتقبلها
ونراها في وضعها الحق .

أنت مريض ، لا آثم . .

وهكذا ما كان الله البارّ ليدع الضمير الأنساني يتأرجح في هواء
العاصفة ، ويحترق بلفحها . فممكن العلم من أن يضع يده المباركة على منابع

حسناتنا وسيئاتنا - فوجد أن العادات التي يتكون منها سلوكنا مستمدة من مصدرين : الاتجاهات ، والعقد . .

« فالعادات الفاسدة كالشراسة والانحرافات والعناد وانتقاص الذات ترجع إلى عقد مرضية مكبوتة . والعادات الصالحة ، كمعادات الشهامة والجلود وعزة النفس ، وعادات الاهتمام بالعمل ودمائة الخلق تنتج من الاتجاهات المستساغة » (١)

كذلك وجد العلم أن الناس لطول بلائهم في الحياة معرضون لألوان شتى من الأمراض .

- أ - فهناك الأمراض العضوية - وأسبابها جسمية
- ب - والأمراض العصبية - وسببها الصراع العقلي اللاشعوري
- ج - والأمراض الخلقية - وترجع إلى العقد اللاشعورية المكبوتة
- د - أخطاء السلوك - وتنجم عن الاندفاع وراء مثل أعلى وضع وكما أننا لا نعالج مرضا عضويا كالروماتزم مثلا بتعذيب صاحبه ، ولا بأغراقه في سيل من المواعظ الدينية ؛ فكذلك يجب أن يكون سلوكنا مع المريض معرض خلقا كالسرقة والكذب .

لم يعد بوسعنا أن نفر من مواجهة الحقيقة الناصعة وهي أن سلوك الإنسان ليس قدرا مفروضا عليه من السماء . . وإنما هو وليد ظروفه - ظروف تكوينه وتربيته وبيئته . وإذا بلغت أخطاء السلوك حد الأدمان ، كرجل يدمن السرقة ، أو يدمن الغضب ، أو يدمن اللقواء الجنسى المحظور - كان هذا مرضا خلقيا . أما إذا لم تأخذ هذه الأخطاء صفة

(١) علم النفس والأخلاق - ح . أ . هادفيلد

العادة والأدمان ؛ فهي إذن أخطاء... وبعبارة موجزة ننقلها عن «هادفيلد»
— المرض الخلقى يرجع إلى عقد مرضية تنجم عنها اندفاعات لا سبيل
لى مقاومتها ..

أما الخطيئة — ونؤثر نحن تسميتها أخطاء السلوك — فترجع إلى
عواطف خاطئة

وحين يهيب المثل الأعلى بالمريض وبالخطيئة يكون الفارق بين الاثنين
أن الخطيئة لا يستجيب له ، أما المريض ؛ فإنه لا يستطيع أن يستجيب بحال..
إن كل علاج للمشكلة الخلقية فى مجتمع ما لا يبدأ من الإدراك السليم
والتقدير التام لهذه الحقيقة ستكون عاقبته خسرا .. ولقد تعاون الدين مع
العلم من قديم فى محاولات الكشف عن كنه السلوك الإنسانى ، وإذا
كان الدين لم يصل إلى ما وصل العلم إليه ، فحسبه أنه أطلق الأضواء الدالة
على الطريق .

هذا رسول الله عليه السلام يقف ذات يوم خطيبا داعيا إلى مكارم
الأخلاق . فيقول بين ما قال :

— «.. ألا وإن الغضب جمة فى قلب ابن آدم ، أما ترون إلى حمرة
عينيه ، وانتفاخ أوداجه ..» ؟ — إن إدراك الرسول لهذه الأعراض ولفظ
الأنظار إليها لشيء رائع حقا . سيما وهو لم يكن فى غرفة تشريح ..
أما ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه .. !!

ما علاقة الغضب لو أنه كان رذيلة مجردة تتقمص صاحبها .. ما علاقتها
ذن بانتفاخ الأوداج واحمرار العيون .. ؟
وهناك أيضا قول الرسول :

— « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ولا يسرق السارق

حين يسرق وهو مؤمن . . . »

إن الدين دائماً يعبر بكلمة « إيمان » عن جماع القوى الخيرة المؤثرة
الفعالة في توجيه الإنسان . . هذه القوى التي تتكون اليوم في نظر العلم
من ظروف الشخص وظروف المجتمع - أو من الوراثة والبيئة والاستعداد
الشخصي . .

وفي الحديث المذكور يخبر الرسول أن الزاني - حين - يزني ، لا يتم له
ذلك إلا حين تكون القوى الخيرة الكامنة فيه - والتي عبر عنها بالإيمان ،
في حالة غيبوبة وانكماش ، وكذلك الحال حين يسرق . أى أننا نستطيع
اليوم أن نقول - لا يزني الزاني حين يزني وهو موفور صحة العقل
والعاطفة . . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو موفور صحة العقل
والعاطفة . . وهكذا يشير الدين من ألف وأربعمائة عام ، بل ومن قبل
ذلك في عهد المسيح ، إلى أن أخطاء سلوكنا حين تتفاقم تكون أمراضاً
لا ينبغي أن تفرغنا ، وتملأنا شعوراً بالدونية والانحطاط - بل علينا أن
نتلقاها بوسائل العلاج العلمي . كما تفعل بأي مرض عضوي سواء بسواء . .

ونحن لا نغنى بكون أخطائنا أمراضاً - الأمراض العضوية النابعة من
الجسم وحدها - بل وأمراض المجتمع أيضاً . . فالمرء منا يحيا داخل نطاق
هائل فسيح من المتناقضات ، والعواطف والليول . . ووسط هذا المضطرب
الوجب لا يكاد يملك نفسه . . وإنه ليفقد خلال سعيه في الحياة واتصاله
بالجماعة كثيراً من شخصيته الحقيقية ، ويتنازل مكرها عن بعض معنوياته
وفضائله وكما يقول « امرسون »

— «العواطف معدية» — وإدراكنا لهذا يدعونا إلى تذكر ما نفقده

من ذاتياتنا ، ومعرضنا على استرداده حتى لا تذهب شخصياتنا بدكا

ومن حق القارئ أن يسأل :

— لحساب من ، هذا التدليل للنفس البشرية والدفاع عن أخطائها . . ؟

وأجيب صادقا — إنه لحساب الفضيلة وحدها . . ذلك أن شعور

الإنسان بأنه مخطئ أو مريض يدعو به إلى البحث في سكينته وثقة عن

تصحيح لخطئه ، أو علاج لمرضه . أما حين يرى داخل إهابه مجرما شريرا .

فسوف يفضي به هذا الشعور للملح الكاذب إلى أحد طريقين :

١ — الاستهانة بكل القيود ، والوثوب على كل موبقة جاعلا شعاره

— أنا الغريق ؛ فما خوفي من البلل . . ؟ !

٢ — أو الانطواء على نفسه في مذلة وحسرة وإكراهها على رياضات

دينية معينة تصعق طبيعته وتفسدها

ولعل الرسول كان يخشى المعنى الأول — عندما سيق إليه رجل سرق —

وآخر رآه فجاء يشهد عليه — ولما همَّ بأداء شهادته قال : رأيت هذا

يسرق كذا . . .

فتمعر وجه النبي من الغضب وقال له :

— لا تقل رأيت يسرق ، ولكن قل : رأيت يأخذ . . . ! ! !

صحيح أن القرآن يقول « والسارق والسارقة . . » ولكن الأسلوب

الذي يستعمل للتوجيه العام ، غير الذي يستعمل في مواجهة خاصة . .

لذلك لم يكن الرسول عليه السلام يقول لأحد صنع سوءا ، لماذا تفعله . .

بل كان يرسل الحديث إرسالا عاما ويقول : ما بال أقوام يفعلون

كذا وكذا . . ؟

وإن أولى مهام هذا الكتاب الذي تطالعه الآن ، أن يضع السلوك
الإنساني في موضعه الحق باعتباره خطأ أو مرضاً ، لا إثم ولا جريمة .
وأن يرد لأنفسنا البشرية اعتبارها المفقود ، ويذهب عنها روعها ومخاوفها -
ويهيئ لها ظروف الفضيلة ثم يدعها تمضي إليها في حرية مقرونة بالمعرفة .
واختيار مصحوب بالشفغ . .

هذه سبيلنا ندعو إليها على بصيرة من العلم والدين معا ونحن لا نأتي
بجديد على الناس حين نعرض هذه النصوص الدينية المخففة ؛ فهم يسمعونها
من فوق منابر الجمعة . وفي كل المحاضرات الدينية . . ولكن الجديد هو
إزاحة الستار عن المفاهيم الصادقة الصحيحة لها
إلى وضعها السليم بوصفها مرضاً لا جريمة ، فلن نساهم بهذا في استجاشة
الغرائز وإشعال الشهوات . بل نساهم في إحداث النقيض
لا تضار أبداً بالشجاعة في تلمس الحقيقة المفضية لها - بل هي تضار بتلك
الهمسات الخجولة المثقلة بالحياء والتقوى
الذين يستحيون من القول ، ولا يستحيون من العمل

وإنا لنسأل بدورنا : ماذا هي إخفاء الحقائق وتجاهلها من فضائل
وماذا أثمر من خلق . . ؟

ونستطيع أن نأخذ الجواب من الحياة المضطربة لكثير من الشباب . .
إنها تهيب أخلاق السكر التي يفعل بها صاحبها - مؤقتاً - وهو واقع تحت
تأثير رغبة أو رهبة فأذا ما برخت هذه مكانها ، تروح السكر
وتجى الفكرة

ذات يوم تلقى مفتي إحدى الهيئات الدينية في مصر خطاباً من

شاب أنك الورع قواه ، وأحمد عواطفه وظن أنه قد صفي مع طبيعته كل ما بينهما من حساب متعلق بالمسئلة الجنسية وانتصر في الموقعة ، وما علم أن رمقا من طبيعته كان لا يزال متشبثا بأرض المعركة ، ففي يوم ألفت إليه الصدفة بالفتاة التي يحبها ، والتي طالما كافح الرغبة في مجرد رؤيتها - يقول في رسالته : إنه لم يدر بعد إذ رآها في مكان خال ماذا حدث له .. ! لقد أفاق من سكرته فوجد نفسه قد مزق الملابس الداخلية للفتاة وأتى ما اعتبره هو جريمة وحشية ، وإن كان لم يرتكب ما يستوجب حدا .. ! ولقد كان صاحبنا حريصا على تقرير المعنى الأخير في خطابه وهو أنه لا يستوجب الحد .. (١٩)

لو أن هذا الشاب المسكين لم يساعد بادي الأمر على تربص انفعالاته والتفافها حول حرمان مكبوت لما ألقى نفسه في هذا الموقف الجنوني الذي بعثر على أرضه نثرات أعصابه المتداعية ، ومزق الملابس الداخلية المظلومة .. !

ولقد ظلت إرادة العجز والأخفاق تشده إليها ، فهو بعد هذا الذي حدث لم تنفعه ثقافته في حفزه إلى التماس الصواب من تجربته .. ختم رسالته بسأل المفتي :

— هل يتقبله الله ويغفر له إذا هو انتحر تكفيرا عن إثمه وخطيئته .. !
لقد عرفنا هذه الحالة لأن صاحبها أعلن عن نفسه في خطاب . وهناك آلاف الحالات المشابهة .. أفليس الأجدى والأوجب أن نشيع في قومنا ثقافة أخلاقية جديدة تقوم على الواقع وتستهدى مع الدين بالعلم .. ؟
إن لي تجربة تدل على مدى استعداد الناس للأصغاء والتفهم ..

ففي عام - ١٩٤٧ - انتدبني صديق لي لألقاء خطبة الجمعة في أحد مساجد
منيل الروضة وكان يعمل به إماما وخطيبا . وذهبت أحمل في وعي موضوع
خطبة لا أحسب أنها أُلقيت في مسجد أبدا . . .
كان موضوع الخطبة - « كيف نسوس عواطف أبنائنا وبناتنا ،
وكيف نعاونهم في سن التطلع والحب » . . . ؟ !

قد أكون مجنونا في نظر بعض القراء . . ، ولكن من حسن الحظ
أن العلم قد اكتشف قرابة وثيقة بين العبقريّة والمجنون . . . (!)
... الحظ أيضا أنني لم أكن وحدي المجنون ؛ فلقد أنصت
هل وإعجاب مبهوت . . أنصتوا إنصاتا
جزا عن تفسير كنهه ودواعيه قلت

- « . . إنه لا خيار لكم في هذا الذي سأعرضه عليكم ؛ وإذا كان
هناك خيار ؛ فليس بين أن تفعلوا ، أو لا تفعلوا . . ولكن بين أن تستعملوا
الفطنة ، أو تتقبلوا العار . . إن لأبنائكم قلوبا ستعشق شئم أم أبيتم .
ولبناتكم قلوبا ستنتطلع شئم أم أبيتم . . فبدلا من التوسل بالزجر وتقطيب
الوجه ، والحلف بالشوارب المفتولة على طريقة « الفتوات » - تعاونوا
معهم ، فذلك أذكى وأهدى سبيلا . . قولوا لهم في أنفسهم قولا بليغا . .
وأتبعوا لهم فرصة . . . »

« لقد غفر الله لعباده اللوم ، وقال في تبرير هذه المغفرة - هو أعلم بكم
إذ أنشأكم من الأرض وإذ أتم أجنة في بطون أمهاتكم . . . وأراد أن
ينهاهم عن الغرور المهلك فقال : فلا تزكوا أنفسكم . . . »

فنجن إذن من الأرض ، ولنا طبائع ، خير وسيلة لترويضها -
التسرية عنها . .

ثم صحت فيهم ، أيها الناس . أفهتتم جيدا . . ؟ إن الصداقة خير من
الفاحشة . . وإذا لم يتمكن المجتمع من الأولى ؛ فسيكره على الثانية . .
قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . . . ! ! !

واحد فقط هو الذي برم بالحديث وأعلن عن برمه بعد الصلاة . .
ولم أجد نفسى بحاجة لأقناعه ؛ فقد تولت ذلك عنى جمهرة من المصلين الذين
تفوقوا على يومئذ في العبقرية . أعنى فى الجنون . .

إنى لا أنسى هذه الواقعة أبدا ، ولا أغفل عن مغزاها الجليل - وهو
أن قومنا على درجة مبشرة من الاستعداد لتقبل الجديد والتعاون مع التطور
والعلم . وكل قعود من جانبنا عن بذل الواجب بحجة تأخر الناس ونقصهم ،
فليس إلا عملا داحضا ، وهربا غير كريم .
والآن ، وقد تبين لنا أن أخطاءنا السلوكية ليست آثاما ولا جرائم ،
فقد آن أن نحيط علما بحقيقة أخرى هى :

الأثم ، هو الامانة الشعور بالأثم . .

تدور التربية الخلقية فى مجتمعنا حول محور مزدوج أسلفنا الإشارة
إليه - هو : التخويف بالله ، والمبالغة فى تضخيم الخطيئة - وليس منا من
ينكر أثر الدين فى بلادنا - والدين لا يعلن عن نفسه ، ولا يقوم بتبليغه
ملائكة صالحون فاهمون . . ، إذن لا استراح الناس كثيرا . . ولكن يبلغه
أناس تباينت أحلامهم ووجهاتهم - وإن كانوا جميعا إلا قليلا منهم يعتمدون

لعمري مطلقا على التخويف والمبالغة.. ولقد أفضى ذلك إلى تزويد كل فرد
بالحاح صاعق يدعو النفس إلى الشعور الممض بالآثم فهل نحسن بهذا
إلى الأخلاق...؟

كلا، وإن كل إنسان يضع داخل نفسه «عدادا» لأحصاء ذنوبه
وأخطائه لن يكون فاضلا بالمعنى الصحيح لكلمة «فاضل» والدين
يرتكبون هذا الوزر لن يخدموا قضية الأخلاق لأن الأخلاق السوية تبدأ
اليوم من هذا الشعار «ارفع رأسك؛ فليس هناك ما ينجلك».. ولن
يخدموا قضية الدين الذي هو أعرف بحقيقة الإنسان وأكثر حنانا على
قضيته.. لقد تواصلت المسيحية -والإسلام خيرا بسكينة النفس وطمأنينتها -
ولقد قطعا على إدمان الشعور بالآثم طريقه حين دعيا إلى اعتراف الإنسان
بخطئه اعترافا عابرا بينه وبين نفسه ثم التوبة وهي العزم على عدم مراجعة
ذاك الخطأ.. هذا هو المسيح يقول: «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل
حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» - ويقول: «... وليتب
إلى الرب فيرحمه» وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران».. وهو يفسر هذا
تفسيرا رجا إذ يقول: «لأن ابن الإنسان لم يأت ليدعو أبرارا للتوبة،
بل خطاة...» وإذ يقول للتي زنت: أما أدانك أحد...؟ فتقول: لا...؛
فيجيبها: ولا أنا أدينك...، اذهبي ولا تخطئي... .

ولقد جعل الإسلام مجرد الدخول فيه محوا مطلقا لكل ما أتى الإنسان
من جريرة وإثم... وكذلك جعل التوبة حدا فاصلا، فقال الرسول:
الإسلام يجب - أي يقطع - ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها...
وهذا يدل على أن الدين ينظر إلى أخطاء السلوك كأفراز طبيعي

لا ينبغي أن يأخذ من تفكيرنا ومشاعرنا سوى اللحظات التي تقرر فيها
أن من الخير ألا نعود . وليس في هذا الإفراز الطبيعي ما يشينك . وإنما
يشينك الأصرار عليه .. فما أشقى الدين لأعمل لهم سوى اجترار خطاياهم ؟!
ذهب قوم إلى رسول الله عليه السلام يقولون له :

— لقد قتلنا وأسرفنا في القتل ، وزيننا وأسرفنا في الزنا ، وإنا لنعلم
أن ما جئت به هو الحق ، لو تخبرنا أن لما فعلنا مغفرة وكفارة ..
وأراد الرسول أن يهيئ أنفسهم للخطوة القادمة ؛ فقال لهم : ليس
عندي لكم اليوم شيء — اذهبوا وارجعوا غداً .. وفي غد عادوا ؛ فتلقاهم
النبي طلق المحيا دافق البشر وأخبرهم أن الله أنزل في أمرهم وحياً ، ثم
مضى يتلو :

— « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله .
إن الله يغفر الذنوب جميعاً » إنه هو الغفور الرحيم » ..
لكن القصص الصوفي لعب في حياتنا الشعورية والفكرية والسلوكية
دوراً إيمه أكبر من نفعه .. ولولا أن أوربا ردت الدين الذي عليها ،
فبعثت إلينا بموجة من النور نظير تلك الموجة التي أرسلناها إليها من قديم
مع فيلسوفنا العظيم — ابن رشد — لولا موجتها هذه التي كشفت لنا عن
محاسن العلم . بل وعن محاسن ديننا التي لم نكن نحسن وعيها وتقديرها
حتى ألقى العلم عليها أضواءه فعرفناها .. لولا هذه الموجة العارفة التي
أعطتنا مفاهيم جديدة للسلوك . ومعايير صحيحة للخلق لكنا اليوم حيث
يشمت العدو ويستاء الصديق ..

لطالما كنت في مواعظي الدينية أروج موم الشعور بالأنثم ظانا أنها
أجود العقاقير الشافية .. !

كنت أدعو الناس لأن يغلطوا على أنفسهم في الحساب .. أن يجلدوا
ضماؤهم بالسياط إن استطاعوا .. أن يحاسبوا العين على كل نظرة ..
والفم على كل همسة ، والقدم على كل خطوة .. وأن يصنعوا كما فعل الرجل
الصالح الذي غلبته نفسه فنظر إلى محاسن امرأة ، فأقسم ليفقأن عينه
الآئمة وبرّ بقسمه .. !!

كنت أدعوهم إلى إبادة حواسهم ، وأقول لهم : روى فلان عن فلان ،
عن فلان - أن سيدي فلانا قال : « لن يكون المرء مريدا صادقا حق يرى
المرأة ، فيسأل نفسه - امرأة هذه أم حائط .. ؟ ؟ !

وأنت ، ألم تسمع مرة في مسجد أو في كنيسة أو في جمعية دينية قصة
الذي حرم على نفسه مضغ الخبز ، فكان يأمر أهله أن يقددوه ويسحقوه ..
وفي كل وجبة طعام يتناول منه سفتين .. ولما سئل عن ذلك أجاب : لقد
أحصيت الزمن الذي يضع بين سفيه ومضغه ، فوجدته يسع مائة تسبيحة .. !
أو هل سمعت قصة الصالح الآخر الذي بدا له يوما أن يجري خطايا
حسابا ختاميا - وهو غير الحساب اليومي والسنوي الذي كان يجريه ،
فوجد نفسه قد عاش عشرين ألف يوم فصرخ :

— يا ويلتا - لو لم يكن لي كل يوم سوى ذنب واحد للقيت الله
بعشرين ألف ذنب ، فكيف ولي في كل يوم عشرات الذنوب ثم شق
شهقة الموت .. !!

صحيح أيها السادة أنكم قد لا تسمعون الآن من يقول نفس هذه العبارات ..
ولكن تأكدوا أن المجتمع يموج بمن يأكل الشعور بالأثم قلوبهم على هذا
النحو وإن لم يصرخوا ، ويسفوا العيش المسحوق .. ومن بين شبابنا
المتعلم أغلبية من هذا الطراز

« وإذا سئلنا ، لو كان ذلك كذلك لما شهدنا في المجتمع كثرة الموبقات ..

نجيب : إن كثرة الموبقات نتاج محتوم لهذا السلوك المضلل - فاللحم المتورم لا يدل على صحة وامتلاء . ومرض نمو العظام لا يدل على . سموق القامة وجمالها . . وهناك ظاهرة تمثل خطرا أشد هولا - تلك هي أن الجماهير الصالحة في بلادنا صارت تستنم لهذا اللون من الأيحاء والترية ، وأمست تجد في المواعظ الراجعة المخوفة سكيتها وملاذها وأمنها . وتستطيع أنت أن تعثر على هذه الظاهرة في كل مكان . في المعبد ، وفي الطريق ، وفي المنزل . .

حدثت أسرتك مرة عن الجنة ونعيمها وأنهارها ، وعن الملك العريض الذي سيكون لكل واحد فيها . ثم حدثهم عن النار . . عقاربها ، وغسلينها ، وهولها - وارصد انفعالاتهم وتعبيرات وجوههم ؛ فستجد الذي وجدته أنا مثبات المرات .

ذات أمسية ، وكنت ألقى موعظة بأحدى قرى النيا ، مضيت أحدث الناس عن الجنة ، وكنت حديث عهد بقراءة كتاب يصفها كأنه رآها (١) وشرعت أصف لهم في حبور ونشوة كل شيء فيها - أبوابها ، مصاريعها ، طرقاتها ، مقاعدها ، حورها ، ولدانها ، قصورها - وإذا صوت يشق السكون الحالم ويقول :

— قول لنا شوية في النار علشان نخاف ونتقى الله . . (! !) وتبع الصوت همهمة موافقة وتأيد من أكثر المستمعين .

(١) هو كتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » تأليف ابن القيم

واضطرت أن تغادر الجنة آسفاً، وبدأت معهم رحلة النار من أولها..
من خروج الروح والشجاع الأقرع . . . !

والشجاع الأقرع - إن كنت لا تعرفه - ثعبان هائل، تزعم الأسطورة الدينية أنه يقف في مدخل قبر الميت الذي كان تاركاً للصلاة ليؤدي لجهنمه تحية القدوم . . . أى أنه « تشريفاتى » من نوع خاص . له مائة ألف رأس - ولعلنا الآن ندرك لماذا هو أقرع . ؟ لقد وزع شعر رأسه على مائة ألف رأس . . فى كل رأس مائة ألف فم ، فى كل فم مائة ألف ناب . ؛ ومن حسن حظ البشر المساكين أن واضح هذه الأسطورة لم يكن يعرف من الأرقام الحسائية أكثر من المائة ألف . . . !

لعل سوق الحديث على هذا النسق يضحكنا ، ولكنه قمين بأن يحرك فى تفكيرنا الاهتمام الممزوج بالأسف العميق فأن أمة يقتدى وجدانها فى النصف الثانى من القرن العشرين بهذه البقايا البائدة المنقرضة ، ويؤمن سلوكها الأخلاقى بهذه المزعجات الويلة لا بد وأن تنتهى إلى مصير مشابه للطريق التى اختارتها . . ومرة أخرى ، نقول : إنه قد تختفى قصة الشجاع الأقرع من مجال الدعوة والتوجيه ، ولكن طبيعة النهاج الذى تتبججه الدولة والمجتمع لتقويم السلوك لا يزال غاصا بالمعنى الذى تصوره هذه القصة . . التخويف الشديد ، والزجر الرهيب . . وهكذا يتحول الدين الذى هو عزاء وحفز إلى ما أراد له الحق ، والنهازون أن يكون . . . !
أليس رب هذا الدين هو الذى نادى داود قائلاً :

— يا داود بشر بى عبادى ؛ فانى أحب أن يقولوا : غفور رحيم . . ؟
لقد أمسينا من طول إصغائنا لهذا اللون المتشائم المرعب من التريفة

والتوجيه لا نجد متعة في غير هذا الدمار ، وصرنا - واعطين وموعوظين -
نجد راحة وعزّا في ترديد مثل هاتين الآيتين - خلقناكم من ماء مهين ..
ثم رددناه - أى الإنسان - أسفل سافلين - ؛ ولا نكاد نجد نفس الراحة
حين نقرأ - ولقد كرّمنا بنى آدم - وجعلناكم خلائف فى الأرض - خلقنا
الإنسان فى أحسن تقويم . . . ! !

إن إدمان الشعور بالأثم لذو خطر ما حق إذ هو يخلق حالة وجدانية
رديئة ومؤذية هى « الاشتىاز من النفس » . .

وتصوّر نفسك حين تفرض عليك معاشة رجل تشمّر منه وعمقه .
إن حياتك معه ستكون سلسلة من التناقض والألم - مع أنك قد تجد
الفرصة لنسيانه أو لمفارقتة بعض الوقت . . لكن انظر عند ما يكون
هذا الرفيق نفسك التى بين جنبيك والتى لا تستطيع مغادرتها أو مفارقتها .
لأنها أنت . . عندئذ ستكون حرباً أهلية يفنى فيها بأسك ومناعتك . ثم
تجد الرذائل فىك آخر الأمر قلعة متهدمة مستسلمة ؛ فتعشش فى أنقاضها
وتبيض . ، وهكذا أيها السيد الورع تكون قد ذهبت تنشد صوفاً ،
فرجعت وصوف ظهرك مجزوز . . ؟ ! !

إن احترام الذات هو خط الدفاع العاصم ، والديدبان اليقظ الذى
يصيح بكل عابر من الرذائل - قف . . من أنت . ؟
وأنت لى ترتفع بنفسك لا بد أن تكون على وفاق معها واحترام
لها . وهذا الاحترام لن يوجد ما دمت تلوك آثامك وتجتزّها . وما دمت
تسحق هذه النفس التعسة بمطارق اللوم والتوبيخ . . أجل ، لن تستطيع
أن تسلك مراقى التعلية والتسامى بنفسك حتى تحوز تقديرك واحترامك .

ولن تستطيع أن تحترمها حتى تتقبلها ، بحيث لا ينسبك احترامك لها ما يرتكبه سلوكك من أخطاء .. وهذا تكون إنساناً سليم التصرفات ، فليس على ظهر الأرض من لا أخطاء له . وكما يقول الشاعر : -

لا تفاخرني بهجر الطلأ — فأنت جان في سواها أئيم
وعفاء على كل فرد يشعز من نفسه . وعلى كل مجتمع يتكون
من هؤلاء الأفراد ..

أنظروا إلى أثينا ، لقد كان لها مثالبها ونقائصها . ولكن فضيلتها الكبرى التي خلقتها وخلدت عقلها وسلوكها — أنها على حد تعبير « لين يوتانج » جعلت آلهتها مثل الرجال .. أما نحن فنريد أن نجعل الرجال مثل الآلهة .. ! إن بين أيدينا وقتاً طويلاً حتى نحوز أخلاق الآلهة ، وقتاً نصفي خلاله الحساب مع أمعائنا وغددنا ونظمنا جميعاً .. وليس حديثنا هذا دفاعاً عن الأخطاء البشرية ، ولا إهداراً لفضيلة محاسبة النفس .

فنحن نديح الشعور بالخطأ ريثما نصححه ونتحاشى العودة إليه ، ولكننا نرفض إدمان الشعور بالأثم والأفعال فيه ..

نريد الإنسان الذي يحاسب نفسه ، ونرفض الذي يغالى في هذا الحساب .. نريد الذي ينهى موقفه من الخطيئة أو بتعبير صحيح مع الخطأ بهذه العبارة — لا بأس ، ولن أعود ..

ونرفض الذي يحور كالثور الدير ويقول : ويلاه . ماذا أعمل .. إن الإنسان أعظم عند الله من كل أخطائه ، وإن ما يبذله من جهد في سبيل استمرار الحياة ليرجح كل ما يسببه نضاله من غلطات . ونحن نطلب من قومنا أن يذكروا هذا دائماً ..

وإلى الفتيان والفتيات الذين يسحقهم شعور صاعق بالآثم توجه النداء
أن « ارفعوا رؤوسكم ، وامضوا شجعانا » . .

لقد كان موسى عليه السلام رسولا عظيما ، ومع هذا فقد ارتكب
من أخطاء السلوك ما كان كافيا لعزله من الرسالة . : إذ ألقى الألواح التي
تحمل كلام الله على الأرض . وأخذ برأس أخيه هرون وهو نبي مثله .
وجرّبه على الأرض . ، وضرب ملك الموت حين جاءه في صورة إنسان
وفقاً عنه . (١١) ولم توجه إليه كلمة عتاب . بل قيل له على حد تعبير
ابن القيم : (١)

وإذا الحبيب أنى بذنب واحد — جاءت محاسنه بألف شفيح
وأنت كإنسان حبيب الله وقرّة عينه ، ومحط رجائه .. أجل ، أنت
ولا شيء سواك .

إن الملائكة لا يخطئون ، ولا يشتهون ، ومع هذا فقد فضلك الله عليهم
وجعلهم في خدمتك . !

ولننظر هذا الحديث أيضا :

يروى الإمام أحمد في مسنده أن النبي قال :

— ما من يوم تطلع شمسك إلا وتقول الأرض : يارب ائذن لي أن
أزدد ابن آدم ، فقد أكل خيرك ومنع شكرك . . وتقول السماء يارب
ائذن لي أن أسقط كسفا على ابن آدم فقد أكل خيرك ومنع شكرك . .
وتقول الجبال يارب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم فقد أكل خيرك ومنع

(١) مدارج السالكين لابن القيم

شكرك .. وتقول البحار يارب ائذن لى أن أبتلع ابن آدم فقد أكل خيرك
ومنع شكرك .. ؛ فيجيبها الله جميعا :

— ما لكم . وعبادى .. ، لو خلقتهم لرحمتهم ..
ذروهم لى . إن تابوا إلى . فأنا حبيهم . وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم ..
إننا نسوق هذا الحديث ونحن واثقون من أن الصورة الشكلية
للمحاورة لم تحدث ؛ فليس هناك سماء استأذنت الله أن تسقط ، ولا بحار
استأذنته أن تبتلع .. ولكنها لوحة فاتنة بقدر ما هي صادقة ضمنها الرسول
حقيقة شعور الله تجاهنا ، نحن البشر الكافين في سبيل الحقيقة والمثل
الأعلى . ما أروع هذه العبارة المشرقة ؛ لو خلقتهم لرحمتهم .. ؟
أما هو - سبحانه - وقد خلقهم ، فإنه يعلم من خلق .. يعلم
الحوافز التي تشكل سلوكهم .. يعلم ظروف تكوينهم الجسدى وتكوينهم
الطبقى . وظروف تربيتهم ، ووراثاتهم ، والبيئة التي تعكس عليهم
سرهما ونجواها ..

لقد كان في روسيا القيصرية جماعة أطلقت على نفسها اسم « الخليسى »
أى السوط .. يتبادل أعضاؤها التعذيب بالسياط تكفيراً عن سيئاتهم
وتطهيراً لأنفسهم ؛ فهل تريد أن تكون عضواً في جماعة « الخليسى »
المنقرضة .. ؟ إنك لتفعل هذا ، ولو لم تجلد نفسك ، أو يجلدك واعظك ،
أو تجلدك الجماعة الدينية التي تنتمى إليها بسوط مجدول .. إنك تفعله
حين تجلد نفسك أو تسمح لغيرك بأن يجلدك بسياط التقرير والتوبيخ ..
ألا وإن أعظم مافينا خطايانا ، إذا عرفنا كيف نتخذ منها مزية . ألم تكن
كبرى خطايا آدم أكله من الشجرة .. ؟ فلننظر الآن إلى أية حياة حافلة
هائلة أفضت تلك الخطيئة . ؟ !

كيف كان هذا الكوكب سيعمر لو لم يشرفه السيد آدم ويشرفه
أولاده الناسلون من كل حدب . . ؟

كيف كان موسى وعيسى ومحمد سيزغون . وتبرغ معهم التوراة
والأنجيل والقرآن . . ؟

كيف كان رجال مثل سقراط ، ونيوتن ، ولنكولن ، وماركس ،
وشارلي شابلن ، وفولتير ، ومكسيم جوركي ، وغاندي ، والأفغانى سيشعلون
نبراس الحقيقة ويهزون الوجود . ويعطرون الكون . . ؟

هل تعرفون نبأ الفيلسوف الذى عثر على جمجمة فى بقايا هيكل إنسان ،
فراح يضربها بسوطه ويلقى عليها أسئلة توييخية هازئة :

— هل انتهيت لهذا المصير بسبب انعاسك فى المملكات . . ؟ !

— هل كنت مجرمة فارة من وجه العدالة . . ؟ !

— هل ارتكبت إثماً يلحق العار بأهلك وذويك . . ؟ !

ما أكثر الذين يصنعون منا بأنفسهم مثل صنيع ذلك الفيلسوف

بالجمجمة ، وما أفدح الخطأ الذى نجترحه بهذا الصنيع . !

لو لم يكن للشعور الملح بالأثم من ضرر سوى وقف اهتمامنا باكتمال

أنفسنا وترقيتها لكان كافياً - ودعوني أضرب لكم مثلاً :

لو أنك وأنت تسير فى الطريق عثرت على قطعة مستديرة يمكن أن

تكون نحاساً ، ويمكن أن تكون ذهباً . ثم جلوت جزءاً منها لتبلوكنها . .

فماذا يحدث إن وجدتها نحاساً . . ؟ ستلقى بها فى الطريق .

وماذا يحدث إن وجدتها ذهباً . . ؟ ستتم عملية الجلاء حيثما كنت تفزع

بها وتستثمرها . . .

وكذلك أنفسنا حين يحيلها الشعور بالآثم قطعة من نحاس تافه
ورخيص . عندئذ تقف كل محاولات تعليتها والتسامي بها ، ونلقى بها
في الطريق - طريق الإهمال والابتذال والضياع . . !

وهذا - في تقديرنا - هو الذي جعل الرسول ينكر على الشاهد
الذي قال رأيت يسرق ، وعلمه أن يقول رأيت يأخذ . . إنه أراد أن ينقذ
نفساً إنسانية من ورطة الموقف وخزيه ، ويخفف عنها وطأة الشعور
بالآثم كيما تنهض من جديد . .

وهو الذي جعله يقول للزاني الذي جاء لاهثاً معترفاً
- لعلك لامست . . لعلك قبلت . . قاصداً بهذا أن يرد إليه ثقته
بنفسه واحترامه لها ، عن طريق تهوين وقع الخطيئة عليه . .
وهو الذي جعل المسيح يقول قولته الخالدة :

- من كان منكم بلا خطيئة ؟ فليرمها بحجر . . إنه لأفضل عزاء
يقدم لنفس جريحة ، بل وأفضل حافز أيضاً . . وهو الذي جعل
«سقراط» يقول :

- ليس العجب أن تكون خطاء ، بل العجب أن تكون عفيفاً . .
وهو الذي جعل كورنوشوس يقول :

- أعرف أناساً رفعتهم الخطيئة إلى مقام القديسين . . إنه نداء
الحقيقة يهيب بالبشر في صيحات موصولة أن ييقوا على احترامهم لأنفسهم
ويتقبلوها كما هي . نداء يريد ليباعد بين الإنسانية ، واليوم الذي يصير
فيه الشعور بالآثم فضيلة ونسكاً . لأنه اليوم الذي تبدأ فيه هذه الإنسانية
رحلة الانقراض . .

التحريم ، معطل الإرادة وصانع الأغراء . . .

من أي مصدر يستمد وجداننا المخاوف المقلقة ، والمشاغل الحادة بالخطيئة . . ؟

— من التحريم . ولقد أمضت طبيعتنا الإنسانية في أصفاد التحريم زهرة شبابها . ولولا الانطلاقات التي كانت تهتبلها ، والسياحات التي كانت تفرّ إليها ، لبدت اليوم أكثر ضالة ، وأدنى نمواً — وحين كان يزور الحياة ضيف سديد النظر من العلماء والمصلحين ، لم يكن ينسى أن يحلّ من أغلال التحريم عقدة أو عقدتين قبل أن يمضي . . ولعلّ ثقل وطأة التحريم على الناس هو الذي جعل الإمام الفاضل أحمد بن حنبل يتورع عن المبادرة إلى الحكم بالتحريم على الأشياء فلقد روى عنه أنه كان إذا سئل عن شيء محرم قال :

— أحسبه حراما . . ثم يتلو قول الله « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام . . . »

وإن البشرية اليوم لتداخل عصرا لن يكون للتحريم فيه على سلوكها كبير سلطان . سواء كان هذا السلطان دينيا — أم مدنيا ، كتابا مقدسا ، أم قانونا موضوعا . ذلك أن الإنسان الجديد قد اكتشف نفسه ، ووقف على كنهه حوافز السلوك وبواعثه ، واكتشف العلم أن التحريم هو الأب الشرعي للأغراء . فكلما أسرف مجتمع على أفرادهِ في إشاعة التحريم ، كلما أعطى الأغراء فرصة العمل الناجح ، والقنص المظفر . . وما أصدق عائشة أم المؤمنين ، وهي تعبر عن كشف اليوم من ألف وأربعمائة سنة فتقول :

— . . لو حرم على الناس جاحم الجمر ، لقال قائل : لو أذوقه . . . !!
والترية الحديثة تقوم على استبعاد التحريم ، ورفع نيره عن النفس
الإنسانية ما وجد إلى ذلك سبيل .

ترى هل تقصد بحديثنا هذا إلغاء القوانين ، أو إباحة ما حرم الله . . ؟
أم هل تقصد إلغاء التحريم قاطبة ، وجعل الحياة كلاً مباحاً يرعى فيه
من يشاء كيف يشاء . . ؟

أظن أن الذى يتابع حديثنا فى بصيرة ووعى لا يمكن أن تدور برأسه
هذه الخواطر الواشية ؛ فأيماننا بالله ، وبالعلم ، وبالتطور - وهو إيمان
بملاء صفحات الكتاب ألقه وسناه - هذا الإيمان ينأى بنا عن استحسان
هذه الطفرة فضلاً عن تحييدها وترويجها ؛ فمهما يكن الأوج الذى سيشاركه
الإنسان ، سيظل تحريم بعض ألوان حياته ونشاطه سياسة مقررة . . وأى
أبله يتصور محيى يوم يكون فيه قتل الإنسان نفسه أو قتله غيره عملاً غير
محرم ولا محظور . . ؟ وعلى هذا المثال نستطيع أن نقيس كثيراً من
المحظورات الباقية فى حياتنا لترد عنها عوادي التحلل ، وغوائل الفوضى
والاضطراب . . وإذن ؛ فنحن نريد باستبعاد الترية الحديثة للتحريم أمرين :

الأول : الأسراف فى التحريم ، وهو شئ يضعه الدين والعلم موضع
الاعتبار - أما الدين ؛ فهذا هو رسول الله يقول : إن أعظم الناس جرماً
من سأل عن شئ لم يكن حراماً عليهم ؛ فحرم بسبب مسأله . . !! قال
الرسول هذا بسبب إلحاح أصحابه فى السؤال عن أشياء لم يحرمها الله عليهم
بعد . وأما العلم ؛ فقد تأكد لديه أن الأغراء وليد التحريم . ومن ثم قال
قائله : - ليس هناك ما ينبئ عن انحطاط أمة ، مثل كثرة قوانينها . . !!

الثاني : أننا نستبعد التحريم حين نريد تصور السلوك الإنساني وتشخيص علله وآفاته - إذا ما دمننا قد سلمنا بأن أخطاءنا السلوكية وأمراضنا الخلقية وليدة ظروف معينة ؛ فمن المحتم إذن أن ندرس السلوك من حيث آفاته ومقوماته في ضوء علاقته بهذه الظروف . .

ونعود للأمر الأول فنقول : إن مجتمعنا يخوض في مخاضة واسعة من المحرمات التي لم ينزل الله بها سلطاناً - ولقد كان الاستعمار التركي الجاهول كلما حرم شيئاً لمصلحته مزج هذا التحريم بالدين حتى يضمن إذعان الناس وحسن تقبلهم . وحتى يومنا هذا ، لا تجد أقرب إلى لسان الوعاظ ورجال الدين والهيئات الدينية من كلمة « حرام » ، فإلسينا حرام والموسيقى غير العسكرية حرام ، وفن الرسم والتصوير وتحت التماثيل حرام ، وذهاب الفتاة إلى الجامعة حرام ، وقراءة الكتب العلمية حرام ، ومعاملة البنوك حرام ، والنظر إلى المرأة حرام ، ولا يزال في القاهرة نفسها أناس متدينون . إذا ترامت صوب أسماعهم أنغام موسيقية جعلوا أصابعهم في آذانهم ، لأن هناك سيلاً من الأحاديث المعزوة إلى الرسول تدعوهم لهذا . .

وهذه النصوص التي تملأ كتب الدين جميعها ، تصور لنا خطورة هذا النوع من التحريم . ففيما يختص بالموسيقى مثلاً لا تجد كتاب فقه ، أو توحيد ، أو حديث ، أو مواعظ إلا ويعتمد في محريمها على حشد جم من الأحاديث . .

فهناك مثلاً من يحدثنا أن الرسول قال : يمسح أناس من أمتي في آخر الزمان قرادة وخنازير . قيل : يارسول الله أليسوا يشهدون ألا إله إلا الله ، وأنتك رسول الله . . ؟

قال : بلى ، ولكنهم اتخذوا المعازف والقينات قباتوا في لهوهم ولعبهم .
وأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير . ۱ ۱

وحين يجد مؤلف الكتاب نفسه في تناقض بين حين لا يرى أحداً
من الناس يمسح قرداً ولا خنزيراً . . يقول إن المراد بالمسح هنا مسح
القلوب لا مسح الوجوه . أى أن الموسيقى التى تهذب الوجدان وتصفله ،
وتتسامى بالخلق وبالطبع - تحيل قلوب عشاقها إلى قلوب القردة وطباعهم
إلى طباع الخنازير . . ! ويكاد يقوم إجماع بين علماء الاسلام على
أن سماع الموسيقى حرام إلا فى الأعياد . ويعتمدون فى هذا على حديث
صحيح هو أن عمر بن الخطاب دخل يوم العيد على رسول الله ؛ فوجد
فى حضرته امرأة تضرب الدف . فأنهرها وقال : أمزمار الشيطان فى بيت
رسول الله . . ؟ فهذا الرسول روعه قائلاً :

— دعها يا عمر ، فإن اليوم يوم عيد . .

وما دمتنا قد ضربنا الموسيقى مثلاً لمشكلة التحريم ، فدعونا نسهب قليلاً
فى توضيح هذا المثل حتى نستغنى به عن سوق أمثلة أخرى من المحرمات
والمحظورات .

لقد أحصى بعض العلماء الأقدمين الأحاديث النبوية الواردة فى تحريم
الموسيقى فوجدوها تبلغ الثلاثمائة . . !

كيف يطلب من قوم يحترمون عقولهم أن يصدقوا هذا . . ؟
إنه لو كانت جميع معازف عصرنا الموسيقية موجودة فى عصر الرسول
وأراد فعلاً تحريمها لما كان بحاجة إلى أكثر من حديثين أو ثلاثة ، فضلاً
عن ثلاثمائة . إن لم يكن صاحبنا قد أخطأ فى الحساب ونسى مائة أخرى —

فكيف ولم يكن من الآلات الموسيقية في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام
سوى « مزمار من البوص » و « دف من الجلد » ؟ ! ثم لماذا تحرم
الموسيقى . . ؟

الأنها تعزف في الليالي الماجنة الحمراء . . ؟ ! إذن فشرب الماء
بالأكواب حرام ، لأن بعض الأكواب يستعمل في احتساء الخمر . . !
ثم كيف نطلب من الناس أن يحترموا رأينا فيما نحرمة عليهم - إذا هم
وجدوا بين محظوراتنا مثل هذه المغام التي تسمو بأذواقهم وأخلاقهم
وتعينهم على مشقات الحياة . . ؟

وهل حالت الثلاثمائة حديث المنسوبة ظمنا إلى رسول الله ، هل حالت
بين الناس والأصغاء إلى الموسيقى كما لو كانوا في عبادة . . ؟ - كلا . بل
إنها لم تحمل بينها وبين أئمة الدين وأعلام الفقه

فها هو هذا الجنيد يحضر مجلس سماع منعش ، فيتأوح الحاضرون وهو
ساكن ؛ فأذا عوتب في هذا أجاب : وترى الجبال تحسبها جامدة . . وهي
تمرّ من السحاب . . !

وهذا أبو طالب المكي يقول في كتابه القوت « إذا أنكرنا السماع ؛
فقد أنكرنا على سبعين صديقا من خيار هذه الأمة . . !

وهذا هو إبراهيم بن سعدون المزني أقسم أثناء زيارته لبغداد « ألا يحدث
فيها عن رسول الله أو يقرأ دروس الفقه إلا وبين يديه « عود » يضرب
على أوتاره بنفسه . . ! ، وإبراهيم بن سعدون هذا ، خرج له أصحاب كتب
السنة جميعا بما فيهم البخاري ومسلم .

وهذا هو الإمام مالك يحكي عن ذكريات شبابه الورع يوم شهد مجلس

سماع في « بنى يربوع » شهده أفاضل العلماء ، وكان تمت معازف ودفوف
وعبدان يغنون - فتناول « مالك » الدف وأخذ يغني :

سليمى أزمعت بينا - فأين تظنها أينما ؟
وقد قالت لأتراب - لها زهر تلاقينا
تعالين فقد طاب لنا العيش تعالينا

ويروى عياض عن محمد بن الحكيم قال : كان أبي والشافعي وابن بكير
وجاعة من أصحابهم في عرس وكان هناك لهو ودف فما أنكره واحد منهم .
وهكذا مصير كل تحريم يقوم على اضطهاد طبيعتنا ، فالدين أرادوا
تحريم الموسيقى ووضعوا لهذا ثلاثمائة حديث نسبوها إلى الرسول ، لم يزيدوا
الرغبة فيما حرموه إلا ضراما .. وهناك عشرات المسائل التي تكتنفها فتاوى
التحريم من كل جانب ، ومع ذلك فالناس يكرعونها كما لو كانت أكواما
من الليمون الثلج . !

أليس خيرا من تركنا الناس يمارسون ما يعتقدون أو يظنون أنه حرام
وتتكون فيهم على توالي الأيام عادة الاحتيال على التشريع أو الاستهانة به -
أليس خيرا من هذا ، أن نقصد نحن في التحريم ، ونطهر الذاكرة الإنسانية
في أمتنا من أكذاس المحرمات التي تقعد بها عن التبريز في الحياة ، والتي
تجعلهم يمضون فيها وهم منقسمون على ذواتهم ، غير متفاهمين مع أنفسهم ... ؟
فإذا رجعنا إلى الغرض الثاني الذي ذكرناه آنفا ، وهو تصور مسلكنا
الأخلاقي ، وتشخيص آفاته وبحث مقوماته بعيدا عن سلطان التحريم ،
وجدنا ذلك ضروريا ؛ فالمحاولة الأخلاقية الرشيدة إنما تهدف إلى توعية الباعث .
حتى يتوافر للسلوك عنصر الاقتناع والانبعات الذاتي مما يضمن للفضيلة
المكث والبقاء .

أما التحريم فغاية ما يصنعه أن يضبط السلوك بعض الوقت وليس له على الباعث أى سلطان - والسلوك المضبوط رهبة من عقاب أو رغبة في ثواب لا يدعو للاعتماد عليه ، فقد يتراخى انضباطه عندما تتراخى صلة الثواب أو العقاب به . . . وإذا نحن اجتلينا الحقيقة في هذه المسئلة وجدنا أن السلوك الخير بدون باعث يقف وراءه لا يساوى شيئا . وأعمالنا نفسها لا توصف بالحسن ولا بالقبح . إلا تجوزا . . وإنما يوصف بذينك الوصفين أصلا - بواعث أعمالنا . .

وانضرب لهذا مثلا - القتل - هل يمكن إذا جردناه من بواعثه ودوافعه أن نصفه بأنه حسن ، أو بأنه قبيح . . ؟ كلا . ، ومن أجل ذلك نرى منزلته تتكيف وفقا لدوافعه .

فهو جريمة - إذا كان باعثه رديئا كالعدوان . .

وهو فضيلة - إذا كان باعثه خيرا كالدفاع عن الوطن . .

وهكذا رأينا الدين يعجد القتل ويعد عليه بأرفع منازل الجنة . . ثم رأيناه يلعنه ، ويتوعد صرته بعباب أليم ، ويأس مدقع من رحمة الله . - الأول إذا كان في سبيل الله ، والثاني إذا كان من أجل الهوى والغرض وشهوة الانتقام .

وما دامت الحياة الأخلاقية الرفيعة لا تقوم إلا على بواعث رفيعة . .

وما دام التحريم محذوف السلطان على البواعث ، عاجزا عن التأثير فيها .

فإن الأسراف في استعماله بحجة حماية الأخلاق يكون لغوا عظيما . ولذا

كان من أذكي لفتات الدين قول الرسول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما

لكل امرئ ما نوى . .

فإذا أردنا للمجتمع أخلاقاً فاضلة ، فلنهيء له البواعث الفاضلة -
والبواعث الشريفة تجيء ثمرة الإرادة المشحونة ، والتجربة الحرة .
ومن عجب أن التحريم يعطل الإرادة ويطارد التجربة ويفتح الباب
على مصراعيه للأغراء . . .

إننا نستطيع بالتجربة أن نفرق بين مرحلتين من مراحل تطور
الإنسان . المرحلة القديمة جداً ، والحديثة جداً . . فنقول :
كان شعار الطور القديم : تجنب . .
وصار شعار الحديث : جرب . .

ذلك أن التحريم المصمت السادر الذي لا يترك بجانبه فراغاً لعلامة
استفهام كان على رأس خصائص القرون الأولى . أما اليوم فقد صارت
التجربة الحرة في كل شيء هي نبراس العصر ومقوم حياته

وإننا لنذكر كيف عاش المجتمع الأوروبي دهرًا طويلاً مكظوم
الأنفاس ، معصوب العينين ، معطل الحواس داخل حصار لا يرحم من
محظورات الكنيسة . ولكن التجربة التي أزجتها إلى الحياة قوة الحقيقة ،
انقضت على تلك المحظورات حتى أزاحتها . . ونذكر أيضاً ما حدث مثل
هذا في الشرق الإسلامي كله حيث لا تزال التجربة فيه في دور التثاؤب
والتعطى . وعلى أية حال فقد تداعت كبريات الحصون التي شادها نظام
- تجنب - ، وشاد التطور التاريخي للناس حضارة جديدة في اقتصادياتهم
وفي سياساتهم ، وفي أنفسهم شعارها - جرب - وكل سلوك للناس لا يقوم
على أساس من هذا الشعار لن يستطيع ذووه أن يحملوا شعار المدنية
الفاضلة التي نعاشها

ومن حق القارئ أن يسألني ماذا أعني بالتجربة الحرة في السلوك الخلقى . . ؟

— هل أعني أنه لكي يكون الإنسان صادقاً فعليه أن يجرب الكذب ، ولكي يكون شجاعاً ، لا بد من أن يجرب الجبن . ولكن يصير أميناً يجب أن يجرب الخيانة ، ومن أجل العفة نجرب العريضة . . . ؟

— لو قلت في إجابتي : نعم . لما عدت تأكيد وجود بعض خواص طبيعتنا الإنسانية . فأكثر الناس لا يعرفون مغبة الكذب ولا عقي الخيانة ، ولا مصير العريضة إلا من تجاربهم الخاصة . وحتى اليوم لم يبلغ ذكاؤنا الإنساني ، ولا سيما في المجتمعات للمتخلفة المنسوب الذي يدعو للانتفاع بتجارب الآخرين . .

ولكن على الرغم من هذا فأني لا أقول : نعم . . . ليس ضربة لازم أن نجرب الكذب لكي نكون صادقين ، ولا الخيانة حتى نصير أمناء . وإنما نعني بما ذكرنا — أن نؤمن بالتجربة كمصدر للخير والفضيلة ، وللحقيقة . .

ثم إن الإرادة — إرادة الترقى والصعود لا وجود لها في نطاق التحريم . . وإنما توجد إرادة أخرى بديلها هي : إرادة الانكماش والأخفاق . .

ذلك إن الإرادة وهي حادى سلوكنا القويم تستمد يقظتها وانتباهها من المثل الأعلى الذي نختاره لأنفسنا — ولنفتح أعيننا على كلمة « نختاره » . . .

جميعا . . فهل يلتقيان ، الاختيار والتحريم . . ؟ أبدا

فهي شامية إذا ما استهلت وسهيل إذا استهلّ يمانى . . !

ولسوف نظفر بغانم كثيرة إذا سمحنا لعقولنا أن تدرك أن ما تعانيه
مجتمعات شرقنا العربي من ترهل في عزمها ، وانتلام في إرادتها ، إنما
يرجع أولا وقبل كل سبب آخر إلى جو التحريم الحائق الذي لف حياتها
في مثل الضباب وجردها عسورا طويلة من حقها في الاختيار

فلندرك جيدا أن الإرادة كما يعرفها علم النفس والأخلاق - هي وظيفة
لذات . مثل الهضم الذي هو وظيفة المعدة . .

وإذا كان الهضم الرديء يعود على المعدة نفسها بالدمار . فالإرادة
الرديئة تعود على الذات بالدمار . .

وإذا كان لابد لسلامة الهضم من عصارات الكبد والبنكرياس ،
فلا بد كذلك للإرادة من عصارات التجربة والاختيار

وهذا ما يهيب بنا أن نقص ظل التحريم سواء منه الدينى الذى يعلا
كتب الدين المحرفة وأفواه الوعاظ المثقلة بما لم يحرمه الله ، والقانونى الذى
يوضع بغير روية ولا قصد ولا تفكير .

إن أجل ما يظفرنا بالاكتمال الخلقى هو إرادتنا التى يجب أن نضحى
بالكثير فى سبيل إيجادها . . وإذا مكنت قوما من هذه الإرادة فاقذف
م عبر محيطات المنى والرغبات . ولا تحش عليهم سوءا . .

إنهم قد يصيبهم رذاذ عابر ، ولكنهم لن يذهبوا مع الغارقين .

غرائزنا تعرف الطريق

والآن نسأل سؤالا :

— أليست الإرادة بحاجة إلى طريق تمضي فيه ، وبالتالي فهي بحاجة إلى من يدلها على الطريق .؟

وأيضاً ، إذا كان الشعور بالآثم كما ذكرنا من الخطورة ؛ فلماذا نأثم ، وأليس أفضل من الزجر عن الشعور بالآثم الزجر عن الآثم ذاته ..؟ ونجيب عن أول السؤالين بأن مثلنا الأعلى الذي نختاره في حرية وإرادة هو الذي سيحدد لنا طريق السلوك . وسوف تحمل الصفحات القادمة توضيحاً لهذا ..

ونجيب عن السؤال الثاني بسؤال آخر هو : كيف نأثم .؟ أو بعبارة أصح ، كيف نأتي هذه الأعمال التي توصف بأنها إثم ..؟ إن كنه هذه الأخطاء يتلخص في كونها نتيجة للمباراة القائمة والدائمة بين حقيقتنا ومثلنا الأعلى . . . بين واقعنا الذي هو كائن ، ومثلنا الذي نرجو أن نكونه . . . حياة الفرد منا قصرت أم طالت رحلة محتومة تبدأ من ذاته الماثلة وتنتهي عند ذاته المتخيلة - تبدأ من واقعه الذي لا حيلة له فيه . وتنتهي عند مثاله الذي آثره وارتضاه . أو الذي يريد أن يحقق عنده ذاته تحقيقاً كاملاً - إذا كان ذا وعي أخلاقي سليم

إنها صورة موجزة لحياة النوع جميعه . فقد بدأت الإنسانية رحلتها من ذلك النموذج البدائي الذي كانت الغابة مأواه وكتابه ، نعيمه وعذابه . وهي اليوم وغداً وبعد غد وإلى الأبد ماضية في رحلتها الصاعدة مصممة

على بلوغ مثلها الأعلى . ولكن ماذا فعلت الإنسانية حتى بلغت
شأوها الحاضر . . . ؟

لقد اقترفت من الأخطاء والخطايا ما يحل عن الوصف والحصص وإن
الإنسانية خلال تطورها الصاعد لتشق طريقها إلى مثلها الأعلى بين عناصر
غريبة عن هذا المثل إن لم تكن معادية له . وكذلك يفعل الفرد
- أي فرد - فنحن جميعاً ، أنت ، وأنا ، والآخرون نشق طريقنا إلى
الفضيلة وإلى مثلنا الأعلى بين عناصر غريبة عنهما ، ومعادية لهما إلى
حد كبير . . .

وكما أن أحدنا يكد في الأرض فيشقيها ويزرعها ويسقيها ثم يأتي
الصقيع أو العواصف فتقتلع ثمار كدحه . كذلك تقف منا موقفاً مشابهاً ،
تلك الظروف الفعالة فينا ولكن هذا لا يدعو إلى اليأس ، فعلى حدّ تعبير
العلامة الانجليزي « دكنسن » السم أنتج الترياق وكما ولدت قسوة الطبيعة
في الإنسان إرادة وذكاء قاوم بهما أعاصيرها وزلازلها . فكذلك تولد
فينا تلك العناصر الغريبة التي تعتاق مسلكنا الخلقى - قوى تقاومها
وتنتصر عليها

ولكن علينا أن نشق بالطبيعة الإنسانية ؛ فهي وحدها عدتنا في النضال . .
إن الدعوة إلى تحطيم الغرائز ، وتسفيه مشيئتها دعوة إلى الخذلان الكامل .
ولقد علمنا تاريخ الإنسان ، وتصور غرائزه وخصاله . أن نشق بها - أعني
غرائزنا - ثقة كاملة

يقول دكنسن :

- « . . كيف وجدنا هذا الإنسان في أول أمره ، أي من الساعة

التي بدأ فيها يتصرف بنفسه في أقداره . . ؟ هل وجدناه في ذلك الوقت
مسالماً ذكياً رحيماً معيناً لبنى جنسه - كما هو اليوم - . . ؟

— « لا ، بل وجدناه حيواناً مغطى بالشعر يمشى على رجلين ، جاهلاً ،
قاسياً مخرفاً منقسماً إلى آلاف من القبائل والجماعات المتعادية ؛ فكانت الحرب
وكان الاسترقاق وكان ما يستتبعان من مصائب وآلام وجدت مع الإنسان
من بداية عهده . وكانت شرور لا بد منها تصيب الإنسان كما يصيبه
الفيضان والنار . .

« هذا هو الكائن الحي الذي وجد دون أن يكون له في وجوده
خيار . والذي أطل في طفولته على العالم بعد رقاده الطويل في أحضان
الوحشية ، ومضى ، يحرقه من قدميه ويتعلق به من عنقه ما ورثه عن
أسلافه من الحيوان . .

« فإذا كانت له الآن مدافع وبوارج ؛ فلائه كانت له في الأصل
مخالب وأسنان . . وإذا كانت الدعارة والفسق تنتشران بين أفرادها ؛
فلائه كان من قبل يلجأ إلى السبي والاغتصاب . . وإذا كان له اليوم
عمال وأجراء ؛ فلائه كان له فيما مضى عبيد وأقنان » . . .

إن كلمات « دكنسن » على ما فيها من فكاهة تنصف طبيعة الإنسان .
فالخلق المشاهد ، أن غرائزنا تسير في طريقها عن بصيرة . وحسبها لكي
يوثق بها - أنها ماضية دائماً إلى أمام . . لا تنفكس أبداً . ولقد قضت
ملايين السنين وهي تعمل وتجرب ، وتخطئ ، وخلال هذا تنمو قدرتها
الفائقة على الاختيار والخلق والتصميم نموا مطردا . . وهي لا تبعد أبداً .
لكنها تتطور .

فغريزة المقاتلة باقية ، ولكنها تتطور من الظفر والغاب إلى المدفع
البارجة . .

وغريزة الجنس باقية ، ولكنها تتحول من السبي والاغتصاب إلى
الزواج والأسرة
وكما يقول « ديورانت »

— « . . تحول الجشع عند الإنسان إلى اقتصاد ، والاعتداء إلى
حجاج ، والاغتيال إلى مقاضاة ، والاتجار إلى فلسفة » . . .

إن غرائزنا — هذه القوة التاريخية التي تكونت لنا على طول الطريق
الذي قطعناه ، لباقية بقاء الحياة نفسها ، وكل تعطيل لها تعطيل لمهمة الحياة —
ولعل أصوب من التعبير بكلمة — تعطيل — التعبير بكلمة — تبديد —
فغرائزنا لا تتعطل أبدا ولا تقف عن العمل . ونحن حين نكتبها لانصنع
أكثر من تحويل طاقتها الهادفة البناءة إلى عمل مبدد هدام — عمل يتسم
بطابع الانتقام والشغب والفوضى . .

إنها أعرف منا بالطريق ، لأنها وحق قبل أن ينبثق فينا العقل كانت
رائدنا العليم البصير ، وكما ذكرنا من قبل فإن تطورها الصاعد
يدعونا للثقة بها . وصحيح أنها تتطور في ببطء . ولكنها مع هذا سيدة
للموقف مما يجعلنا ملزمين إذا أردنا الظفر بسلوك فاضل غير قلق ولا منتكس
أن نوائم بين حقوقها الطبيعية ، وشعائرها الخلقية . . وإن ذلك لممكن
إذا سلمنا بأدى الأمر بوجودها وفائدتها — لكن من المعروف أننا في بلاد
احتوشتها التقاليد ، وضللتها الأساطير ، وقادها الجهل والجاهلون إلى مهمم
وغير . ؛ فلقد وقفنا ولا تزال نقف من غرائزنا موقف الخصومة الغبية

وكل تربيتنا في الأسرة وفي المجتمع وفي المدرسة والمسجد والكنيسة
تعرضنا عليها - فهل في ذلك من خير . . ؟

هل كبت الغريز واضطهادها نهج سوى للتسامي والاكتمال . . ؟ -
سنجيب على هذا في الفصل القادم إجابة مدعمة بالشواهد والأرقام حين
نتحدث عن - « الكبت حرب أهلية » . . وحسبنا الآن أن نشير إلى
أثر غرائزنا في التطور التاريخي للإنسان ونظمه ودينه .

فمثلاً ، أليست غريزة الجوع هي التي حققت حرية الإنسان وأعلنت
حقوقه . . ؟ - أجل ، فلولاها ما قامت الثورة الفرنسية ، ولولاها ما كانت
الثورة الروسية . هاتان الثورتان اللتان أحدثتا في تطورنا التاريخي ،
وصنعتا لمستقبلنا الإنساني الشيء الكثير ، بل الأكثر من الكثير . . .
وغريزة الجنس التي لا تزال تلاقي في بلادنا أذى كثيراً ، من حفظ
النوع الذي كان سينقرض حتماً سواها . . ؟

وحتى غريزة القتال - ها هي ذى تعمل دائبة ناصبة لتقريب عصر
السلام ؛ فهي الحافز الكامن وراء مخترعات الموت كالتنباتين - الذرية ،
والهدروجينية - هاتان اللتان سيدفع فتكهما المالحق إلى التفكير الرصين
الحاسم في وضع أوزار الحرب ، والزج بها في متحف « مخلفات العصر
الوحشي للإنسان » . . (!) حيث ترتفع غريزة المقاتلة بعد ذلك إلى
نقطة أعلى ، يراق فيها مكان الدم العرق ، وتطوح فيها بديلاً من رموس
الناس رموس المشاكل والصعاب . . !

ونحن حين ندعو لتوقير غرائزنا لا نعني بطبيعة الحال ترك حبيلها
على غاربها . إذ لا بد من أن تسير في حمى العقل وهداية المثل الأعلى -

وهذا ما جعلنا نختار دائماً التعبير بـ « طبيعتنا » ذلك أن عقلنا ، ومثلنا الأعلى جزءان من طبيعتنا . . . وهدفنا هو : إطلاق سراح الطبيعة ، لا سراح الغريزة . ومن أجل هذا جعلنا عنوان هذا الفصل من الكتاب « طبيعتنا الحرة . . أعلم » أجل ؛ نحن ندعو للتعبير المتوافق الحر عن طبيعتنا ككل واحد ، والعقل البصير والحاسة الخلقية الهادية من أهم عناصر هذه الطبيعة . . أما أن نطلق سراح جزء من طبيعتنا على حساب حرية جزء آخر منها . كما نفعل حين نطلق غريزة الجنس ونكظم الحاسة الخلقية ، أو نطلق الحاسة الخلقية ونكظم غريزة الجنس ؛ فهذا كما سنؤكد فيما بعد ، هو الكبت الصاعق ، والضلال المبين . وإذن ؟ فغرائزنا تعرف الطريق شرط مسيرتنا لها وتعليتها - وهذا هو أظهر فارق بيننا وبين الحيوان ؛ فالحيوان غرائز مثلنا ، ولكنه عجز عن استعمالها والتكيف معها ؛ فوقف حيث هو . . أما نحن فقد قدرنا فصرنا أناساً وبشرا - وهذا بالضبط هو الفارق بين الأمم ذات الإنسانية لنا ضجة الراقية ، والأخرى ذات الإنسانية البدائية الفجة . .

فلنعلم جيداً . أن إطلاق هذه القوى الهائلة وتوجيهها في الطريق الصحيح - هو الحل الوحيد والسلام لمشكلة سلوكنا وأخلاقنا . . فبدلاً من أن نبحث لها عن شكائم جديدة - وهو ما يريد دعاة الإصلاح الديني أن يفعلوه اليوم - تعالوا نحطم بقية السلاسل التي تحتجزها . ونسير بها فوق مرتفعات تطيقها ، أما الكبت فلا يشمر سوى النقيض المر الويل - وإن هذه الحقيقة لطوع إدراكنا لو نشاء . ؛ فنحن - مثلاً - لا نقبل على الماء في أيام فطرنا مثلاً نقبل عليها في أيام صومنا . . وعند يسير أحدنا

عبر صحراء متلظية وقد نضب ماؤه ، وجف ريقه ، ثم يقع بعد طول ظماء على ماء آسن ؛ فإنه يعب منه كما لو كان عذبا فراتا - بنهم لا يجده في ظروف عادية لم يداخلها حرمان .

ولهذا ؛ فإن شهرا كـشهر رمضان - قد تحول عندنا إلى شهر الطعام ، لا شهر الصيام . فنحن ننفق فيه على بطوننا أضعاف ما تنفقه في أى شهر آخر - ذلك أن غريزة الجوع تصر على تعويض ما يؤخذ منها مع أننا لانكاد نأخذ منها شيئا . . . وليست غريزة الجوع وحدها . فمن المحتمل أن يكون هناك ما يمكن أن يسمى « تداعى الغرائز » في هذا الشهر بالذات يدب في الغريزة الجنسية ضعف نشاطها المعتاد ، فهل هى العدوى انتقلت إليها من غريزة الجوع . . ؟

أم تراها أخست بما سيناله منها شهر العبادة والذسك فهبت للعمل ، وآثرت أن تأخذ صفة الهجوم . . ؟ !

ونستطيع أن نؤكد أن محاولات الاتصال الجنسي غير المشروع تكثر في المدن التى تضرب القاهرة مثلا لها - تكثر في شهر رمضان عنها في أى شهر آخر . .

وهذا الشاهد بليغ الدلالة ؛ فنحن في ذاك الشهر لا نضار الغرائز ولا نكتبها - إنما نصنع فقط يسيرا من القمع ، فكيف إذن لو كبتناها كبتا ينطوى على تحد وإقصاء . . !

هناك أم بأسرها يجب سلوكها على هذا السؤال . . صار الانحراف الجنسي فيها ، أو هو على وشك أن يصير شعيرة وعبادة . . !

لماذا . . . ؟ وهل حدث هذا نتيجة تفريط في الدين وإنكار له . . . ؟
كلا؛ فما أكثر ما يصلى أهلها ويصومون . ! ولكنه حدث كنتيجة
محتومة لجهلها بحقوق طبيعتها الإنسانية ، وعجزها عن مسايرتها
والتفاعل معها .

لقد ظن ناس هذه الأمم أن الشرف والنخوة والدين في تحطيم
الغرائز العاملة

وبدلاً من أن يحتفظوا بالخلايا التي يجنون منها العسل . ، ذهبوا
يدمرونها — ومع ذلك ، فما استطاعوا . . . وتبروا أنفسهم تنبيهاً . . . !
ولما كان المجتمع بتقاليده وورائاته وثقافته المحرض الأول على الحرب
الدائرة بيننا وبين طبيعتنا من جهة ، وبيننا وبين الحقيقة من جهة أخرى ،
فقد آن لنا أن ننتقل بالحديث إليه . . .

المنبع ، قبل المصب

■ يحمل المجتمع في رحمه جنين
كل جرم يقترب فيه . . .
- كوتليت - البلجيكي -

في هذا الفصل

مسئولية المجتمع
مشكلة العيش
مشكلة الجنس
النكبت حرب أهلية
مشكلة الفراغ

مسئولية المجتمع

بين طبيعتنا الانسانية والبيئة التي نعيش داخل نطاقها ، ارتباط وثيق .
تظهر آثاره في سلوكنا وأخلاقنا . . وإذا شبهنا طبيعة الإنسان بالأرض ،
فإن البيئة تشبه المحراث الذي ينبشها ، والبذور التي تبذر فيها ، والماء
الذي ينساب خلالها و يرويها .

والطبيعة الانسانية + النظام الاجتماعي يفرزان السلوك ويعينان نوع
الأخلاق التي يتخلق بها الفرد والجماعة . . وعلى طول الطريق التي سار
عليها البشر تتألق هذه الحقيقة كمنجوم السماء . . وإنا لنلاحظ أن تطور
السلوك الانساني يجيء مصاحبا لتطور البيئة ، وانقراض المجال الذي تحقق
فيه طبيعتنا ذاتها . ومن هنا كان كل ضغط على طبيعة الإنسان ، وكل
كبح لزام التطور في المجتمع مؤامرة سفية ضد الأخلاق وضد الفضيلة . .
لقد كان الإنسان القديم - إنسان الغابة - ينجب ذراري يشبهونه ويشبهون
الغاب . . فلما ترقى وسكن المدينة صار ينجب ذرية من نوع آخر تليق
بسمته الجديد ، وتليق بالمدينة . وكذلك الحال في الأخلاق تماما . فالطبيعة
الانسانية الفجة ، والنظم الاجتماعية البدائية كانتا تتعاونان معا على إنتاج
أخلاق فجة وبدائية حين تقاس بمعاييرنا الخلقية اليوم . وكما أحرزا من
النمو والتقدم نصيبا تبع ذلك تقدم ونمو في المفاهيم الخلقية والسلوك الانساني . .
فالانتحار مثلا كان فضيلة . وإذا أسأت إلى آخر إساءة أغضبه غضبا
دفعه إلى الانتحار أو الألم . فتم لزام عليك أن تنتحر . وتصير منبوذا
نجسا إذا أنت لم تفعل . . فأين ذهبت تلك الفضيلة اليوم . . ؟
وكان على رأس فضائل الناس - كما أسلفنا قبلا - أن تقدم لأضيافك

زوجتك أو بنتك - ولعلّ هذا يفسر قول نبي الله لوط عليه السلام لقومه حين هاجموا داره ليفتكوا بضيوفه فتكا جنسيا - « هؤلاء بناتي هن أطهر لكم إن كنتم فاعلين » . . فأين هي هذه الفضيلة اليوم . . ؟

لقد تخلفت في الطريق كما تخلف سواها من الفضائل التي استنفدت أغراضها . وسقطت في رحلة الانتخاب الطبيعي لحصال الإنسان بعد أن أدت دورها وأنهت مهمتها . .

وكذلك القرصنة ، كانت فضيلة تتمثل فيها عدة فضائل كالشجاعة والتضحية . . فالإنسان الذي يقطع الطريق على قافلة تنوء بالزاد والحير ثم يسوقها إلى قبيلته وقومه ، رجل فاضل شجاع . فهل لا تزال القرصنة فضيلة . . ؟

لقد تطورت مع الإنسان والبيئة حتى صارت تجارة . ولسوف تتطور التجارة إلى شيء آخر أهدى وأمثل ، بعد أن انزاح الستار عن دورها الضار في استعمار الشعوب وإيقاد الحروب . . وهكذا يتلقى سلوكنا الأنساني صورته وسيماه من طبيعتنا النامية ، وبيئتنا المتطورة ، وليسوا سواء ، سكان كوكبنا الأرضي اليوم . ففي المجتمعات المتخلفة نجد أخلاقا متخلفة ، وتصوراً رجعياً لمعنى الفضيلة ونموذجها . . ولنا نغنى بالتخلف هنا ما تعنيه السياسة الدولية المعاصرة . . (١١) وإنما نغنى به كل إعراض عن التعاون الصادق مع حركة التاريخ . . ومن هنا تبدأ مسؤولية المجتمع عن سلوك أفراده فالمجتمع الذي يصر على أن يعيش في منتصف القرن العشرين مدثراً بنظم قرون خلت ، وأزمان عفا عليها التطور لا يحق له أن يطمع في غير أخلاق تلك القرون ، وخصال ذلك الزمان . .

ولا بد أن « ماركس » كان يريد تعزيز هذه الحقيقة حين قال :
— « إن ضمير الإنسان يتغير تبعا لتغير علائقه الاجتماعية وحياته
الاقتصادية . ؛ فاسحقوا استغلال الإنسان للإنسان . تذهب العداوة .
وتذهب مع العداوة الرذيلة » . . .

إن أصول الأخلاق اجتماعية . وفضائل الناس ورذائلهم . بنات المجتمع
وحفيدات الزمن . . والمجتمع - أى مجتمع - هو الوعاء الذى يحتويه
داخل محيطه . ونحن فيه كالماء ، نتلون بلون إنائنا . .

أجل ، وكما يبدو الماء أحمر اللون إذا وضع فى إناء أحمر ، أو أخضره ،
إذا وضع فى إناء أخضر . . نبدو نحن أيضا ، ولنا لون المجتمع الذى
يستوعبنا . بل إن الأمر أبعد من هذا وأخطر ؛ فالماء قد يفقد لونه
الحقيقى خارج الإناء فقط ، ثم هو يظل ماء بكل لونه وخصائصه ومذاقه . .
أما نحن داخل المجتمع ؛ فأننا نفقد الكثير من خصائصنا الذاتية ، أو على
الأقل نفقد الكثير من نشاط هذه الخصائص ما لم يكن المجتمع لائقا ومشجعا .
إن مشكلتنا الأخلاقية لم تعد تتمثل فى إدراك أن هذا حلال . وهذا
حرام . . أو هذا خير . وذلك شر . . بل تتمثل على وجه التحديد
فى إدراك نوع المجتمع الذى يساعد بمفاهيمه ونظمه على فعل الحلال ،
وهجر الحرام . .

ولقد عرفت الإنسانية من تجاربها المتساوقة أن الصدق والعفة والأمانة
والشجاعة والتفاؤل خير . . كما عرفت أن الكذب والمجون والخيانة
والجبن والتشاؤم شر . . وحين جاء الدين نفسه يدعوها إلى الصدق مثلا
لم يكن يدعوها لشيء ابتكره . بل كان يدعو إلى فضيلة موجودة بالفعل .

انبثقت من تجربة الإنسان واحتياجاته . ودور الدين لا يتعدى تزكيتها
والتخريض عليها . .

أجل . ، وما أيسر أن يعرف الناس الفضيلة والريضة . ، ولكن
ما أعسر الظفر بالفضيلة . ، وما أضناه . .
فلنجعل المجتمع من الصلاحية والأمكانية بحيث يتيح لأفراده أن يحققوا
ذواتهم تحقيقاً متسامياً رفيعاً .

إنه لحق أن الأخلاق الفاضلة تمثل وحدها نصف الوسائل التي تحقق
الأمة بهاء عظمتها وارتقاءها . وحق مثل هذا الحق أن نظم المجتمع وتقاليد
وثقافته تمثل تسعين في المائة من الوسائل المفضية لمكارم الأخلاق . ونضرب
لهذا مثلاً ؛ ففي أثناء دراستنا الانحراف الخلقي بين الشباب وتعقبنا أسبابه
وجدنا خمسة عشر شاباً فقدوا أمهاتهم وهم أطفال بسبب الطلاق . .
وعندما كبروا وازدهر شبابهم زلت أقدامهم ، وتداعوا أمام أول إغراء .
إنهم لا يعرفون كيف حدث هذا . . . ؟ ، ولكن العلم يعرف . . ففي طفولتهم
التي فقدوا حنان الأمهات وعطفهن . وحلّ بديل هذا الحنان المفقود
شغب زوجات الآباء ، أو فراغاً مجدياً للذين لم يتزوج آبائهم بعد الانفصال
عن الأمهات . .

وطال تلمس هؤلاء البائسين لقلب عطوف يضمهم ويدفي وجداناتهم
المرتعدة المقرورة . .

طال شوقهم إلى حنان الأم يشرق في وجوههم . وإلى أناملها الرطاب
تداعب خصلات الشعر المنسدل فوق الجبين . ولكن هيهات . . ولما كبروا ،
وصاروا شباباً ، ساروا في الطريق الغاصّ المزدحم ، وتلقفهم الدين اكتشفوا

جوعهم إلى العطف والحنان . وكانوا ذئابا يرتدون مسوح الرهبان . .
وبدأت المأساة . . . فلم تكن هناك فوضى الطلاق التي أودت بخمس
عشرة أم ، ماربحت الخطيئة خمسة عشر شابا يانعا بهذه السهولة . . وهكذا
سنجد المجتمع بتقاليده ونظمه وراء كل موبقة يرتكبها الناس . ، فلنظهر
المنبع قبل المصب . . ولنعد النظر في تكوين المجتمع قبل أن نفكر
في تغيير الفرد . .

وإذا علمنا - أولا - أن الطبيعة الأنسانية ، والبيئة الاجتماعية يشمران
في تضامن وطيد سلوكنا . .

وإذا علمنا - ثانيا - أن كل تنافر بينهما يقوض شريعة أخلاقنا . .

وإذا علمنا - ثالثا - أن المجتمع أقدر على التطور السريع الصاعد من
الطبيعة البشرية . . ؛ فقد صار لزاما علينا أن ننتفع بقابلية المجتمع هذه .
ونمكنه من التحول الحاسم إلى أفضل . ليعوض تطور طبيعتنا البطيئة
وليأخذ بيدها في ثبات صاعد واستقرار متجدد . . ونقطة البدء التي ننطلق
منها إلى غايتنا هي تحديد القاعدة التي يقوم عليها مجتمعنا وإدراك الأوضاع
التي تكثفها . . ومجتمعنا هذا قاعدته ، المباراة غير المتكافئة . .

أجل ، ولنحفظ هذه العبارة جيدا - المباراة غير المتكافئة . .

وقد يكون في عزمنا أن نتحول به إلى أفضل . بيد أن واقعه الذي
يميزه اليوم هو كما وصفناه - مجتمع مباراة غير متكافئة . . وحيث يوجد
هذا الوصف ، توجد النقائص الخلقية جميعها - وتصير رذائل المجتمع قوات
اجتماعية لا يستطيع الفرد - أي فرد - أن ينجو من إسمارها

ذلك أن المباراة غير المتكافئة تعني أن ينطلق أفراد المجتمع في سباق

لا هت وظالم . لا يبدأ فله المتسابقون من نقطة واحدة - هى الكفاية الذاتية ، ولكنهم ينطلقون من نقاط شتى أكثرها بعدا عن الهدف هى الكفاية والشرف . .

والمجتمع العربى كله يحمل هذا السمى ، ويضطجع فوق هذه القاعدة - من أجل ذلك نراه يروج بنقائص الكذب ، والنفاق والغش ، وفقر النفس . . ولم يعد يعرف عن الرذيلة إلا أنها الزنا وشرب الخمر . . وحتى هاتين ورغم استنكاره لهما يحتلان فيه مكانا مرموقا .

ومن الوضع الاقتصادى السىء الذى رزح مجتمعا تحت وطأته قرونا مملومة بالسطو والقهر والاستغلال . من هذا الوضع الذى لا نزال نحاول التخلص من قبضته العارمة الآثمة رسخت فى حياتنا مشكلات ثلاث هى فى - رأينا - الآبار التى تنزع منها جميع نقائص المجتمع وكافة رذائله وأخطائه . تلك هى :

أ - مشكلة العيش . .

ب - مشكلة الجنس . .

ج - مشكلة الفراغ . .

وبعبارة أخرى نقول : إننا نرث اليوم مجتمعا مريضا ، نرثه من القرون الطويلة القائمة التى جثمت على صدره ، وجثمت معها عليه تقاليد غزاة - لم تكن لهم عقول الحكماء ، ولا قلوب الرحماء . . وقبل أن نبدأ فى علاجه - نورد العافية إليه - علينا أن نشخص علته جيدا ، ونحدد معالم شخصيته الضامرة المهوطة . .

وهذه المعالم - كما ورثناها - تتلخص فى أنه :

١ - مجتمع استغلالي . .

ب - مجتمع انفصالي . .

ج - مجتمع عاطل . .

ومن تفشى روح الاستغلال فيه قرونا عاتية نشأت مشكلة العيش . .
ومن سيطرة تقاليد الانفصال عليه نشأت مشكلة الجنس - وعن هاتين
المشكلتين مضافا إليهما ضالة القرص وسوء تكافؤها نجمت مشكلة الفراغ .
وكل محاولة لتصحيح سلوكنا . وتجويد أخلاقنا تفقد فاعليتها ما لم نضع
هذه المشاكل الثلاث موضع البحث والاعتبار . فلنفعل ذلك إذن . وبغير
إبطاء . ولنبدأ بأولها وأعتها . .

مشكلة العيش . .

إن نكون مغالين ، وأيضا لن نكون ماديين إذا قلنا لمن يبحث عن
الفضيلة والرذيلة : فتش عن اللقمة . !! فلقد كان العيش ولا يزال الملحمة
الكبرى التي تتناثر منها حوادث السلوك الأنساني وعثراته . وهذا لا يعنى
عدم وجود مؤثرات أخرى . بل يعنى أن مشكلة العيش كبرى هذه
المؤثرات وأهمها - ومشكلة العيش تبدأ من البحث عن اللقمة . ثم لا تعرف
مضاعفاتها نهاية تقف عندها . . . وهى لهذا مشكلة . . وهى أيضا لا تجد
مناخا ملائما سوى المجتمعات التي تقوم على المباراة غير المتكافئة . حيث يلهث
الناس وراء الثروة والشهرة والسلطة والنجاح . وإذا كان تكوين المجتمع
لا يسمح بنوال هذه الأشياء بغير الكذب ، والحيلة ، والسرقه ، والنفاق .
فإنها جميعا وبقيّة أسرتها الرذولة تصبح سلوكا عاما ينسى الناس فى لجأت

اندفاعاته أنها نقائص وخطايا . . لقد بدأ الإنسان وغيته الكبرى لقمة
تسد جوعته . . وفي سبيل الظفر بتلك اللقمة مضى يقتل ، وينهب
ويكذب ، ويحتال . .

ثم تطورت احتياجاته . ولم يعد الطعام وحده أولى غاياته بل امتلاك
الأرض التي تخرج الطعام . . ثم تطورت شهوة الامتلاك مع تطور البيئة
والنظم فصار ينو إلى امتلاك الأسواق . . وعلى طول هذا الطريق رويت
الأرض بدماء البشر وسفك الناس كثيرا من أعمارهم على أديم المعركة
التي أزجتها المباراة الظالمة حول امتلاك اللقمة . وامتلاك الأرض ، وامتلاك
لسوق . ، ولا يزالون يفعلون ! . .

كل الذي حدث أن المشكلة التي كانت تلتف حول مطالب متواضعة . .
ضخمت وأمست متعلقة بمطالب أكثر . . والنقائص التي كانت تزجها
مشكلة العيش لبست ثيابا تنكيرية للفضيلة . فالسرقة تحولت إلى ملكية .
كما تحولت القرصنة إلى تجارة . . وإذن فالأخلاق التي كان يفرزها النزاع
على اللقمة . يفرزها اليوم النزاع على الأسواق . ، وعلى الشهرة والمجد
النجاح

وإذا طبقنا هذه الظاهرة على أخلاقنا الفردية وسلوكنا الشخصي
جدناها . . فالناس بطبيعتهم يريدون لأنفسهم مزيدا مستمرا من النجاح .
سبيلهم لهذا طبعاً ، الوسائل التي تتناغم مع ميول المجتمع الباطنة ، وخصاله
راسخة ولما كانت المجتمعات إنما يحدد ميولها ويكيف خصالها - تكوينها
لاقتصادي ، أي مشكلة العيش فيها ، فإن أخلاق الأفراد تجيء انعكاساً
واضحاً وتاماً لهذه المؤثرات .

يقول الفيلسوف الانجليزى « بنتام » :

— « . . يسود الناس اعتقاد خاطئ عن تكوين الأخلاق . : فهم يرون أن الإنسان كيف أخلاقه ويتجه ناحية الخير أو الشر ، وبذا يعد مسئولا عن أعماله . بينما الحقيقة خلاف ذلك . إذ أن أخلاق المرء وليدة ظروف لا سلطان له عليها . وهى الأحوال التى فيها يولد ، وفيها يعيش ، وفيها يؤدي عمله . وبناء على هذا المبدأ لابد من العمل على توافر الظروف الصالحة من النواحي الجثمانية والأدبية والاجتماعية إن شئنا تكوين الأخلاق السليمة الفاضلة ، ولن يتسنى لنا الوصول إلى هذا الهدف إلا إذا توافرت الثروة . إذ بدونها يكون الفقر من نصيب الأغلبية ، والفقر من الظروف السيئة الشريرة لأنه يولد الجهل ، ويحطم الصحة ، ويربى الجبن » . .

ألا فليقف أمام هذه الكلمات طويلا — أولئك الذين يتوسلون إلى تجويد الأخلاق وتعلية السلوك بالمواعظ ، والقوانين ، والصراخ المتشنج فى مكبرات الصوت التعسة البائسة . . . !
والآن نسأل سؤالا :

— هل معنى ارتباط الأخلاق بالنظام الاقتصادي للمجتمع أو مجرد انتقال جماعة ما من مجتمع مباراة إلى مجتمع مساواة يصاحبه على الفور انتقال السلوك وتسامى الخصال . . ؟

ونجيب : لا ، ليس ذلك كذلك ، فالسلوك الإنسانى كما أسلفنا ، بطيء التطور . . ولكن الذى لا ريب فيه أن خلاص المجتمع من المعوقات الاقتصادية وذبوع المساواة والتكافؤ فيه من شأنه أن يفتح فى الحال والتو أبواب الفرص للترقى المتدرج فى المسلك والخلق

إن بين المباراة المتفاوتة والفضائل العالية هوة بعيدة الغور مترامية
الوصيد . والمجتمع القائم على هذا اللون من المباراة لا يعرف سوى الخصال
التي تذكر بين أفرادهم حمى التنافس والزاحم والتكالب . . إنه ينتج الأخلاق
بنفس الطريقة ، ولنفس الغاية التي ينتج لها الفحم والحديد . . فكما أنه
ينتج الحديد والفحم - مثلا - ليزيد ثراءه وبأسه ، كذلك ينتج الأخلاق
ليزيد ثراءه وبأسه . . ولما كان الصدق والحب ، والأمانة ، والسلام ،
والعدل ، وكل هذه الفضائل الوضيئة نحتم أن يكون جميع الثراء
لجميع الناس . .

ولما كان مجتمع المباراة غير المتكافئة يقوم على أن يكون معظم الثراء
لعظماء الناس . .

ولما كان مقياس العظمة في هذا المجتمع هو طول الباع في الحيلة
والكذب ، والاتضاع ، والانتهاز ، والعريضة المتكررة في نسيج فضفاض
مصنوع من الاحتشام . فإن العملة الصحيحة تختفي من السوق حتما . والفضائل
الحرّة الباعثة لا يبقى لها وجود إلا على ألسنة ليس وراءها ضمائر
ولا قلوب .

كيف يستطيع مجتمع المباراة هذا ، أن يهب أفرادها الفضيلة والحكمة .
وهو قائم على نشدان المصلحة الخاصة ودعم المآرب الشخصية أو الطبقية . ؟؟
إلينا مثلا عابرا يشير إلى حالات أكثر رسوخا وتفاقما . مثل الموظف
في شركة لبيع الملابس والأقمشة . . إنه إذا كان يشتغل بالمرتب فقط يكون
أدنى إلى الصدق والنصيحة في بيعه . فهو فاتر الاهتمام بخداعنا وتضليلنا .
ولماذا يخدعنا ويغشنا . ؟ إنه سواء عليه أن يبيع طول يومه ثوبا واحدا ،

أو ألف ثوب . فله مرتب محدود سيأخذه . . أما إذا أغرينا هذا الموظف بما يسمى « العمولة » فسيتحول من قوره أو على التدرج إلى إنسان آخر محتال مضلل غشاش . يقسم على جدة البضائع المخزونة من الحرب العالمية الأولى . ويقنعك بشئ الوسائل أنها أحدث عهدا بالآلة التي نسجتها من صبح اليوم بضحاء . . وهو يزداد إمعانا في سلوكه التجاري هذا كما رأى زملاءه يبيعون أكثر . ويجنون أكثر . .

وعندما تسير في الطريق ؛ فتبصر عمارة شاهقة . ويقول لك زميلك السائر معك : أتعرف لمن هذه . . ؟ إنها لفلان . . ثم يعدد لك الوسائل التي هيأت له اقتناء هذه وأضعافها ، وهي كلها مما يحادّ الفضيلة والشرف . فأنت ستجد في نفسك نزوعا واعتمالا . فأن كان عمرك وليّ بكيت الفرصة التي أضعافها منك تمسكك بالفضيلة . . وإن كان في العمر بقية وللعزم أثارة ، مضيت تبدأ من جديد السير في الطريق الضالة المباركة التي ستعثر في منتهائها على عمارة شاهقة وثروة باذخة . . !!

نعم - لا شئ في موضعه الطبيعي . . . ! هذا هو شعار مجتمع المباراة غير المتكافئة ، فكيف يرجى إذن من مضطرب به وفوضاه وشدوده سلوكا منتظما وفاضلا ووطيدا . . ؟

إن الرذيلة في مجتمع يقوم على التفاوت والتمايز هي كما أسلفنا قوة اجتماعية تزكيها وتدعمها المؤسسات التي يصطنعها هذا المجتمع لنفسه كالصحافة والإذاعة ودور السينما . ولهذا يكون من العسير إن لم يكن من المستحيل أن ينجو الفرد من الحصال الدنيئة التي ملأ نظام المجتمع بها حياته . والتي جعلها سبيلا إلى غايات منتفخة كالشهرة والمجد والثروة إلى آخر هذه الأحاييل . .

وهذا المجتمع أيضاً - أعني مجتمع المباراة غير المتكافئة - ينفث في حياته الأخلاقية تناقضاً مريراً ؛ فهو إذ يدعو مكرها وبصورة شكلية إلى الفضيلة . يعمل بطبيعته الغلبة على ترويح الرذيلة . .

إنه حين يملأ أسماع الناس بتمجيد القناعة نظرياً . يملأ حياتهم الواقعة بكافة الظروف التي تسوقهم في غير رفق إلى الجشع . . . وفي الوقت الذي يوقر آذانهم بالحديث عن الأمانة يملأ طريقهم بالاحتياجات التي تدفع الناس في سباق لا هت نحو الخيانة وفساد الذمة . .

وهذا المجتمع يجذب من الصداقة . وإذا كانت الصداقة والأخاء والحب . هذه المعاني الوضيئة التي تعبر عن تماسك السلوك من أجدى الوسائل المفضية لخلق رائع . فإن الخسارة تبدو واضحة حين نجد مجتمع المباراة أعجز من أن يكون مجالا للصداقة ووعاء للأخاء . . إن أخلاق « البورصة التجارية » و « الشركات المساهمة » هي التي تربط أعضاء بعضهم ببعض ثم هو لا يكثرث - على حد تعبير سقراط بالحديقة التي تؤتى أكلها شهياً في كل حين - ألا وهي الصداقة . .

وأخطر الأثافي التي يرتكبها - مجتمع المباراة - تزيفه معايير الفضيلة ؛ فهو بطبيعة تكوينه يجعل من الخيانة والرشوة والجاسوسية والاحتكار وغيرها فضائل تظفر بتمجيده وهو لا يكون من السداجة بحيث يتركها هكذا بملاحمها الدميعة الشائنة . فيصطنع لها أسماء تبعث على الثقة والاطمئنان ؛ فالجشع - مثلاً - يسميه اقتصاداً . . ويسمى النفاق أدباً . . والرشوة تبرعاً . . والجاسوسية وطنية . . والاحتكار امتيازاً . . والهوان تواضعاً . . والديسر مسابقة . .

إنه يذكرنا بمجتمع المباراة الكبير الدولي . . حيث يسمى الاحتلال
تعميراً . . ويسمى احتلاله للشعوب تعاوناً دولياً . . ويسمى الأحرار
الذين يكافونه إرهابيين وهدامين . . !!
أليس مجلس الأمن ذاك - هو الذي ترك عرش فلسطين يساقط كسفاً
على رموس أهلها . . ؟

أليس هو الذي ترك مراكش وتونس تفنيان تحت بأس الأسلحة
الفتاكة التي تخرجها مصانع المباراة وفائض القيمة . . ؟؟

أليس هو الذي خذل مصر وعيس في وجه قضيتها وحققها . . ؟
أليس هو الذي يبارك الاستعمار في كل مكان . . ؟
أليس هو الذي أشعل حرب كوريا . . وهو الذي سيشعل الحرب
العالمية المقبلة . . ؟

ومع هذا كله ؛ فانظروا . . إن اسمه - مجلس الأمن . (!!)
أى أن جرائم الأرباب ، والتستر ، والنهب ، قد تحولت إلى فضيلة اسمها
الأمن - ألا دعونا نضحك ، إن كان للضحك في هذا المقام العبوس مكان . .
لقد آن لنا أن ندرك أن الأخلاق ليست كلمات تلاك ابتغاء العزة
وابتغاء تأمين المصالح . ولقد ظل المسلمون يلوكون القرآن بالسنة منافقة
حتى أزهقوا بهاء آياته الوضاء أو كادوا . . فإذا كان المنادون بالفضيلة ،
والبكاء ون محنة الأخلاق جادين في دعواتهم وصلواتهم ؛ فليتعقبوا جذور
المأساة وليتقدموا نحو طريق الخلاص في شجاعة . وإلا فأنهم بثرثرتهم
حول الأخلاق الفاضلة ، إنما يعبرون عن حنينهم إلى شيء يفقدونه . . .
إن في بلادنا وزارات للشئون الاجتماعية ، والأرصاد القومي .

وللمعارف ، وللمساجد ، وفي كل وزارة من هذه قسم أو أقسام وثيقة الاتصال بالمسلك الخلقى للفرد والمجتمع . ونسينا أيضاً وزارة الداخلية؛ فهل نستطيع أن نتصور إمكان العثور في أى من هذه الوزارات على إحصاء واحد يكشف مثلاً عن أثر حياتنا الاقتصادية في أخلاقنا ، أو أثر حياتنا الصحية ، أو أثر حياتنا التربوية...؟!

لا - وإن مجرد تصور هذا ، لأغراق في التفاؤل غير حكيم . ! إننا نستطيع فقط أن نجد في سجلات وزارة الداخلية إحصاء عن عدد حوادث السرقة أو القتل ، أو هتك العرض ، أو تهريب المخدرات وتعاطيها . أما لماذا تحدث هذه الخطايا . وفي أى الأوساط تكثر ، وفي أيها تقل . ولماذا . . فشيء لا يدخل دائرة اهتمامنا وحسابنا .!!

ولقد تهتز أسلاك المسرة في وزارة التربية والتعليم يوماً - حاملة في خجل محموم ، نبأ كارثة خلقية . كتلك التي كشفت من سنوات ثلاث عن عصابة في بعض مدارسنا الراقية تقوم بتوريد بعض التلاميذ لبعض الناس . . (؟) وإذا عزَّ على القارىء أن نسعيهم « ناسا » ؛ فليختر لهم اسماً مناسباً يلائمهم ويرضيه . . فماذا يحدث بعد اهتزاز الأسلاك بالنبأ الفاجع . . ؟!

لا شيء أبداً . فقد تصدر أوامر بالفصل أو الوقف أو إحالة الأمر للنيابة والقضاء . ثم ماذا . . ؟ ثم تستعد الأسلاك لتلقى فواجع جديدة ، وتنام عن فواجع أكثر وأكثر . ثم أكثر وأكثر . . هل فكرت وزارة المعارف يوماً أو بعض يوم على أثر هذه الحادثة في أن تتعقب بعين الإحصاء والبحث بواعث الخير والشر في أبنائها . . ؟

إن أجل وأخطر فترات حياتنا هي تلك التي تقضيها في ضيافة وزارة المعارف وتحت هيمنتها - فهناك المدارس الداخلية للبنين والبنات ... وهناك المدارس الخارجية التي تجمع في صعيدها المتراحب خليطاً هائلاً متنافراً من الميول والحصال والاستعدادات. وفي دور المراهقة يلتحم الشباب في المدرسة التحاماً حاراً مثيراً . . . فهل وضعت وزارة المعارف شيئاً من ذلك موضع الاعتبار . وهل تعلم شيئاً عما يدور هناك وراء ظهرها . . ؟

وهل علم ذلك فرد أو هيئة أو وزارة من أولئك الذين وكل إليهم أمر حماية الأخلاق أو اختاروا لأنفسهم هذه الرسالة . . ؟

كلا - وما كان من اللائق بهم أن يعلموا . فهذا اللون من الاهتمام الذي يعتمد على الأحصاء واستكناه البواعث والأسباب إنما يليق بالدول المتخلفة وحدها كبريطانيا وأمريكا وروسيا . (!!)

أما مجتمعاتنا غير المتخلفة كمصر . والعراق ، وسوريا ، والحجاز ، واليمن . . . (!) فليست بحاجة إلى مثل هذا الترف العلمي . والبحث الملحد الذي لا ينسجم مع ما يجب الإيمان به من أن الله قد قسم بين الناس أخلاقهم ، كما قسم بينهم أرزاقهم . . !

لشد ما نعلم أنفسنا ونسومها الشقوة والبوار إذا نحن أغمضنا عيوننا عن الحقائق وحرمنّا منها عقول الناس . . لقد كان أئمة الدين وكبار رجاله للمستولين يذودون الناس عن التطلع إلى العدل والمساواة بقولهم : إن الله قسم أرزاقه بين العباد فمنهم غني وفقير . . .

وكانوا يصرفونهم عن التطلع إلى حكم أنفسهم بأنفسهم بقولهم : إن الملك ظلّ الله في الأرض وكل محاولة لخلعه أو عزله تحدّ مشيئة الله الذي وضعه هناك . .

أفنتركهم اليوم يقولون : إن الله قسم الهدى والضلال ؛ وإذن فلا قيمة
لمحاولات العلم في تعلية غرائز الناس وتجويد سلوكهم .. أم تأخذ بعصم
الحقائق ، ونزرع المعرفة لكي نحصد الفضيلة ...؟؟ وبذلك نحسن أرضاء ربنا .
إن الفلسفة الجبرية الغيبية لسان حال المجتمع الاستغلالي حيث يكون ،
في الشرق والغرب .. ومنطقه هذا سلسلة من الأغاليط يأخذ بعضها برقاب
بعض وتمضى نحو غاية واحدة هي الانفصال عن المستقبل .. المستقبل الذى
يخافه ويرهبه لما يدخره له من قوى ستدهده وتقنيه .. ومادنا ستربأ
بأنفسنا عن أن يظل مجتمعنا كما ورثناه ، قائما على الاستغلال والتفاوت .؛
فلنطلق النفاثات المطهرة في كل أركان المجتمع لنضع المعرفة مكان الخرافة ،
والواجب مكان المنفعة ، والمساواة مكان المبالاة .. وإذ كان المال هو
المارد الذى يطلق شياطين الرذيلة ويغري بها ؛ فلنضعه في مكانه الحق ،
ولنساعد أنفسنا على تقبل الجديد الصالح حتى يساعدنا الله ..

إن البشرية تسير دائما إلى الأمام في رعاية التطور وزمالاته وفي كل
نقلة من نقلها تستشرف قima ملائمة وأهدافا مناسبة . فذات يوم من أيامها
البعيدة - مثلا - كان أسمى أهدافها أن تحصل على أمير إقطاعى تلقى إليه
زمامها ، وتريق في خدمته وبين يديه جهدها وجهادها نظير حمايتها من
الأغارات البربرية التى تهددها بالانقراض .. أما اليوم ؛ فالأمير الإقطاعى
والأقطاع كله حيوان منقرض خلفته الإنسانية وراء ظهرها ، وانتبذت
منه مكانا قصيا ..

وهى في أخلاقها وسلوكها كذلك ، فلقد أتى عليها حين كان جمع
المال من أى طريق أنبل أهدافها ، حتى لقد كانت القرصنة والقتل

والعدوان بطولة ووطنية وفضيلة.. ولكنها اليوم وقد هيا لها التطور
الصاعد منسوبا عاليا من الوعي والتجربة . قررت أن تجعل المال وسيلة
لا غاية.. وسيلة للتفوق على النفس ، لا للتفوق على الغير.. وهى بهذا
تشارف المستقبل وتصافحه . لكن نظام المباراة غير المتكافئة وغير العادلة
يجذبها إلى وراء ويخلد بها إلى حالة آسنة من فهم عتيق..

لقد أدركت الأنسانية اليوم حقيقة المال.. وهى أنه خادم مطيع .
ولكن نظام المباراة يشككها فى هذه المعرفة.. ويأبى إلا أن يظل المال
سيدا مستبدا وبين النظريتين المتنافرتين.. بين المستقبل الذى يؤكد أن
المال خادم مطيع . والماضى الذى يخاف فى حشجة عنيدة بأن المال
سيد مستبد ، تجتاز الأخلاق الأنسانية امتحانا رهيبا وقاسيا وإذا كان
هناك ما يساعدها على النجاة والفوز ؛ فهو أن يحاول كل مجتمع مهما قل
شأنه وخبت إمكانياته ، أن يتصل بالمستقبل ويفتح على إشاراته الضوئية
عينه وعقله وفؤاده .

إن مجتمع المباراة إذن مجتمع انفصالى . ولقد يلتحم بالمستقبل من عدة
جوانب . ولكنه بأصراره على وضع المباراة مكان المشاركة يظل منفصلا عن
المستقبل بالقدر الذى يربطه بذلك الماضى.. والطامة الكبرى حين تشيع روح
الانفصال فى كيان المجتمع كله . وتنحل جميع العرى والروابط التى تصله
بمستقبله وتدججه فى الموكب الأنسانى الهادر نحو الأمام . كما هو حادث فى
مجتمعاتنا العربية كلها.. وإلى هنا يبلغ الحديث نقطة تصوّر حظنا الوخيم
العالم من روح الانفصال عن الحياة ، وعن الأحياء..

مشكلة الجنس :

لم تعد العلاقات الجنسية مشكلة تشغل الألباب وتستعصى على الحلول إلا في المجتمعات التي يقوم نظامها الاقتصادي على المباراة والاستغلال . . . وبين مجتمع المباراة ومشكلة الجنس ترابط وثيق ، وإخاء أبدى . . . ذلك أن هذا المجتمع لكي يتستر على جرائمه العديدة التي يفرزها تكوينه يفتعل مظاهرات كاذبة مضللة حول شيء ما يشغل به الأذهان عن خطاياهم ولما كنا نحمل استعداداً موروثاً للاحساس الحاد بالخطايا الجنسية ؛ فقد اختارها لتكون « البهلوان » الذي يشغل به حواسنا ، أو « البرفان » الذي يأتي وراءه كل موبقة وإثم . . . والعجيب أن بلاد الشرق العربي قضت قرونا طويلة ولا تزال مضللة الفهم في المسئلة الجنسية بسبب خطة ماكرة خبيثة نفذها من قديم الزمان أحد مستعمرينا وجلادينا . . . !

ففي القرن السادس عشر أصدر الفاتح التركي السلطان سليمان ابن السلطان سليم فرماناً أعلن فيه دستوره الأخلاقي العظيم ، وكان يتلخص في أن كل امرأة تكشف وجهها في الطريق العام تعاقب بأن يقص شعر رأسها ، ومنتطى حمراً « بالمقلوب » ويطاف بها في شوارع المدينة بين تصفيق الصبية وصياح المتفرجين . . . !

ولا بد أن آباءنا الطيبين قد ألهجوا ألسنتهم بالشكر والدعاء للسلطان الورع . . . ومع ذلك فانظروا . إنه بنفس القلم الذي مهر به السلطان مرسوم الفضيلة هذا ، أو بنفس الإصبع الذي بصم به المرسوم . وفي ذات اليوم ، بصم فرماناً آخر تقول مادته الأولى :

— « السلطان هو المالك الحر لجميع أرض مصر . والفلاحون جميعاً

أجراء عنده وملتزمون » . . . ! !

ألم أقل لكم إن تمت ارتباطاً خالداً بين مجتمع الاستغلال وقضية الجنس . . ؟ فما هو ذا في الشاهد الذي سقناه يبدو واضحاً مبيناً - وهو ارتباط عكسي في سيره واتجاهه . أي أنه كلما أمعن المجتمع في السير الظافر إلى أمام - أمعنت المرأة في التقهقر الويل إلى خلف . . ففي مجتمع المباراة الرجعي يأخذ تقهقر الجنس صفة الانطواء والانقصال . . وفي مجتمع المباراة المتحضر يأخذ التقهقر صفة الأباحية والعريضة . .

وهكذا ، فإن عدوى الاستغلال في مجتمع المباراة تنال كل شيء ، والمرأة أول هذه الأشياء . وهذا أثر طبيعي ؛ فنحن أيا منا الأولى على هذه الأرض شرع آباؤنا الأقدمون جداً يستغلون الأرض ، ويستغلون المرأة . . ولذا ؛ فحيث يوجد استغلال ، يوجد إهدار أكيد للمرأة ، ويوجد بالتالي اضطراب واسع في فهم المسئلة الجنسية وفي تدبير حلها

لقد قضى الإنسان الأول دهرأ طويلاً لا يعرف غنى العفة ما نعرفه اليوم ولم يكن يرى بأساً في أن تضاجع زوجته ضيفه أو جاره أو صديقه . . وإنما البأس بل اللوث لها . إن فعلت ذلك بغير إذنه . . إن المشكلة تنحصر في الإذن وعدمه . أي في حق الرجل في السيطرة على المرأة واستغلال هذا الحق على النحو الذي يضمن له السيادة والتفوق . .

إذا إذن الرجل لزوجته أن تضاجع - عمروا - فهذه عفة . .
أما إذا ضاجعت - هذا العمرو - من غير إذن زوجها ؛ فهذا
هو الزنا . . . !

ومن هنا نلمح حقيقة المؤثرات البعيدة التي لا تزال تسوق تفكيرنا نحو موقف معين من المرأة والجنس .

إنه النزوع التقليدي للاستغلال والسيطرة فالمرأة في بلادنا الشرقية لا تزال سلعة تشتري بالمال في صورة نكاح شرعى ، أو في صورة سفاح محظور .

وعلى الرغم من أن الدين وضع عنها كثيراً من الآصار ، فإن المتدينين أنقضوا بالأغلال الثقيل ظهرها ، وكبّلوا بالقيود الشداد حياتها . . . إنهم - مثلاً - ليروون عن عمر أمير المؤمنين أنه قال لامرأته حين حاوات إبداء رأيها في بعض الشئون العامة : - « ما لك ولهذا . ؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين » . . . !!

ونحن لا نستطيع أن نتصور رجلاً في مثل ذكاء عمر وانطلاق روحه يرسل ذلك القول . وحتى لو صح صدور هذه العبارة عنه فإنه بلا ريب لا يعنى مفهومها المتبادر ، فالمرأة في عين الله . وفي عين العقل لا يمكن أن تكون مجرد دمية نعبت بها ثم نلقها في غير اكترات وغير مبالاة . . . إنه يثقل هذه التعاليم المسكوبة المفتراة حطم المستعمرون والمتغلون روح التقدم في الشرق ولا يزالون يفعلون . ولكننا وقد آمنا بأن المجتمع الذي يقوم على الانفصال ويفصل بين رجاله ونسائه خط من نار ومن عار ، مجتمع محكوم عليه بالانقراض ؛ فقد صار لزاماً علينا أن نقرب من هذه القضية ، قضية الجنس في بلادنا ، لنقول فيها بولا مبيتاً

ونحن نعلم كم هي حساسة هذه المشكلة . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فلنتقدم في شجاعة وأمانة وتجريد ، وعلينا أن نذكر أن الإنسانية من آلاف

السنين وهى تكافح الخطيئة الجنسية بالمواعظ والزواج ، فما يزيدا ذلك إلا ضراما .. ولطالما أذيع الخوف الدينى فى وجدانات الناس لينصرفوا عن الرذائل . ولئن كان هذا الخوف قد حقق بعض الانتصارات إلا أنه فى معظم حالاته كان يقضى إلى إحدى السوءتين

١ — تحدى الدين وخلع طاعته

ب — تخرج دينى يسوق صاحبه إلى كبت صاعق .. حتى اكتشف العلم أخيرا الوسيلة التى تبقى على الولاءين — الولاء للدين ، والولاء للفضيلة .. ذلك أنه رأى للأمراض الخلقية صفة جبرية . لا يفيد الوعظ فى علاجها . بل هى غالبا ما تكون ثمرة جهوده الموقفة .. (١) وازداد العلم ارتيافا فى العلاج الوعظى حين اكتشف أن أبطاله أنفسهم إنما ينهون عن الخطايا التى يكون لها ميلا لا شعوريا . ، وأحسنهم طريقة ذلك الذى يدعو الشباب لبند الاهتمام بأشياء كان هو فى شبابه يحبها ويأتمها ، ويجتر ذكرياتها مع امرئ القيس حين يقول :

ألا رب يوم صالح لك منهما — ولا سيما يوم بدارة جلجل

ثم إن العلم لا يطوف بنا حول المشكلة بل يواجهها ، فأذا كنا مصممين على المضى معه — وهذا ما سيكون ولو بالنسبة للمؤلف على الأقل — فلنحذف من قاموسنا كلمة « عيب » إن رأى العام فى بلادنا لا يزال يشمر من كل مصارحة تريد لتفض مغاليق المسئلة الجنسية وتحل عقدها . ويرى فى هذا ، أعنى فى تستره وفراره من المسئلة درءا لما قد تفضى إليه إنارتها من بعث للشوق الجامع والرغبات العاصية . ولكن آن لدوى هذا رأى وما أكثرهم ، أن يتأكدوا من أنهم مخطئون . فأعرضنا عن مناقشة المسئلة

الجنسية مناقشة فاهمة هادفة لن يحول بين الشباب وبين مناقشتها بوسائله الخاصة ... وإذا كان للصمت الذى يلتزمه البيت ، والمعهد ، والمجتمع إزاء الحياة الجنسية التى يتزايد إحساس الشباب بها على الأيام ، وتسبب لهم قلقا وعصبا وإدمانا.. نقول : إذا كان لهذا الصمت من عاقبة ، فهى أنه يزيد الهوة بيننا وبين الفضيلة اتساعا ، ويحرم الشباب من الفهم الذى يمكن أن يجنبه المزالق والمهاوى ولقد أدرك ذلك كثير من الأمم الناهضة ، فشرعت تلقن أبناءها الصغار والكبار ما لا بد أن يعرفوه عن الحياة كلها

وإنه لشيء يستحق الدهشة والرتاء معاً ، أن نستحي من القول .
ولا نستحي من الفعل . . . !!

ولنبداً بأن نعلم أن الفاصل بين العفة والخطيئة رقيق ودقيق حتى نستطيع أن نحصر الفارق بين الرجل الفاضل وغير الفاضل فى أن أولهما هو الذى أتى من خطايا الجنس فى سن مبكرة ، ما يأتية الثانى منها فى سن متأخرة . . أى أن الرجل غير الفاضل والمرأة غير الفاضلة ، هما اللذان توقف نموها النفسى عند مرحلة متقدمة من مراحل النمو نتيجة خطأ اقترافه واقترفه المجتمع معهما . وعندما كان إدراك هذا الواقع إدراكاً تجريبياً غير داخل فى نطاق المعرفة الانسانية رأينا معظم المحاولات المبذولة لرفع لواء العفة تذهب مع الريح . .

ماذا كانت عاقبة الواعظ التى أطلقتها المسيحية كهدير البحر محذرة الرجل من المرأة ، والمرأة من الرجل . . ؟
كانت العاقبة أن تحول النساء بآدى الأمر إلى عاشقات ، أو ساحرات ، أو عذارى فررن إلى الدير . ولم تكد ساعة الزمن تدق معلنة قدوم عصر

النهضة حتى كانت الأباحية الجنسية إعصارا يهب على كل مكان . وصار
الباباوات والقسيسون على رأس أئمة العريضة وأقطابها ، وكما يقول
« روفائيل سبتيني » . .

— « أضحي ذلك العصر عاجزاً عن التمييز بين القديسين في الكنيسة ،
والعاهرات في المدينة ، فسوى بينهما في التبجيل والتعظيم » . . ! — بل
لقد بلغ من افتتان الناس بالقوضى الجنسية أن احتفلت روما المسيحية عام
— ١٥١١ — احتفالاً مهيباً حفظه التاريخ وتحدث عنه بجزالة إحدى
العاهرات . وصمم شعب روما على أن يدفن فقيدته العزيز في كنيسة
القديسة « جرجويا » ونقش على قبرها :

— « هنا جثة العاهرة الرومانية العظيمة التي نالت ما تستحقه من
الشهرة الواسعة لأنها كانت مثلاً للجمال قل أن يوجد له نظير » . . !!!
ثم ماذا حدث عندما ظهر — سافونارولا — في فلورنسة و — كلفن —
في جنيف ، و — المطهرون — في إنجلترا ، واتفقت دعواتهم على أن الطريق
إلى الفضيلة والعفة هو أن تعزل المرأة عن المجتمع وتقع في زاوية مظلمة
من زوايا بيتها . . ؟

حدث تخدير وقي ، عادت الأباحية بعده إلى الظهور وانقضت الجماهير
على نبي العفة والفضيلة — سافونارولا — واضرمت النار في جثته الطاهرة . .
وسقطت حكومة المطهرين في بريطانيا . . ولم تستطع تعاليم أي من هؤلاء
سافونارولا ، وكلفن ، ولوثر ، وسواهم أن تهتدي إلى حل موفق سعيد
للمشكلة الجنسية العتيدة .

ولقد حدث في الإسلام رد فعل مشابه لهذا الذي حدث في المسيحية . .

فمن منتصف القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الخامس جاوزت
الأباحية نطاق الرشد وراجت عادات الشذوذ رواجاً وبيلاً ، وشربت الخمر
بديل الماء ، وكان بعض خلفاء العباسيين هم الرواد في هذا الطريق . حتى
لقد أباح أحدهم وهو الهادي شرب الخمر . ورنا الأدب الجنسي ببصره
المتطلع نحو خصور المردان وخدودهم وقودودهم يتغزل بها ، ويدندن حولها . . !
ومن الطرائف التي لا أكاد أنساها . « لامية ابن الوردي » . . وابن
الوردي هذا رجل فاضل نظم قصيدة شعرية طويلة ينهي بها عن الاثم ويدعو
إلى الصلاح . وفيها يقول :

واترك الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل
والله عن آلهة هو أطربت وعن الأمرد مرجج الكفل
إن تبدى أشرقت شمس الضحى وإذا ما اهتز زرى بالأسل

أية علاقة بين النهي عن الشغف بالفتى الأمرد ، وبين التغزل فيه
والتلطف بمحاسنه كما فعل ابن الوردي الذي نسي أنه يعظ واسترسل في
وصف يكاد يشطوي على فتنة وتحريض . . . !

وإلى أي مدى كان الحديث سينتهي لو أن صاحبه رجل آخر ، ليس
له فضل ابن الوردي وورعه وعزوفه . . . !

إن المجتمع الانفصالي الذي يضرب بين الجنسين بسور غير ذي باب ،
لم يكن قط . . . ولن يكون أبداً الطريق الصحيح لعفة باقية الدوام . وإذا هو
أفلح في صرف أفراد عن التطلع إلى الجنس ؛ فانه في ذات الوقت يدفعهم
بكلتا يديه إلى التطلع للمثل . . . إلى الانحرافات المدمرة العاصفة . هكذا

محدثنا التاريخ منذ بدأ يرصد ظواهر تطور البشرية الاجتماعى . وإذا لم
نتق بالتاريخ ؛ فلنلق نظرة على ما حولنا . .

سنجد بعض البلاد التى بلغت فى الأخذ بالعفة حتى ضربت حجابا
كاملا على المرأة ولم تجعل لها نافذة تصلها بالحياة سوى ثقب صغير فى نقابها
مواز لعينها تبصر به الطريق . . . !

سنجد الشذوذ الجنسى فى هذا المجتمع العريق فى الانفصالية تبلغ نسبته
٨٥ ٪ بين الرجال ، و ٦٥ ٪ بين النساء . . . !

وسنسمع الأنباء المتواترة عن بعض الشخصيات الكبيرة التى تقضى
سهراتها الضالة مع الغلمان المخطوفين . . !

وسنسمع قصة كبير من العلماء وقد جاءه الشرطة بولده وابن أخيه
مضبوطين فى حالة انحرافية شاذة . فما إن علم ذلك حتى انتفض انتفاضة
الشاكرين وقال :

— ابردى .. حسبتهما طابعين بالتين » . ومعنى هذه العبارة هو -
« الحمد لله . حسبتهما ضبطا يشربان الدخان . . ؟ ! !

أى أن تدخين التبغ فى هذا المجتمع الانفصالى أبهظ وزرا من
الشذوذ الجنسى . !

وسنسمع أيضا من أبناء المجتمع المذكور - ودعونا نسميه مجتمعنا من
باب التسلية - سنسمع عن فتية أطهار كونوا جماعة لحماية الأخلاق غرضها
الأساسى مكافحة الشذوذ ، واتخذ أعضاؤها ناديا عام - ١٩٥٠ - للميلاد

ولكن كبار رجال الدين هناك حاربوا الجماعة واستصدروا من
الحكومة أمراً بإغلاق النادي . . . !

وسنسمع في الجانب المقابل ، عن ذلك الأمير الفاضل المستقيم الذي طالب
بتعليم الفتاة في بلاده ، وتغيير الأوضاع وطبع رسائل تنتظم دعوته وحجته
فصودرت . . . والعجيب أن هذا الرجل الذي يكاد يكون وسط بيئته الكبيرة ،
والشاذة كصالح في ثمود . . . أو كالمسيح بين اليهود يطلق عليه لقب
« الأمير الموسوس » . . . !

وسنظل نسمع ، ثم نسمع حتى نقنع إن كنا من بني آدم بفساد المجتمع
الانفصالي حيث يكون ، ونقنع بعجزه المطلق عن حفظ الفضيلة ، وصيانة
العفة ، وتهذيب السلوك .

الكبت حرب أهلية . .

والمجتمع الانفصالي يعيش في ذعر دائم موصول من الخطيئة الجنسية .
ولكن ذعره هذا لا يحول بينه وبين شر ألوان هذه الخطيئة وأعق
مواقفاتها - ألا وهو الكبت .

أجل ، فمحاربة الرذيلة الجنسية بالكبت تساوى تماماً - إطفاء النار
بمقاذات الذهب . .

والكبت كما نعينه وكما يعنيه العلم هو إغلاق باب النمو الخلق أمام
المراحل الوافدة من حياتنا وتطورنا - ذلك أن للإنسان منا في كل مرحلة
من مراحل عمره ميولا خاصة وأخلاقا خاصة فاذا وفق لأشباع كل طور
من هذه الأطوار اشباعاً لائقاً متوافقاً فان حياته تظل بمنأى عن العواصف

والانحرافات . وأما إذا خضع لمؤثرات ما دينية ، أم بيئية ، وحرّم نفسه من أن تنال حظها من التعبير السديد ، والتوافق الرشيد ، فإن حياته تتعقد ، ويظل هناك طائف ملحّ ينادى بالتأثر للمرحلة التي ضاع حقها والطبيعة التي عطلت مشيتها .

ولقد سأل سائل العلامة « هادفيلد » أو بتعبير أصح . افترض ■ هادفيلد « وجود سائل يسأله :

— « هل إذا بدت لعقلي رغبات شريرة يجب على أن أتقبلها ولا أوصد الباب دونها » . . . ؟ ؟

وأجاب « هادفيلد » إجابة تفيدنا في هذا المقام فلنقرأها معه :
— « إن حياة الإنسان تتألف من عدة أطوار . كل منها يبلغ تمام النموّ ثم يموت مخليا مكانه للطور التالي . ؟ فالرضاعة والطفولة والمراهقة ، والبلوغ ، والرجولة ، والكهولة ، والشيخوخة — كل من هذه لها سيكولوجيتها المميزة التي تغلو كالوجة إلى قمتها ثم تهبط إلى قاعها مضحية بنفسها للموجة التالية . .

« وفي تطوّر الجنس ظهرت المغرايز واحدة بعد واحدة لتواجه المطالب الخاصة الجديدة للحياة . وكل غريزة توجد في كل فرد عند الولادة . ولكنها تظلّ كامنة حتى تدعى إلى القيام بدورها على مسرح الحياة . وتتميز كل فترة من الحياة في طور سيطرتها بظهور نزع غريزية تسود حياة الفرد . وعند انتهاء فترتها سواء أكانت قد تطورت تطورا ناجحا أم ظفرت بشيء من التعبير الجزئي فحسب ، يكون عليها أن تترك مكانها للغريزة التالية لها في الظهور ، والتي تلحّ في الأفصاح عن نفسها . وبين كلا الطورين من

الحياة ولادة جديدة يموت فيها القديم وينبعث الجديد إلى الحياة . وفي كل
بعث يتجدد شباب النفس كالزهرة الدابلة التي تستحيل ثمرة غضة . ولكن
العبور من الطور القديم إلى الطور الجديد لا يكون بطريق الكبت .
إذ أن كل غريزة في دورها إذا عبر عنها تعبيراً سوياً فإنها تندمج في الذات
مساعدة على بنائها وتنظيمها تنظيماً صحيحاً . وبهذه الطريقة تصبح كل غريزة
محولة نحو موضوع أخلق بالذات المتطورة . وقد يوجد في كل دور انتقال
عندما يمرّ طور ويأتي الطور التالي اضطراب في السيكولوجية إن لم ينجم
بنجاح ؛ فقد يؤدي في السنوات التالية إلى انهيار أو عصاب يحتاج إلى علاج
خاص بالتحليل وإعادة الوصل والأعلاء . . .

* * *

إن هذا العرض الوثيق يدعونا لأن نستنهج كل المخاوف الباطنة التي
تحمّلنا على إساءة الظن بطبيعتنا . فهذه غرائزنا تظهر ظهوراً متساوياً .
وها نحن أولاء نبعث أكثر من مرة خلال رحلة النماء التي نجتازها . وكل
بعث يحمل لنا تجديدًا أكيدا . وإذن فالتعبير السويّ عن الغريزة التي
تؤدي دورها لن يحول بين النفس وفضائلها . بل هو على العكس يمكنها
من هذه الفضائل . لأن هناك غريزة أخرى سيأتي دورها الذي هو في
حقيقته تنمة لعمل سابقتها . . فغريزة الجنس - مثلاً - تظهر في سنّ معينة .
والتعبير السديد عنها يقتضينا أن نتجاوب تجاوباً طاهراً نظيفاً مع الفتاة
التي نحبها . وستزورنا بعد ذلك في سنّ تالية غريزة أخرى . كغريزة
الأمومة بالنسبة للفتاة . فإذا جاءت بعد وقد استوفت الغريزة السابقة حظها
من التعبير والتحقيق فإن عواطفها ستتحول تلقائياً نحو الغريزة الجديدة

وتضع نفسها في خدمتها . بل وتندمج فيها وتتخلق عواطف الحب جميعا حول الحياة الزوجية وتضيء كالمصابيح حياة الأسرة بما فيها من أبوة وأُمومة - والويل لنا حين تجيء غريزة ؛ فتجد سابقتها في قتال دام حول حقوقها . أو تجدها وقد أعياها الصراع ولوى زمامها السكبت قد تركت فعلها الخاص بها يتربص بنا الدوائر ، ويقطع الطريق على الغريزة لوافدة . وبهذا تقف عند هذه المرحلة من حياتنا . ولقد يبلغ أحدنا سن الثمانين ، ومع هذا يظل مراهق التفكير . مراهق الشعور . .

ولقائل أن يقول . هناك كثيرون ممن ممحوا لغرائزهم الجنسية في شبابهم بما تشاء وأكثر . . ثم تزوجوا فما عرفوا للزوجية حرمة ، ولا وجدوا للعبة سييلا . . ؟

ونرد على هذا القول . بأن هؤلاء هم أيضاً ضحايا السكبت . . ذلك أن التعبير عن الغريزة الجنسية لا يكون بالعريضة ، والمروق من الاحساس الخلقى . وإلاّ فرّ فاعل هذا من كبت إلى كبت . . فالغريزة الجنسية جزء من طبيعتنا ، والاحساس الخلقى كذلك جزء من طبيعتنا . . أجل ، إنه كالجنس ، وكالمقاتلة ، وكالخوف . وكما أن إسرافنا في الاستجابة للاحساس الخلقى يفضى إلى كبت انفعالاتنا الجنسية ، كذلك إسرافنا في الاستجابة لغريزة الجنس يفضى إلى كبت إحساسنا الخلقى . . وكلاهما تعطيل للحياة ودمار

وإذن فالسبيل الحق هو - تحقيق الذات ، أى التعبير الفاضل المتناغم عن كافة ميولها الأساسية . وسنتحدث عن طريقة هذا التعبير في الفصل القادم إن شاء الله . ولكن دعونا الآن نرسم صورة كالحة بيد أنها صادقة

لآثار الكبت في أخلاقنا وفي سلوك مجتمعنا .

وقد يسأل سائل : - هل في المجتمع المصري كبت . . ؟ ونجيب على هذا السؤال بسؤال آخر هو : - ما نوع المجتمع المصري .. هل هو مجتمع انفصالي . . أم مجتمع اختلاطي . . ؟ ؟

وبمثل هذا يسأل عن كل المجتمعات التي تجاورنا كالعراق والحجاز واليمن وسوريا . . ولا أحسبني بحاجة إلى التدليل على أن هذه المجتمعات كلها مجتمعات انفصالية - وهذه الثارات التي نراها في المدن لا يمكن أن نخدعنا عن الحقيقة الماثلة في صعيد مصر وريفها . . إن الاختلاط في القرية المصرية من حظ فقرائها ودهماءها ورعاها .. أما الأسر الكريمة الكبيرة كما تنعت نفسها ، وكذلك الأسر الوسطى التي تحاول التشبه بها . فلا اختلاط عندها عمل مسقط للمروءة .. !!! فإذا ولينا وجوهنا شطر الوجه القبلي وجدنا حجاباً أصدق ما يوصف به أنه حجاب الأساطير . . وفي المدن انفلتت من القيود الظالمة أقلية ضئيلة لا تستطيع أن تنفي عن مجتمعنا صفة الانفصالية وسمتها . كما أن كثرة من هذه الأقلية أساءت إلى الاختلاط بما سلكته من إباحية ، وما اقترفته من تهتك . .

فمجتمعنا إذن مجتمع انفصالي ، وبالتالي فهو مجتمع يشيع فيه الكبت ، وما يستتبع الكبت من آثار .

والآن ؛ ما الآثار التي يخلقها الكبت ويفضي إليها . . ؟

إنها كثيرة وخطيرة نبصر منها دائماً

أ - عشق الذات أو العادة السرية

ب - عشق للثل ، أو الشذوذ الجنسي

ج - أمراض النفس ، كالقلق ، والعصاب ، والانهيار ، والجنون ..
إن عشق الذات يروج بين شبابنا رواجاً وبيلاً وقبل المضي في هذا
الحديث أعود فأؤكد للمحافظين الحجولين أن ليس في حديثنا الصريح
هذا ما يجرح حياءهم ، وإن كان هذا النوع من الحياء لا يستحق مبالاة
ولا يستأهل اهتماماً - إنه من ذلك الحياء الذي عبر عنه مؤلف
« رواية بلا بطل » إذ يقول على لسان أحد أشخاص روايته :

- « إن سيدتي المركيزة تستحي أن تلفظ كلمة سراويل مع أنها
تراها كل ليلة على أجسام الرجال من الجيران الذين يهبون من نومهم
مدعورين ويأتون ليفضوا عراكتها مع سيدى المركيز » . . . ؟
أجل ، وما أكثر الذين يشمرون من الصراحة التي يتناول بها العلم
وقائع الجنس ، مع أنهم فارقون في مشكلاتها إلى الأذقان . .
قلنا إن عشق الذات ، أو العادة السرية في رواج عظيم بين الشباب
من مختلف الأوساط والطوائف .

ومن بين - ٢٠٠ - طالب ، وجدنا - ١٧٥ - طالباً يمارسونها بانتظام ..
ومن ال - ١٧٥ - وجدنا ، - ٨٥ - يأتونها كل يوم مرة ، أو مرتين ،
وأحياناً في الفصل أثناء تلقي الدروس . . .

ومن هؤلاء ال - ٨٥ - الذين يبعثون قواهم ، ويهرقون على الأرض
ماء الحياة ، وجدنا - ٤٥ - من متوسطي الحال ذوى التغذية العادية . .
أى أنهم لا يستطيعون تعويض ما يفقدونه كل يوم من دمائهم وأعمارهم ..
ولقد أجرينا نفس الاختبار في أوساط العمال ؛ فاستخلصنا الأرقام التالية :
من بين - ١٥٠ - عاملاً ، وجدنا - ٥٥ - يمارسونها بانتظام وكلهم
أصحاب مستوى غذائي ردي

وقد لا حظنا أن ممارسة هذه العادة بين العمال أضعف منها بين الطلاب . . ولما تعقبنا أسباب ذلك وجدناها متمثلة في المخدرات . . إنها أقرب منا لا للعامل منها إلى الطالب . وفي غيوبتها اللذيذة والمسمومة يسرى أكثر العمال الذين لم يتزوجوا عن أنفسهم . ويفصحون عن كبتهم . . وسبب آخر هام ، هو سهولة الاتصال الجنسي المحظور في الأحياء الشعبية التي يسكنها العمال ، وجرأتهم أكثر من الطلاب على ارتياد بيوت البغاء السري التي يجيدون معرفتها ، بل ويشترك بعضهم أحياناً في إدارتها . .

فمثلاً - من هؤلاء الـ ١٥٠ - عاملاً الذين وضعناهم تحت عين الإحصاء . ويلاحظ أنهم جميعاً من غير المتزوجين وجدنا - ٨٥ - عاملاً لهم نشاط جنسي محظور . مع نساء متزوجات ، وفتيات أبكار . منهم - ١٥ - يتركون هذا الأمر للصدفة . . وبقيتهم وهم - ٧٠ - يرسومون له الخطط ، ويجعلون من هذا النشاط عادة ثابتة وسلوكاً دائماً . . ولقد تعقبنا عشق الذات هذا ، أو العادة السرية كما يسميها الناس بين المتزوجين - ولم يكن بوسعنا أن نقص أثرها في أكثر من - ٢٠ - زوجاً ؛ فوجدنا ما يأتي :

٣ - يمارسونها في الحالات التي لا تسمح بمضاجعة الزوجة ، كأن تكون في مرض طال أمره ، أو يكون أحد الزوجين على سفر بعيد . .

٥ - يمارسونها باستمرار معتذرين عنها بأنها عادة تشبث بهم من سن المراهقة والبلوغ . ولم يعد في وسعهم نسيانها . .

ولقد يضحك من هذا الإحصاء المتواضع أولئك الذين تعودوا أن يطالعوا الإحصاءات ذوات الأرقام الطويلة التي تنتظم الآلاف والملايين . . ولكن عذرنا ، أنه مجهود فردي . . ومجال الإحصاء والبحث كما

يرون شائك ودقيق . ثم إننا لم نهتم أثناء بحثنا بهذا الموضوع إلا بالوصول إلى إحصاء رمزي يشير إلى الحالة دون أن يستوعبها . وحسبنا أننا حرصنا أبلغ الحرص على التأكد من صدق النتيجة في جميع النماذج التي كانت موضوع البحث والإحصاء . .

والآن ، ننتقل إلى مرض آخر وييل يشعره الكبت وينشر سواته .
ذلكم هو الانحراف

ولكن قبل هذا نريد أن ندعم في وعي القارئ قضيتين هامتين :
— أولاها — أن الكبت موجود فعلا في مجتمعنا رغم المظاهر الخادعة التي نجدها ونراها . إنه موجود في دمائنا وأعصابنا . وهو تركة القرون الغابرة لنا جميعاً . والكبت الجنسي بصفة خاصة لا يزال يملأ وعينا ، ومشاعر الحجاب ونظام الحريم لا تزال ترهق وجداناتنا — ولا يزال كثيرون من المتحررين يجدون حرجا وحياء إذا هم زاملوا في الطريق العام زوجاتهم أو أخواتهم ، أو حتى أمهاتهم . .

وهناك حجاب نفسي متسدل على عواطف شبابنا . حتى أولئك الذين ينشئون في أسر متحررة . . ولا تزال هذه الكلمات — « العيب . . . التقاليد . . الحرام » وحوشاً تفترس حرياتنا وسكينة نفوسنا

القضية الثانية — هي أن الانحراف لا يكمن خطره في تدمير أخلاق ضحيته وحسب ، بل ويهدد سلامة الأمة كلها . . أجل يهدد سلامة الأمة من وجوه كثيرة منها أمنها الدولي ، ومصالحها السياسية .

ولقد اكتشفت أمريكا بعد الحرب أن جميع الأمريكان الذين عملوا لحساب الجاسوسية الألمانية — إلا قليلا منهم — كانوا من المرضى بالانحراف

الجنسى مما جعلها تعنى بتطهير وظائفها الهامة من هؤلاء المصايين...، وقد تشير هذه النقطة سؤالاً هو :

— من أين لبلاد كالولايات المتحدة مثل هذا السوء وليس بها كبت ولا حجاب... ؟

والجواب : بل هنالك كبت محقق . ، ذلك أن الكبت كما ذكرنا من قبل لا يكون بقهر الغريزة الجنسية فحسب . ، بل ويكون بقهر الحاسة الخلقية أيضاً . . ولقد كبت المجتمع الأمريكى الحاسة الخلقية حين ترك غرائزه الجنسية تقطع طريق الشهوات عدواً ووثباً . ويصور هذا الانطلاق المسعور « شاهد من أهلها » — تلك هى الكاتبة اللبقة . والسيدة الأمريكية الفاضلة — مرجريت باننج — التى كتبت فى مقال واسع نشرته لها مجلة المختار عام — ١٩٤٧ — فقالت :

— « .. نحن نعلم أيضاً أنه تسجل فى الولايات المتحدة أسماء ... ر. ر. ه. أم لا زوج لها فى كل سنة . . ، وأن كثيراً من أمتهن لا تسجل أسماءهن لأنهن يحدن من المال أو الجاه ما يعينهن على التخلص من تسجيل أسمائهن ، وأن كثيراً من عقود الزواج قد تبين فيها بعداًتها تمت بعد الحمل (من سفاح) وأن أساليب ضبط النسل والأجهاض تمنع ظهور الأمومة فى كثير من العلاقات غير المشروعة . . .

ثم قالت :

— « .. وتدل الأرقام دلالة لا يتطرق إليها الشك على أن هناك عدداً هائلاً من النساء يلجأ إلى من يزاولون الأجهاض . . ومن هؤلاء تفيض أرواح عشرة آلاف فتاة وسيدة فى كل عام على يد الذين يزاولون الأجهاض .. »

إذن فهناك حرية تشبه الفوضى للعلاقات الجنسية ، ومن الضروري أن يقابل هذا كبت للحاسة الخلقية ، وهذا الكبت بدوره يتحول إلى طاقة عمياء توجه الشخصية الإنسانية وجهات ضارة كثيرة ومنها ذلك الانحراف . على أن الإصابات بهذا المرض الخلقى فى بلد كالولايات المتحدة على كثرة سكانه ، لن تبلغ معشار الإصابات فى بلد كالبن على قلة أهله وساكنيه . كما أنها بقايا محتومة للمجتمع الانفصالى القديم فى أمريكا . ومن هنا ندرك أن أكثر المنابع تدققا بهذا المرض هو المجتمع الانفصالى الذى يسدل الحجاب ، ويكبت الغريزة ، ويفرّ من اختلاط كريم فى الضوء . . . إلى سفاح ذميم فى الظلام . . . ! !

والآن ، وبعد أن وضعنا القضيتين السالفتين أمام الأنظار والبصائر نعود إلى عرض الخطر الثانى الذى يضرب به الكبت مجتمعنا فى صميمه . ونبدأ هذا بسؤال نطرحه :

— ماذا يفعل فتى أو فتاة انبثقت فيهما غريزة الجنس ، ودقت الأجراس معلنة عن قدومها ، ومطالبة بحق الضيف من زاد ومأوى . . ؟؟
أندعو الفتى للزواج . . ؟ إن هذا غير ممكن . ؟ فغريزة الجنس تظهر فى الخامسة عشرة تقريبا . والفتى فى هذه السن لا يستطيع أن يعول نفسه ، فضلا عن أن يعول زوجة وولدا . . ثم إن هذه السن المبكرة لا تمكنه من الاختيار الصالح للزوجة المناسبة . والفتاة أيضا ليس من الخير أن تنزوج فى سن مبكرة كالخامسة عشرة . وإن فعلنا وقمنا فى الولايات المتحدة التى يقع فيها المجتمع الهندى بسبب أخذه بهذه العادة مما جعل « نهـرو » يعي كل قواه لمساخة الزواج المبكر الذى يفضى بمعظم الفتيات إلى تلوث ، أو الجنون ، أو الانتحار غرقا فى المياه المقدسة . . ! !

أم هل تشغل وعى الفتى والفتاة بالأحاديث الساحرة الخلابية عن
بابلليون ، وجنكيزخان ، وجان دارك ... ؟ لكن ذلك أيضا عديم الجدوى
فالغريزة لا تخدع . . . وتعليقها يجب أن تتم داخل نطاقها هي ، وتشبع
احتياجاتها هي . . . وبطولة نابليون ، وجنكيزخان ، وجان دارك - قد
تصلح وجبة شهية وطعاما دسما لغريزة المقاتلة ، وليس لغريزة الجنس . . .
هل ندعوها إلى الجوع والصوم . . . ؟ إن ذلك هو الكبت بعينه .
والعل الرسول عليه السلام كان يعبر عن نصيح غير ملائم حين قال : -
« . . من لم يستطع الباءة ؛ فعليه بالصوم فإنه له وجاء » مثل نصيحة
الذي أبداه لأصحاب النخيل حين مرّ بهم وهم يؤثرونه ؛ فقال : -
« لو تركتموه بغير تأبير لصار أكثر وأوفر » فلما تركوه كما أشار الرسول
لم يحمل ولم يشعر ؛ فقال عليه السلام حين أخبروه بهذا - « أنتم أعلم
بشئون دنياكم » . . .

بقي أن يدخل الفتى والفتاة ديرا يترهبان تحت سقفه حيث تعمرها
عدوى الزهد والورع من الأتقياء والناسكين . . ! - لكن ذلك أيضا
بني يغني شيئا ، ولو كان القرار إلى الناسكين نافعا ، لكان أولى بهذا
الانتفاع امرأة نوح وامرأة لوط . .

لقد كانتا تحت سقف واحد مع نبيين صالحين ، ورسولين كريمين ،
تلى عليهما آيات الله ، وتسمعان حفيف أجنحة الملائكة ومع هذا ؛ فقد
ضربهما الله مثلا ذميا وقال في قرآنه الحكيم :

— « . . كانتا تحت عبدن من عبادنا صالحين فخائناهما . . فلم يغنيا
عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

ولعل قائل يقول : - إذن فأنت تريد لهما الفسوق والانحلال . .
وأجيب في طمأنينة وثقة : كلا . ، ولن أدعو إلى الفسوق أبدا
ولن أراه إلا دمارا ووبالا .. وعند ما أعرض مقترحاتي في الفصل الأخير
- كما وعدتكم في مقدمة الكتاب - سترون أننا لا نريد سوى الفضيلة
التألقة الواعية الباقية . ولكن دعونا أولا نبصر العلاقة القائمة بين الكبت
وما يقع بين شبابنا وكهولنا من انحراف .

لقد وضعنا تحت عين الإحصاء الفاحص خمسة وسبعين ومائة من
الذكور . منهم الطالب ، والعامل ، والموظف ، والشاب ، والكهل .
ثم فحصنا إحصاء آخر قوامه ثلاثون سيدة وفتاة . وسأعني القراء من
ذكر النتيجة العددية للحالات المريضة في هذا العدد الذي تضمنه الإحصاءان .
مكتفيا بالكشف عن السبب الحقيقي الذي وجدناه كامنا وراءها وراء
هذه الحالات - وإنه ليتلخص في هذه العبارة « ازدراء الصيحة الأولى » .
ونعني بهذا ، إهمالنا غريزة الجنس عند قدومها . وعدم تهيئة الجو
للمناسبات لاستقبالها . وذلك باتخاذ موقف سلبي يتمثل في إهمالها ، أو موقف
إيجابي يتمثل في محادثتها وكتبتها .

من كان يظن أن تقوم « جاربونيرات » خاصة للمنحرفين . . ؟
ومن كان يظن . . ، ولكن لا ؛ فليس الكتاب سجلا لهذه المثالات
وحسبنا أن تقرر في مثل يقين المرسلين أن الكبت ، هذا الابن الشرعى
لكل مجتمع انقصابى ، هو المسئول الأول عن كل ضلال جنسى
إن الصحف تنشر كل يوم فتونا وألوانا من الفضائح الجنسية ونحن

عمر بها دون أن تقف أمام بواعثها وعوامل التحريض عليها . ونسكتفي بأن نعزو ذلك كله في سذاجة مريحة إلى الاختلاط . .

أصبح هذا . . ؟ - لقد فحصنا في دقة وطول أناة أسباب السلوك الضالّ لحمس عشرة امرأة من اللائي يمارسن البغاء السري . . بعضهن يمارسنه بموافقة للسؤولين من العشيرة والأهل . . وبعضهن يمارسنه خفية ، والأزواج لا يعلمون . . وقد وجدنا من بينهن تسع نسوة نشأن نشأة محافظة ، ولم نجد منهن واحدة كان الاختلاط سبباً في انحرافها . . ليس معنى هذا أننا ننكر أن الاختلاط غير المذهب ، وغير الهادف يشمر بعض المواقفات . ولكننا ننكر ، وننكر بقوة أن يكون المجتمع الانقصالي هو الوعاء الحق للعفة والفضيلة .

ذات مساء ، وفي فضاء واسع يقع في مكان ما بالعباسية علمت أنه مرتع لطلاب اللذة الرخيصة ، رأيت منظراً تناهى في البشاعة والسوء . . وإني لأعلم سلفاً ، أن القراء لن يستطيعوا تصديقه . وأعذرهم في هذا . . رأيت امرأة أسندت ظهرها إلى جدار يسور هذا الفضاء . وقد تحلق حولها ثلاثة وعشرون رجلاً ، زادوا في خمس دقائق إلى ثلاثين . وقفوا جميعاً يتناوبون الخطيئة الجنسية مع تلك المرأة الواحدة لقاء قرشين اثنين . . ولقد اخترت أحد هؤلاء بعد أن قضى وطره وهمّ ليغادر المكان . وأنشأت معه محادثة قصيرة أنقلها الآن بالنص الذي سجلتها به ليلتشد . وكل التعبير الذي سيطرأ عليها هو نقلها من لغة عامية إلى عبارة فصحي .

— أنا — كيف تحمل المرأة كل هذا العذاب . . . ؟

— هو — لو كان عذاباً ما احتملته .

- أنا — ألا يخاف هؤلاء الناس الأمراض السرية . ؟
- هو — هذا شيء يذهل فيه الإنسان عن كل العواقب . . .
- أنا — . . أنت مثلاً لا تخاف على صحتك وشبابك . . ؟
- هو — كن مع الله . . . !!
- أنا — لكن الله في هذه المسائل لا يكون مع أحد . .
- هو — وماذا نصنع .
- أنا — تزوج . .
- هو — بعد أن أطلق قهقهة عالية ، أنا متزوج . .
- أنا — منذ كم . . ؟
- هو — منذ خمسة أعوام . .
- أنا — وماذا — إذن — يلجئك لهذا الطعام الحامض . . ؟
- هو — مزاج . . مزاج . .
- وانهيت المحادثة بعد أن وجدت الكلمة التي أبحث عنها
- مزاج ، مزاج . . (١١)

هذا رجل متزوج . وحتى لو كانت زوجته مستوردة من حديقة الحيوان ؛ فأنها ستكون أوضاً وأنظف من هذه التي رأيتموها ، والتي ولغ فيها من الوالغين . ومع هذا فأن في داخله طاقة خبيثة شريرة رعناء لا يطيب لها الانطلاق إلا في الظلام . . إنها انفعالات كبت كامن في أعماقه ، جاثم على عزمه ، ذلك الذي يسميه — المزاج . .

وإنها لحشود هائلة . . هائلة جداً ، تنتظم من الناس من يحملون هذا المزاج . . هذه الطاقة الثعبانية المظلمة التي سببها لهم كبت قديم أو حديث .

ولكننا لا نعرفهم لأنهم يتوارون عن الأنظار . وكأى من رجل معروف بين قومه بالتقوى والورع ، وكأى من امرأة كذلك ، لم ينكشف «مزاجهما» الخبوء إلا بعد أن أزاح سوء حظهما عنهما الستار . ونحن نشير بهذه الكلمات لحوادث وقعت فعلا ، وملأت الصحف بها أنهاراً وصفحات . . .

وحين تجاوز هذه الآفة التى يشرها الكبت إلى آفة ثلاثة أنجبها نجد نفس الظامة الكبرى التى وجدناها فيما سلف . ونعنى بهذه الآفة أمراض النفس . .

لقد انفتت ثلاثة أشهر محاولا العثور على إحصاء رسمى واحد يكشف عن صلة الأمراض العقلية بالكبت الجنسى ؛ فلم أجد سوى بعض الضحكات الهازئة ، واللفتات الساخرة من الدين كنت أتوجه إليهم برغبى وطلى . وأخيراً لجأت إلى طبيب فاضل يستقبل فى عيادته ضحايا الأمراض النفسية والعصبية ، فأكد لى أن - ٥٠٪ - من الشباب المتردد على عيادته ترجع أمراضهم إلى عقد جنسية . . وأن ٦٥٪ - من الشيوخ الذين جاوزوا سن الأربعين ، ضحايا كبت جنسى قديم . .

ثم قال لى : هناك ظاهرة أوخم من هذا . وهى أن قرابة - ٩٠٪ - من سكان القاهرة مجانين . . وربما نستطيع أن نقيس على القاهرة كافة مدننا وعواصم مديرياتنا . . وقبل أن أتلف على مزيد من الإيضاح استطرد يقول : ذلك أننا نظن أن المجانين هم أولئك الذين استضافهم مستشفى الأمراض العقلية - ولكن لا ؛ فالجنون فنون . والقلق العصبي ،

والانحصار النفسى، وكل اضطراب فى الحياة الانفعالية ، بداية تعسة لجنون
أكيد . . . وقال : إننى فى تقديرى الخاص مطمئن إلى أن أسباب ما أسميه
« المنص الانفعالى » وأيضاً أسباب « الانحراف السلوكى » ترجع فى
مجمعتنا بالذات إلى سببين

(١) - الكبت الجنسى . .

(٢) - الفراغ النفسى . .

ثم قال : إن الكبت . وهو طاقة متمردة ضلت طريقها الصحيح
يجعل من الانفعالات الرديئة لضحاياه عصابات خارجة على القانون ، وعلى
العرف ، وعلى كل شئ له قداسة واحترام . .

الحق أن إغلاق الأبواب على طبيعتنا وسجنها داخل أسوار الحرمان
والكبت ليس عملاً ضاراً فحسب . بل ومفلس أيضاً . . . واقتلاع
غرائزنا الراسخة محاولة ساذجة وخاسرة معاً . وهما هى ذى شهقات باكية ،
وصرخات واشية . تنبعث من أرض المعركة التى أفنى المتصوفون عليها
حياتهم . يوم أعلنوا على غرائزهم حرباً مييدة . ومع ذلك بقيت الطبيعة
الإنسانية ملء نفوسهم تبتدى عن نفسها ، وتعبث عن سلطانها فيما ينجون
به ربهم من ابتهالات وضراعات

فهذا إمام من أئمة التصوف الأجلاء تدركه منيته . ويريد استخلاق
أحد أبنائه ليقود التلاميذ إلى الله . وليجلس على عرش الحب الإلهى مكان
الشيخ الناهب مع الموت فيقول فى هذا المقام : —

أهيم بلىلى ما حيت فأن أمت

أو كل بلىلى من يهيم بها بعدى

ومحدثنا « ابن عجيبة » في كتابه « شرح الحكم » فيقول :

— « كان الشيخ مكين الدين بن الأسمر رضى الله عنه ممن يشهد لهم

الشيخ أبو الحسن بالولاية الكبرى والمكاشفة العظمى . .

» وذات يوم وقف رجل في مجلسه وأنشد

لو كان لى مسعد بالراح يسعدنى — لما انتظرت لشرب الراح إبطارا

الراح شىء شريف أنت شاربه — فاشرب ولو حملتك الراح أوزارا

يا من يلوم على صهباء صافية — خذ الجنان ، ودعنى أسكن النارا

فقال بعض الحاضرين ، وكان من الفقهاء : هذا شعر لا يجوز

إنشاده . . ؛ فقال الشيخ مكين الدين للمنشد : لا تعبأ به فإنه

رجل محجوب . . .

أنظروا . . هذا رجل يتغنى بالكأس ، وبالخمر .

ويقول لعاذله ولأئمه : خذ الجنان ودعنى أسكن النارا . ويصغى إليه

الشيخ مكين الدين وهو الولي الورع الطاهر . . ١ — صحيح أنهم يعبرون

عن هيام سماوى وشعائر روحية سامية . ولكن لماذا لم يجدوا سوى هذه

الكلمات — لى ، والكأس ، والصهباء ، ليلبسوها أشواقهم

الدينية الحارة . . .

إنها الطبيعة التى كبتوها تشرب . لا ، بل تخرج فى جهرة وإعلان . .

ومن عجب أن هذه الأبيات التى تلونهاها . . . التى يتقرب بها الصالحون إلى

الله . . . نظمها رجل يحكم عليه الصالحون بالزندقة والفجور . ذلكم هو

أبونواس . وهكذا تلتقى طبيعة الزاهد التقي بطبيعة الفاجر العتيق

فتختار الطبيعتان كلاماً واحداً تضمنه أشواقها ، وتعبر به عن عشقها
المضطرم المشبوب . ! !

والآن لنقف لحظات سعيدة مع سيد العارفين وسلطان العاشقين
- ابن الفارض - الصوفي الفذ العظيم . إنه يتحدث عن الله فيقول : -
أبرق بدا من جانب الغور لامع - أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
لطلعتها تغنو البیدور ووجهها - له تسجد الأتقار وهي طوالع
سكرت بخمر الحب في حان حبها - وفي خمرة للعاشقين منافع
إذا ما بدت ليلى فكلى أعين - وإن هي ناجتني ؛ فكل مسامع
تجافت جنوبى في الهوى عن مضاجعي - ولما جفتني في هواها المضاجع
مضيت بركب الحسن بين محامل - وهو دج ليلى نورها منه ساطع
وناديت لما أن تبدى جمالها - لعمرك يا جمال ، قلبى قاطع
فل بي إليها يادليل فأننى - ذليل لها في تيه عشقى واقع
لعل من ليلى أفوز بنظرة - لها في فؤاد المسـتهام مواقع
والتذّ فيها بالحديث ويشتنى - غليل غليل في هواها ينازع
ولعلّ الأفصاح عن الطبيعة الإنسانية المكظومة في ابن الفارض يبدو
أكثر تألفاً وإسفاراً في قصيدته التالية :

أدر ذكر من أهوى ولو بمنام - فأن أحاديث الحبيب مدامى
بروحى من أتلقت روحى بحبها - فأن حمى قبل يوم حمى
ومن أجلها طاب افتضاحى ولله لى أطراحى وذلى بعد عزّ مقامى
وفى حلال لى بعد نسكى تهتكى - وخلع عذارى وارتكاب أثامى
أصلى فأشدو حين أتلو بذكرها - وأطرب فى المحراب وهى أمامى

وبالحج إن أحرمت لبيت باسمها — وعنها أرى الأمساك فطر صياحي
ثنت نخلنا كل عطف تهزه — كثية مسك تحت بدر تمام
ولما تلاقينا عشاء وضمنا — سواء سبيلي دارها وخيامي
وملنا كذا شيئاً عن الحيّ حيث لا — رقيب ولا واش بزور كلام
فرشت لها خدي وطاء على الثرى — فقالت لك البشرى بلثم لكلامي
وبتنا كما شاء اقتراحى على المنى — أرى الملك ملكى والزمان غلامى
ما هذا الحشد الهائل من التعبيرات الجنسية التى ملأت شعر رجل
عزّ نظيره فى الطاهرين الأتقياء . . . ؟

إنه صلصلة الكبت ، وزجرجرة الطبيعة الجنسية الثائرة . . . ولقد كان
ابن الفارض من القوة الحارقة بحيث جرد حياته كلها من مطالب الجنس .
ولكن هل استطاع أن يجرّدها من مشاعر الجنس واعتباطاته . . . ؟
إن شعره المعذب المقيم يقول ؛ لا . . .

وإن طبيعته التى عجزت عن أن تحقق ذاتها فى مجال العمل ، لم تعجز
عن أن تحقّقها فى مجال القول . ولما كانت حياة ابن الفارض كلها مناجاة
لا تنقطع مع الله ؛ فقد تفلّنت طبيعته المصفدة خلال صلاته ونجواه على النحو
الذى رأينا ، والذى انتظم هذه الكلمات المتوهجة

— الحمر ، والحن ، والبراقع ، والعشق ، وهو دج ليلي ، واللذة .
والافتضاح ، والتهتك ، واهتزاز الخصور . ، والتلاقي عشية وراء الحيام ،
والنجاة من العوادل والرقباء . . . !!

إن مقدرة الطبيعة الإنسانية على الأفصاح عن نفسها رغم الأسوار
الشاهقة التى أقامها فى وجهها عمالقة فولاذيون من أمثال ابن الفارض ،

لدرس مفيد للذين يحسبون أنهم قادرون عليها ، والذين يتوسلون بالكبت
لخنق صوتها وإهدار حقها . .

وبعد أن عرضنا في إيجاز مشكلتي العيش والجنس ، ورأينا أثرهما في تكوين
الأخلاق وتجويد السلوك - تنتقل إلى مشكلة ثالثة متصلة بهما ، وناجمة
عنهما ، تلك هي :

مشكلة الفراغ . .

قلنا فيما سبق إننا نرت اليوم مجتمعاً عاطلاً . وهذه حقيقة ليس من
صالحنا ، وأيضاً ليس من حقنا أن نمارى فيها ونجادل عنها .
ونحن لا نعى بكون المجتمع عاطلاً - أنه لا يعمل لياكل . . بل نعى
أنه لا يعمل ليحيا . . وكلتا البطالتين جاثمة علينا - البطالة المادية .
والبطالة الأدبية .

فالقرون الغابرة التي عشنا خلالها من زمان صحيح حرمتنا من الفرص
التي تتيح لأيدينا أن تعمل ، ولعقولنا أن تفكر ، ولأنسانيتنا أن تزدهر
وتترعرع . ، ومن ثم تركت لنا فراغاً في نفوسنا ، وفراغاً في عقولنا ،
وفراغاً في أوقاتنا - ومجموع هذه الألوان من الفراغ يشبه هاوية تقف
جميعاً على حافتها

والفراغ النفسى كالفراغ العقلى ، كالفراغ الزمنى - كلها شفرات حادة
تخلق الأخلاق كما تخلق الشفرة الشعر - ولكننا نظن ، ونتوسم في ظننا
الصدق ، أن الفراغ النفسى هو المنبع الذى يصب فى الرافدين الآخرين .
فراغ العقل وفراغ الوقت .

والفراغ النفسى ثمرة محتومة لمشكلتى العيش والجنس فإذا اضطرب
توزيع الثروة فى مجتمع "ما اضطراباً يحرمه من العدل . . . أو نصبت
الثروة نضوباً يحرمه من الكفاية حدث فى نفوس الأفراد تصدع وفراغ .

ونحن اليوم نرث مجتمعاً كان فيه قوم يأكلون الجوع . وآخرون
يحترون التخمّة . . . وطبعى أن يسقط كلا الفريقين فى هاوية الفراغ
أما الأولون فلما يجرّء الترف عادة من سفه ومجون . والآخرون لما يخلقه
الحرمان من تعاسة وقلق وتحفز للعدوان

إن للروح غذاء تموت جوعاً إذا لم تدركه فى وجبات منتظمة ومطرودة
فقراءة كتاب ممتع ، والاشتراك فى ناد اجتماعى ، وشهود مسرحية جيدة .
والأصغاء إلى موسيقى باعثة ، وتناول العشاء فى مطعم أنيق مع الأصدقاء ،
وقضاء عطلة الأسبوع فى نزهة سارة - كل هذه الضرورات التى لا تزال
نراها لهواً وعبثاً . هى ومثيلاتها ، الغذاء الشهى "الفنى" للروح الإنسانية
كى تزدهر وتبقى . . . وما لم تحلّ مشكلة العيش بالنسبة للناس ؛ فإنهم
لن يستطيعوا أن يقدموا لأرواحهم غذاءها . وعندئذ تتحول تلك
الأرواح المشرقة إلى خرائب تزار فى فضائها المظلم ربح القلق ، وتعوى
فى خوائها الموحش نزوات العريضة والفجور ، أو تترنح على أرضها اليابسة
ممسات التواكل والعجز والضمور . . .

أرايتم هؤلاء الذين تعجّ بهم المقاهى ، والشوارع ، والحانات -
لا يعرفون ماذا يريدون . . . ؟ - إهم ضحايا الفراغ النفسى
أرايتم أولئك الذين تزخر بهم موائد القمار فى الأندية الكبيرة ،

وفي المقاهي البلدية حيث يزدحم حولها العمال ازدحاماً رهيباً . . . ؟ -
إنهم ضحايا الفراغ النفسي

أتعرفون لماذا لا يبرز فينا كثير من الشعراء ، ومن العلماء ، ومن
الأدباء ، ومن الفنانين ، مع أننا أول أمة أخرجت للناس في جميع الأرض
شعراً ، وأدباً ، وعلماً ، وفناً . . . ؟ - سلوا عن هذا الفراغ النفسي . . . !
إننا شعب ، أكثر كلماته هي « أف » وهذه الأف تعبر عن قلقه وضيق
نفسه ودوخان أعصابه - وإن كثيراً جداً من المواقف التي يرتكبها الناس
لتنبع من هذا الفراغ النفسي الوخيم ، ومع هذا فكم من وعاظنا ، والمهتمين
بشئون الدين والأخلاق حدثونا عنه أو تلمسوا له العلاج . . . ؟ ؟ -
لقد تحدثنا مع - ٣٠ - شخصاً يدمنون القمار . ، و - ٤٥ -
يتعاطون المخدرات .

فمن الثلاثين مقامراً - وجدنا واحداً وعشرين نعتقد حسب تحليلنا
لأحاديثهم معنا - أن زلتهم الأولى التي استمرأوا بعدها لعب الييسر نجمت
عن شعور جائم بالضيق ، و « القرف » على حد تعبيرهم - وهذا هو
الفراغ النفسي . . .

ومن خمسة والأربعين الذين يتعاطون المخدرات ، وجدنا اثنين وثلاثين
استنتجنا من الحديث معهم أن الفراغ النفسي هو المسئول الأول عن مضيقهم
في الطريق المظلم . . هذه أنفس بريئة فيها جميعاً ومض من روح الله ونوره
بين أنها لم تجد فرصة العمل الشريف والفراغ البديل ؛ فانطقت كحاطب
ليل لا تلوى على شيء ، وأسلمت مستقبلها للدمر ومصيرها للبورار .
ونحن شعب علم لبشرية كيف تحرك شفاهاها وتنطق . . ومع هذا فإن

الفراغ العقلي يوشك أن يقتلنا جوعاً ١١٠ - وقبل أن نتحدث عن صلة الثقافة بالأخلاق ، دعونا نؤكد لكم أن حرمان هذه الأمة من حياة فكرية نامية طليقة ، كان سياسة مرسومة لجميع الفاتحين الذين وطئوا أرضها من الأثيوبيين إلى أسرة محمد علي . .

ذلك أن آباءنا البواسل كانوا أول من عرف قيمة الكلمة الملفوظة ، والكلمة المسطورة . . وكان الطفل لا يكاد يبين حتى يلقي عليه أبوه وصية الملك « خيتي » :-

« كن بارعا في قولك ، تكن قويا . .

« إن اللسان سيف بتار . .

« والكلمة الرشيدة الجريئة تساوي جيشا كاملا » . .

وجاء الغزاة قافلة وراء قافلة ؛ فوجدوا شعبا يقدس الكلمة الرشيدة الجريئة ؛ فكان طبيعيا أن يحرموه منها ويحولوا بينه وبينها . . وهكذا نرث اليوم مجتمعا أضناه فراغ عقلي طال أمده ، واستطال ليله ، فآثر ذلك في سلوكه تأثيرا بعيدا . .

إنها لحكمة صادقة تلك التي تقول : « قل لي ما ذا تقرأ ، أقل لك من أنت » . . ولقد جعل الأنجيل من قرائه مسيحيين . ، وجعل القرآن من قرائه مسلمين . ، وأحال كتاب « كهاحي » قراءه إلى سفاكين وقرأ « إبراهيم لسكولان » الصبي النفس الأجير سطورا من كتاب وقع في يده صدفة ؛ فخافت منه « إبراهيم لسكولان » محرر العبيد . والإنسان الكامل « أو الذي وقف على عتبة الكمال . .

والآن ؛ فاسألوا أنفسكم : ماذا تقرأون . وماذا يقرأ شبابنا . . ؟

وأحسبكم لا تعرفون . .

لقد ألقينا هذا السؤال على - ١٩٠ - مواطنا منهم عشرون عاملا
وثلاثون موظفا - أما الآخرون وعددهم - ١٤٠ - فقد اخترناهم من
طلاب المدارس الثانوية والجامعات ؛ وهذه هي النتيجة :

(١) - الموظفون الثلاثون . .

- ٣ - لا يقرأون شيئا قط . ، - ٢٣ - يقرأون الصحف . ، - ٣ -
يقرأون كتباً دينية . ، - ١ - يقرأ ثقافة عامة .

(٢) - العمال العشرون -

- ١ - يقرأ كتب الأدب والقصص ويريد أن يكون كاتباً شهيراً . .
- ٦ - يقرأون الروايات البوليسية والغرامية . ، - ٩ - أميون . ، - ٤ -
لا يقرأون شيئاً

(٣) - الـ ١٤٠ طالبا -

- ٥٤ - يقرأون الروايات البوليسية ، والغرامية التافهة وقد تردد اسم
« ارسين لوبين » على شفاه خمسة وأربعين من هؤلاء . ، - ٢٦ - يكتفون بمطالعة
بعض المجلات والصحف . ، - ٣٠ - يقرأون الكتب الدينية وحدها .
- ٢٠ - لا يقرأون سوى الكتب المدرسية . ، - ٣ - يقرءون كتب
الأدب . ، - ٧ - يطالعون متنوعات رفيعة في الثقافة العامة .

لو اطردت هذه النسبة في صفوف شبابنا جميعا لكانت كارثة . . كارثة
خلقية قبل أن تكون كارثة اجتماعية ! فالإنسان المثقف بأفضل معاني هذه
الكلمة هو اليوم أقرب الناس إلى العصمة والكمال . . ولقد حدثني
صديق زار ■ سويسرا ■ وأثناء مقامه بها قرأ في إحدى مجلاتها العلمية

إحصاء أجرته مدرسة أطفال حول مطالعات تلاميذها خارج المدرسة .
فوجدت من بين هؤلاء الذين لا تزيد أعمارهم عن السابعة - خمسة ، يعرفون
إينشتاين . ويقرأون لشكسبير . ويرنارد شو . . . !

إني أظن ، ولا أحسب ظني إلا صادقا - أن من بين بعض المتعلمين
عندنا من ليس متأكدا مما إذا كان « انشتاين » هذا شيء يباع عند
الطار ، أم عند القصاب . .

ومع هذا ؛ فإن حوافز الرجاء أوفر من دواعي اليأس ما دام فينا
من يبحثون عن الحقيقة وينشرون أريجها .

إن النفس الممتلئة بالآمال الجريئة والأفكار المضيئة هي خير حقل
تدعرع فيه فضائل السلوك ومكارم الأخلاق . وكما قلت لكم من قبل ،
إنه لا يكفي أن نعمل لنا كل . بل يجب أن نعمل لنحيا . . أي أن البطالة
الضارة ليست هي بطالة اليد من حرفة وعمل ؛ فحسب . بل هي مع هذا ،
وربما قبل هذا - بطالة النفس . وبطالة العقل .

إن الأمر يكاد يكون كما قال « ديوجينيس » - الخير الوحيد هو المعرفة .
والشر الوحيد هو الجهل - والمعرفة الصافية السديدة قلما تنأى لنفس
منقسمة على ذاتها بسبب الكبت الذي يجعل من صاحبه كما قلنا حربياً أهلية
هذه رحلة عابرة وسريعة حول المباحات الخلقية التي تنجم عن انفصالية
المجتمع . . وخلال هذه الرحلة ندرك لأول مرة المعنى الحق لقول رسول
الله عليه السلام : - « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء »
ذلك أن سوء تقديرنا لمنزلة المرأة ، وعدم قيام العلاقة بين الجنسين

على أساس من المشاركة والصدقة خليقان بأن يدمرا المجتمع ، ويجعلا
بعضه لبعض فتنة . .

أجل . ليس هناك ما يمزق المجتمع مثل هذا الحاجز الغليظ الذي
يفصل بين ذكوره وأنائه ، ويملاً نفوس كل من الجنسين بمشاعر التطلع
والتربص . ويقود السلوك إلى منحنيات جانبية مظلمة على النحو الذي
سردناه في إنجاز شديد

والآن نستطيع أن نمضى شطر الفصل الأخير من الكتاب لنلاقى
وجهة نظر في الإصلاح الخلقى . وإنها نتيجة لتلك المقدمات التي انتظمها
العرض الذي سبق . . والذي نرجو أن يكون قد كشف عن جوانب العلة .
وأحسن تشخيصها

أقدم لكم الفضيلة..

د لكي يصل الإنسان إلى مطالع
الضوء ، لابد له من اجتياز السحاب ■
- جوير -

في هذا الفصل

الدين . بلا أكاذيب . .
الصحة ، والحرية ، والعلم
للعرفه الجنسية
الاختلاط . فلسفة ومنهاج
للساواة . أو المباراة التكافؤ
احترام الحياة
وأخيرا . . من يحكمكم يا غلام !

يحتاج الطبيب إلى وقت فسيح لكي يشخص المرض ، ويضع أنامله
البصيرة البارّة على موطن الداء . ولكنه حين يهيم بكتابة بطاقة العلاج
لا يستغرق ذلك منه سوى لحظات معدودات . .

وصاحبكم لا يزعم لنفسه أنه طبيب . ولكن التأليف ، سيما منه ذلك
الذي ينتظم نقداً موضوعياً للمساوي ، ومحاولات إنشائية للبناء - يجعل
موقف المؤلف كثير الشبه بموقف الطبيب . . فإذا كنا قد بذلنا أكثر
الوقت في تشخيص العلة ؛ فارجو أن ننفق أقله في تحرير بطاقة الدواء

وينبغي أن يكون مفهوماً أننا لا نقدم عقائد تطالب القراء بالأذعان
لها . وإنما نقدم مقترحات نرجو أن نصيب بها شاكلة الحق . ولن شاء
من القراء أن يقبل عليها ، أو يعرض عنها . بيد أننا نودّ للمقبلين أن
يقبلوا عن بينة ، وللمعرضين أن يعرضوا عن بينة . أما الأقبال عن محاكاة
والأعراض عن هوى ؛ فذلك ما لا ينشرح له قلب الله . .

وهذه الآراء التي نرجيها ثمرة رحلتنا عبر الفصول الثلاثة السابقة .
ونحن لا نزعم أن آراءنا هذه ستحمل الناس على أجنحتها وتنقلهم إلى حياة
أفضل . ذلك أن شيئاً واحداً وواحداً فقط ، هو القادر على نقل الناس
إلى الأرض الموعودة والحياة المحيية ، ألا وإياه - العزم . .
والناس في بلادنا إذا لم يجتازوا الطريق إلى الفضيلة سيراً على أقدامهم ؛
فلن يجدوا لهذه الأقدام بديلاً . ومن الضروري أن تؤمن بأن لدى جميع
الناس قدرة على حيازة الفضيلة . ولكن هذه القدرة وحدها غير كافية
حتى يتعاون معها عاملان هامين . أحدهما فردي ، والآخر جماعي .
أما الأول ، ويقع على كاهل الفرد ؛ فهو تدريب هذه القدرة تدريباً

موصولا بحيث تظل عاملة أو على أهبة الاستعداد للعمل . .

وأما الثانى ، ويقع على عاتق المجتمع ؛ فهو أن يتيح لهذه القدرة ظروف العمل المثمر. ويزيح من طريقها كل المخاوف والأساطير والعقبات. .
ولست أزكى هذا الكتاب حين أقول إنه أدّى عن المجتمع كثيراً من واجبه حيال مشكلة الأخلاق بما قدم من فصول . . وهو الآن ، وعلى هذه الصفحات يريد أن يتم الأمر الذى بدأ . ويرسم للفرد وللجماعة أسلوباً للسلوك يحسبه فاضلاً وسديداً

ومرة أخرى. لن يكون هذا الجزء من الكتاب سجلاً حافلاً بالمسائل والتفصيلات . بل بطاقة مركزة تشير فيها إلى الخطوات الأساسية . والقواعد الكلية التى تتصور فى الأخذ بها خلاصنا وسعادتنا - تاركين الأفاضة فى بحثها ؛ والاتساع فى تطبيقها إلى الدين يعينهم الأمر من الأفراد ، والمجتمع . والدولة :

وهناك أربعة أزياء للتربية لا بد لمجتمعنا من التدثر بها جميعا لكي
بصير على خلق عظيم

(أ) التربية الدينية . .

(ب) التربية الجنسية . .

(ج) التربية السياسية . .

(د) التربية الثقافية . .

وتحت كل من هذه الأنواع الأربعة مضامين وفروع . ولست أدري
إن كان الأفضل لطريقة البحث أن يكون حديثنا مباشراً عن هذه الأصول
أم عن مضامينها وأجزائها ؟

على أية حال ؛ فإن ظروفنا ، تحيط بي الآن وأنا أكتب هذه الصفحات
لأدفع بها إلى المطبعة - تدعوني لاختيار الطريقة الثانية بعد أن
تبنت بالنسبة للظروف التي أومأت إليها أكثر سهولة ويسرا . . وإذن ؛
فلتأخذ هذه الفروع مكان أصولها ، وليكن حديثنا عنها مباشرا . إنها -
كما نراها - الأسباب التي تستطيع أن تساعدنا على النهوض الخلق
والصعود إلى حياة حافلة بالمعرفة والفضيلة والبهجة .

١ - الدين ، بحر أظن . .

مارأيت كالدين وسيلة إذا أسى استعمالها ، دمرت حياة الناس تدميرا
ولقد رأينا عبر التاريخ جماعات بشرية جعل الدين من حياتها فردوسا
يتلأأ . ، وجماعات أخرى جعل الدين نفسه من حياتها جحما وأطلالا .
فلماذا ، وكيف حدث ذلك . . ؟

أحسب الأمر لا يحتاج إلى تفسير ؛ فالدين . هذه القوة المقدسة التي
لم تدعن البشرية طول حياتها لسلطان كما أذعنت لسلطانه - هذا الدين
كالماء يتلون بلون إنائه . .

حين يكون وعاءه بشرية فاهمة متقدمة متطورة ، تنحاز قوة الدين
لجانها ، ويصير الدين أدواتها لتوكيد وعيها ، وتزكية تقدمها ، ودعم
خطوات تطورها . .

أما إذا كان الوعاء قافها ، ومملوءا بالأدران والصدأ ؛ فإن هذا
السائل الجميل النضر الذي يحتويه يتحول إلى ماء آسن ، وسائل عفن عكن
لا يرد ظمأ ، ولا يرعرع حياة . .

ونحن اليوم نرث مجتمعاً مختلط صدأه بالدين فعكر بهاءه . وأمسى
الدين فينا بضاعة مزجاة . نصفه حق ، ونصفه باطل وأكاذيب .
فإذا نفعل . . ؟ أنعزل الدين عنا ونلقى به خارج الأسوار . . ؟
إن مجرد التفكير في هذا لهماقة جليلة . .

وإن خيراً من الثروة الفارغة حول هذه المحاولة البائسة ، أن نهاجم
بكل قوانا الإضافات الكاذبة والتفسيرات الضالة التي فرضت نفسها على الدين
وعلى الناس . وهذا موضوع متراحب ثم إنه ليس موضوع كتابنا ؛ فلنلق
عليه نظرة من الزاوية التي تصله بموضوع البحث الذي هو - أخلاقنا . .
لقد رأينا في الصفحات السالفة كيف يمكن أن يعوق الدين - إذا
حرف عن حقيقته - تقدمنا وسعيننا نحو الاكتمال الخلقى . وقلنا الآن أن
عزل الدين عن مجتمعنا عمل فاشل بقدر ما هو أحق . وليس في حياة
الناس كلها ما هو أكثر اتصالاً بالدين وتأثراً به من السلوك . .
فكيف نتيح لسلوكنا أن ينتفع بهذه الصلة الوثقى . ؟ - أجل كيف نجعل
الدين - كما أراد له ربه أن يكون - عوناً للناس على تعلية سلوكهم .
وتهذيب أخلاقهم . وازدهار شخصياتهم . . ؟
السبيل لهذا هو : الدين بلا أكاذيب . .

لن نظفر هذه الأمة بأخلاق الأقوياء الشرفاء حتى تعود فتتلقى دينها
من وحى الله . لا من أفواه الشياطين . وحق تفسير الدين بالعلم ، بدلاً من
تفسير العلم بالدين . . لقد جاء الدين ليسعد الناس لا ليشقيهم ، فكل
ما يكتشفه العلم من أسباب سعادتهم ، وعوامل ترقيتهم يتقبله الدين
بقبول حسن . .

وكذلك جاء الدين ليخاطب بشرا ، لا آلهة ؛ فكل دعوة من العلم للاعتراف بواقعية هذه البشرية بما تحمله من طبائع ورغبات - يضعها الدين موضع التقدير والاحترام . فتآخى العلم والدين إذن ضرورى لأنشاء سلوك فاضل وخلق سوى يسير على نهج من الاستقامة والخير . وليس لهذا التآخى من سبيل سوى أن نعيد النظر فى طريقة فهمنا للدين . ونكتفى الآن بعرض أمر له أهميته الأكيدة فى تجديد فهمنا للدين . وبالتالي فى دعم الأخوة القائمة بين الدين والعلم . ذلك هو أن تفرق فى الدين بين ما هو قاعدة ، وما هو شعار .

إن فى النصوص الدينية شعارات ، وفيها قواعد . أما القاعدة فيتساوى فيها منطوق النص ومفهومه - بيد أن الشعار كثيراً ما يكون بين منطوقه ومفهومه تفاوت بعيد جد بعيد . . والشعار يعتمد على المبالغة . أما القاعدة ؛ فلا

فإذا قال القرآن مثلاً - « لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » فهذه قاعدة يتعاون فيها المنطوق والمفهوم على تشريع حكم سىظل خالداً على الأيام وإذا قال - « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فهذا شعار . والقـرآن قطعاً لا يعنى المعنى الحرفى لمنطوق الآية الكريمة . وإلا عجـزنا عن التوفيق بين هذا المعنى الحرفى ، وبين مئات الملايين من البشر ماتت جوعاً أثناء المرحلة الطويلة لتاريخ الإنسان . إنها ومثلها من النصوص المشابهة شعارات . الغرض منها صيانة قاعدة أخرى هى فى هذه المناسبة - الإيمان المطلق بالله . .

إن الشعار دائماً يهدف إلى تجديد شباب الإيمان بالفكرة التى يراد

عن الناس أن يؤمنوا بها . ويريد أن يحتفظ بدرجة الحماس والحرارة
في المنسوب الملائم المطلوب . وليس من وظائفه قط التقنين والتشريع .
فالرسول عليه السلام حين يقول : - « من حلف بغير الله ؛ فقد
أشرك » .. لا يريد مفهوم هذه الكلمات . بدليل أنه هو نفسه قد حلف
بغير الله حين قال عن الرجل الذي جاء يسأله عن الجنة ويعده بأن يؤدي
فرائض الدين وحدها دون أن يزيد - « أفلح وأبيه إن صدق » ..
لقد أراد الرسول بالحديث الأول - من حلف بغير الله فقد أشرك -
أن يكون شعاراً يذكي نار العداوة بين الأيمان والشرك . حتى ولو كان
مظهر هذا الشرك ممثلاً في الحلف بغير الله . ولم يرد أبداً أن يكون هذا
الحديث قاعدة باقية . وتشريعاً يؤاخذ الناس به ويحاسبون على مخالفته .
ولذلك رأينا يحلف بغير الله حين علم من نفسه أن هذا العمل لن
يكون له أدنى تأثير على إيمانه وبقائه ...

وما من نبي إلا وكان له شعارات . فقول المسيح مثلاً : -
« باركوا لاعدائكم ، وأحسنوا إلى مبغضكم » ..
« من لطمك على خدك الأيمن ؛ فأدر له خدك الأيسر ..
« سعداء هم السذج لأن مملكة السماء لهم ..
« سعداء هم المرضى لأنهم سيواسون ..
« سعداء هم من جاعوا وظمئوا إلى العدل لأنهم سيشبعون ..

كل هذه شعارات تتوهج فيها أضواء الزينة لتسلي المعذبين عن
عذابهم ، والمستضعفين عن عجزهم .. وليس الغرض منها قطعاً أن تكون
شرعة ومنهاجا فيصير حتماً عليك أن تتبرع بخدك الأيسر لمن قضم خدك

الأيمن . أو أن تكافىء بالرداء من سلبك الأزار .. !!

ومن الشعارات أيضاً قول التوراة :

- «خاطب الرب موسى قائلاً - قل لبني إسرائيل : كونوا قديسين»

وقول القرآن للناس - «كونوا ربانيين» ..

إن التوراة والقرآن يعلمان أنه ليس في مقدورنا أن نكون قديسين ولا ربانيين . ولكن ذلك لا يمنع من حفز الهمة وشد زناد الإرادة الإنسانية إلى أقصاه . فكان هذا الشعار المتأليء حافزاً لقاعدة أخرى هي فضيلة النفس واستقامة السلوك .

ومن الشعارات كذلك قول الرسول عليه السلام :

- «الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها .. ، حب الدنيا رأس كل خطيئة ...

لا تعدل الدنيا عند الله جناح بعوضة .. » .

إن هذه النصوص ليست قواعد ولا تشريعاً يدعوان الناس إلى مقاطعة الدنيا ومقتها . وإنما هي مجرد شعارات تريد لتشحن في الناس نزعة التسامى عن دنيا الحياة وصغارها ، ولما كانت قطرة البشر متشبثة بالحياة متعلقة بدنياها ، فإن الشعار ، والمبالغة أهم عناصره ، يستطيع أن يلعب في سبيل ذلك دوراً ناجحاً .

- ولو أن الأحاديث المذكورة كانت قواعد ، لا شعارات ، لما وصف الرسول الدنيا في حديث آخر بأنها خضرة حلوة .

والآن نسأل سؤالاً :

ما صلة هذا البحث بموضوع الأخلاق . . ؟

ونجيب بأن التفريق بين الشعار والقاعدة في نصوص الدين يخفف

عن النفس الإنسانية كثيراً جداً من الآصار التي ترهقها ، والأثقال التي تجعلها إلى اليأس من بلوغ اكتمالها أقرب منها إلى الرجاء . فضلا عن أنه يحصر المسئولية الأخلاقية ، والعمل من أجل الفضيلة في نطاقها الصحيح - ألا وهو : الإنسان . والإنسان وحده . . .

ونضرب لهذا مثلاً ، حديثين لرسول الله .

أما أولهما ؛ فيقول : من نظر إلى محاسن امرأة صب في عينيه الرصاص المذاب يوم القيامة .

وأما ثانيهما ؛ فقوله - « كتب على ابن آدم حظه من الزنا . مدرك ذلك لا محالة ؛ فالعينان تزنيان وزناهما النظر . . إلى آخر الحديث » أو قوله عليه السلام - لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم . . .

إن الناس لابد ناظرون إلى محاسن الجنس الآخر . . لأن ذلك في طبائعهم ودمائهم . . ومجرد استجلاء تلك المحاسن لا يضر مكارم الأخلاق شيئاً . . ركم من أناس ينظرون دون أن تصاب عفة أنفسهم بتشويه أو أذى . وكأى من آخرين إذا بصروا بامرأة أغمضوا ، وحوقلوا ، وانتابهم رعشة الورع الكاذب . ووراء هذه المظاهر كلها شهقات مكظومة ، ورغبات ناهجة مكتومة . تود لو أخلى السبيل بينها وبين نساء الكرة الأرضية جميعاً لتضفي معها حساباً طويلاً . . .

إن النظر إلى محاسن الجنس إذن تعبير محتوم عن طبيعتنا كما شهد الرسول نفسه بذلك في حديثه الثاني الذي قال فيه « مدرك ذلك لا محالة » فكيف نوفق بين الحديثين وكيف نرحم النفس البشرية من وطأة الحدث

الأول الذي يتوعد الناظر بأراقة الرصاص المذاب في عينيه . . . ؟
الطريق لهذا هو ما ذهبنا إليه من التفريق بين القاعدة والشعار . .
إن الحديث الأول شعار يعتمد على المبالغة حتى لا ينطلق الناس
وراء طبائعهم انطلاقاً يجاوزون به الحدود . وينسون في غمرته
مستوليتهم الأخلاقية .

ولعل من المعروف بداهة أن الحديثين الآخرين لا يعنيان التحريض
على مقارفة الخطيئة ؛ فليس رسول الله من يفعل هذا . . ولكنهما
بقران حقيقة واقعة . ويضعان الطبيعة الانسانية داخل إطارها الصحيح
دون أن يخذعها عن ذاتها . أو يكلفها بما لا تطيق . .

ومثل هذا قول الرسول : « تخلقوا بأخلاق الله » . .

وقوله : « كل بني آدم خطاء » . .

فالحديث الأول شعار ، والثاني هو القاعدة . لأن الأول بعيد من
طبيعة الإنسان ، والثاني قريب منها ومعبر عنها . . إن الشعار هنا - أي
الحديث الأول - يجعل من العصمة عن الخطأ - أملاً إنسانياً . والقاعدة -
أي الحديث الثاني ، يجعل من الخطأ طبيعة إنسانية . . وهكذا يتعاون
الشعار والقاعدة في النصوص الدينية من أجل الإنسان تعاوناً وثيقاً يبدأ من
الاعتراف بواقعه الأدنى . ويريد أن ينتهي عند مثله الأعلى . . الإنسان
الكامل ، أو الإنسان السوبرمان . .

إن إدراك هذه المسألة ضروري لكي يصير الدين عوناً لنا في سعينا
للاكتمال . ولكن كيف يدرك الناس هذا على الصورة الشاملة المرجوة
وليس معهم الاستعداد الكافي لذلك . . ؟

هنا نعود إلى كتابنا الأول - من هنا . . . نبدأ - فلقد طالبنا فيه
ونعود فنطالب اليوم أيضاً - أن يؤلف مجمع علمي جديد يضم بعض رجال
الدين المستنيرين . وبعض رجال العلم والأدب . وتبدأ مهمة هذا المجمع
بالإجابة عن هذا السؤال : كيف ننتفع بالدين في بناء المستقبل . . ؟ -
ولن أقول بم تنتهي هذه المهمة لأن المجمع إذا وفق للجواب الصحيح ؛
فلن تنتهي مهمته ، وستظل رسالته قائمة ما دام هناك دين . ، وما دام
هناك مستقبل .

ويعني هذا المجمع بتقديم الدين للناس من جديد كخافز لا كزاجر
وينفي عنه تلك الزيادات المخوفة الرابعة . لقد ارتبط الانسان بالله خلال
تطوره بواسطة عرى ثلاث . الخوف والحاجة والحب . ونرى أن دواعي
الخوف وعبادة الحاجة قد ولت وأهل عصر جديد يرتبط فيه الانسان
بمنشئه بعروة الحب والتوقير .

يجب أن يوضع فوراً كل نشاط ديني يعتمد على الدعوة والتوجيه
تحت رعاية واعية حازمة . ولا بد من توحيد القيادة في هذا المجال .
أما كيف يتم هذا ؟ فيكون موضوع حديثنا في نهاية هذا الفصل
إننا بتطهير الدين من الأكاذيب المقتناة عليه أولاً . . ثم بأعطاء
توجيهاته مفاهيم جديدة وصحيحة ثانياً - لا نخدم أنفسنا ومستقبلنا فحسب
بل ونخدم الدين ذاته . ونحن نعرف الدين يصفون كل محاولة من هذا
النوع بالمروق والضلال . ولكننا على يقين من أن قوة الحقيقة ستزيغ
هؤلاء من طريق الوعي . إما يردهم إلى الصواب ، وإما بكنسهم
من الطريق .

والآن ننتقل إلى الخطوة الثانية في طريق اكتمالنا

(٢) الصحة ، والخبرة ، والعلم ..

عرفنا في الفصول السالفة العروة الوثقى التي تربط الأخلاق بالصحة .
وثيراً ما يتساوى حظ الأمة من الفضيلة وحظها من الصحة . واهتمامنا
بالصحة يتضمن طبعاً اهتمامنا بالغذاء ، فالصحة الجيدة ثمرة الغذاء الجيد .
والصحة والغذاء معاً يساهمان أكثر من أى شئ آخر في تكوين
الشخصية الإنسانية ، وتحديد المسلك الخلقى . ولعل أصدق تصوير لهذه
الحقيقة في الحكمة التي تقول : « إن ما تأكله الآنسة - ر - يتحول
ويصير الآنسة - ر - » . . . والعجيب أن الدين أيضاً يهتم بنوع الغذاء
ويؤكد فاعليته وتأثيره في الأخلاق وإن كان ينظر إليه من زاوية أخرى
غير التي ينظر منها العلم . فالدين ينهى عن أكل الحرام ، كالمسروق
والمنهوب ومال اليتامى الذي يؤخذ خلسة وظلماً ، ويحذر في كثير من
نصوصه أن اللقمة الحرام تلوث النفس وتفسد الضمير :

الصحة إذن ضرورة لخلق مجتمع يتحلى بمكارم الأخلاق .

فإذا علمنا أن ٧٠ ٪ من أمتنا وشعبنا يحمل كل واحد منهم ثلاثة
أمراض في إهابه أدركنا استحالة تهذيب السلوك بالوسائل النظرية التي
لم تزد الرذيلة إلا ديوماً .

ولكن على كاهل من تقع مسئولية الصحة المضيعة المفقودة .
أهو الفرد أم الدولة . . ؟

لا ريب أن الدولة تحمل تسعة أعشار الوزر الناجم عن سوء الصحة
وتضروب العاقبة . . . وإنه لصحيح ما قيل : ليس المشكل النصيحة .

وإنما المشكل قبولها . من أجل هذا ؛ فأن الدمار الذي لحق صحتنا ،
وبالتالى أخلاقنا - فيما سلف من الزمان ، يفقد قيمته ، ويتلاشى خطره
إذا نحن عزمنا أمرنا من جديد ووضعنا العبرة المتخلفة عنه موضع الاعتبار ،
ولم نفعل كما فعل الدين بادوا . ؛ فنعرض عن العلم ونفتر من الحقائق
ونلجأ إلى التمايم والتعاويد .. ١١

ونحن نعلم كم هو غريب ونشاز أن يدعوا داع لمكافحة الرذيلة بتحسين
الصحة فى بلاد ألفت أن تكافح الرذيلة بالكلام .. ولكن ما حيلتنا ،
إذا كان ذلك عين الحق وعين اليقين .. ؟

إن كل سرير يضم إلى مستشفى . . وكل طبيب ماهر مخلص يضاف
إلى أسرة الأطباء ، وكل قرش ينفق على صحة هذه الأمة المتداعية ..
إن شيئاً من ذلك ومثله ليساوى ملء الأرض كلاماً منمقاً وإرشاداً
مزخرفاً . ويفعل فى تعلية السلوك ما لا يفعله القديسون .

والصحة النفسية تكاد تكون معدومة فى بلادنا . لهذا يجب أن يكون
لها من اليوم نصيب وافر فى سياستنا الصحية ، وفى ميزانيتنا الصحية أيضاً .
لقد أنشأت بعض الشركات الصناعية الكبيرة بأمريكا لعمالها وموظفيها
عيادات خاصة بالصحة النفسية لقاء اشتراك زهيد . وبعد عامين اثنين
من بدء العمل قامت بعمل إحصاء بين عمالها فوجدت أن جميع المترددين
على هذه العيادات قد ازداد حظهم من الأخلاق السالية بالنسب الآتية :

النشاط	— ٤٥ ٪	كما كانوا عليه قبل التطبيب النفسى
الأمانة	— ٣٦ ٪	» » » »
المهارة	— ٤٣ ٪	» » » »

التركيز — ٤٣ % مما كانوا عليه قبل التطبيب النفسى

النفقة الجنسية — ١٥ %

التصميم - ٤٣٪

فيا ليت قومنا يعلمون ، وباليتم حين يعلمون يعملون . . إن الصحة
هي خلق الحاضر والمستقبل . . ولن يمضِ وقت طويل حتى يتركز ثناء
الناس على مكارم الأخلاق في ثنائهم على الصحة . .

أجل لن يقول الناس في الغد القريب - فلان صادق ، أو أمين
أو مستقيم . ولكنهم سيقولون : إنه قوى . . إنه حر . . إنه مثقف .
فالصحة والحرية والثقافة هي اليوم وقبل اليوم وبعده منابع الفضيلة
ومناهلها ! فلنخصص أقل قدر من المال للكلام الذي تكافح به الرذيلة !
ولنفتح الاعتمادات الواسعة السخية لتدفق إلى جنان هذا الشعب المسجى
تحت لفائف رقيقة من وجود باهت سقيم حاملة إليه الدم ، والعافية والفضيلة
والحرية ضرورية لتكوين الأخلاق - الحرية في أزيائها جميعاً - السياسية
والفكرية والشخصية . ولقد تحدثت عن الحرية السياسية ، والفكرية
حديثاً طويلاً في الكتابين السابقين - مواطنون لارعايا ، والديمقراطية

وليس في نيتي أن أعود إلى هذا الحديث . بيد أنني أؤكد ملء معرفتي وخبرتي و يقيني أن الحريات السياسية والفكرية لازمة للأخلاق الكريمة لزوم الأنبياء والمرسلين . وكل إهدار لحق الجماعة في هذه الحريات يعقبه فوراً انهيار متتابع في أخلاقها وسلوكها

إن النفاق ، والجبن ، والحياة ، والعدو ، والجاسوسية ، والكذب ،

والعار - كل هذه تتحول إلى مقدسات وفضائل في كل مجتمع يفقد حريته السياسية وحرية الفكرية . . . ولو شئت أن أملاً كتاباً كاملاً بالشواهد التاريخية التي تزي رأينا هذا لفعلت . ولكن الحديث يتعجلنا . ووقتنا المرصود لهذا الكتاب ملك للفكرة التي يعالجها ؛ فتعالوا نتحدث عن حرية هم موضوع الكتاب أكثر من سواها . . . تلك هي : الحرية الشخصية . ماذا نعني بالحرية الشخصية . . ؟ سيسارع المتمسكون للإبرياء العيب ويقولون : تعني - طبعاً - العريضة والفسوق والعصيان . . .

ونحب في هدوء وصدق : كلا . وإنما نعني الفضيلة الانبعاثية التي ننبعث من اختيارنا وإرادتنا . .

لا تلك التي تجيء ثمرة الإكراه أو الخوف من فضيحة وعقاب . إن كل أمة لا تبني فضائلها على أساس من شعور كامل بالحرية وشعور كامل بالمسئولية ، فإن بناءها هذا يقوم على شفا جرف هار . . والفضيلة الدائمة الباقية هي المتحررة من الخوف . هي التي جاءت بمشيئتها ، وستبقى بمشيئتها كذلك . . وما أبدع قول الله العظيم : لا إكراه في الدين . . وأيضاً ما أصدق الذي قاله فيلسوف حكيم : لا فضيلة بلا حرية . . إن الحرية الشخصية هي « صندوق التأمين » على حياة الفضيلة وبقائها . وفي بلادنا ظاهرة تستحق المثل أمامها طويلاً ، هي أن مكارم الأخلاق عندنا نزوات عارضة ، وليست سلوكاً وطيداً . ؛ فؤلاء الدين لهم ظاهر من الصدق ، ومن العفة ، ومن الأمانة ، ومن الشجاعة ، سرعان ما يخورون كالثيران الذبيحة أمام فرصة مغرية ، أو ظروف قاسية . وإذا ذهبنا نتعقب أسباب هذا وجدناها ماثلة في فقدان العناصر التي

تخلق الفضيلة . أو على الأقل تخلق إرادة الفضيلة . وعلى رأس تلك العناصر إن لم يكن جماعها - الحرية الشخصية التي تتيح للإنسان أن يختار فضائل نفسه ، ويريدها . والتي تكون بدورها ثمرة تجريبه واختياره ومعاناه .. أما الفضيلة التي يأتيها أصحابها مكرهين . فكثيراً ما تكون سحابة صيف لا رسوخ لها ولا بقاء .

وما أكثر ضحايا الخوف من التقاليد ، والحجل من الناس . ما أكثر هؤلاء الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم . إنما نحن مستهزئون .. إن فقدان الحرية الشخصية يعني شيوع النفاق ونشر ألويته جميعاً . وأنى لأتأمل وجوه الجالسين على الطريق ، والسائرين في الشوارع ، والراكبين في العربات . وأرقب العيون المسعورة التي تعلق بنظراتها المتواثبة وأهدابها المنتفضة أجساد النساء والفتيات . ؟ فأسأل نفسي :

— أيمكن أن نحكم على هؤلاء الناس بأنهم فضلاء .. ؟ إنهم لا يرتكبون بنظراتهم فاحشة . ومع ذلك فالفاحشة ملء نفوسهم وإن لم يفعلوها . وإن نكوص الواحد منهم عن الخطيئة ليس عفة . بل عجزاً . والسلوك المستقيم تحت ضغط العجز لا يخلق إنساناً فاضلاً ، ولا مجتمعاً سويًا . وإنما الاستقامة الباقية هي تلك التي أختارها وأريدتها وأهواها . ودعوني أسألكم أيها الآباء من القراء :

— إذا كان لأحدكم بنتاً متعلمة في سن السابعة عشر أو حولها ؛ فهل يحترم حرمتها الشخصية في - القراءة - والتنقل - واختيار الأصدقاء .. ؟ إنني في غضون ثلاثة أعوام استطعت أن أجمع وأدرس إجابات

خمسة وأربعين والدا . تحدث معهم واحداً واحداً ، واستشرفت كثيراً من الأحاسيس والأفكار التي تصنع آراءهم . وكانت النتيجة كالآتي :

٤٥- أبا ..	حرية القراءة	حرية التنقل	حرية اختيار الأصدقاء	حرية اختيار الصديقات
الدين يوافقون	١٥	١٢	واحد فقط ..	١٢
الدين يرفضون	٣٠	٣٣	٤٤	٣٣

وقد أقيمت على كل من هؤلاء الآباء الخمسة والأربعين سؤالا آخر ، هو :

— هل تعتقد أن فتاتك تؤثر رغباتك على رغباتها في ممارسة هذه الحقوق . وتسير وفق مشيئتك . أم أنها لا تفعل . أم تتظاهر فقط بأنها تفعل ... ؟؟

واعترض « سبعة » منهم في عنف صوفي على تسميقي هذه « الفوضى » بالحقوق . .

وأجاب « عشرون » بأنهم يعتقدون أن البنت قادرة على بلوغ أغراضها بوسائل غير منظورة للرقباء . .

وأكد السبعة الذين أشرت إلى اعتراضهم السالف — أن بناتهم يسرن على الصراط المستقيم . وينفذن رغبات الآباء في ذمة وغبطة . . (١١)

وأجاب « ثمانية » بأنهم على يقين من أن أسراف الوالدين في استعمال كلمة « لا تفعل » يفضي إلى النقيض مع الفتي والفتاة على حد سواء . .

وأجاب « عشرة » بأن تنفيذ رغبات الوالد راجع إلى يقظة الأم وحسن توجيهها للبنت . .

والحق أنني لم أتفاهل ، وأيضاً لم أتشام بهذه النتيجة . - ذلك أن
المحوص التي قمت بها لم أرد منها كما ذكرت قبلاً إلا أن تكون إشارات
ضوئية ترمي إلى الحقيقة وإن لم تستوعبها . ، بيد أنني وجدت الحرية
الشخصية تجتاز في بلادنا حنة تتجلى في ظواهر كثيرة منها هذه التي رأيناها
في الأحصاء السابق . .

وتحليل المشكلة بالنسبة للمجتمع يرجع إلى اعتبارات شتى . فهناك
الريب والشكوك وسوء الظن ، وكلها ظلت قروناً عديدة تربط الشعب
بحكامه الغزاة ثم انتقلت إلى صفوف الشعب نفسه فصار يتعامل بعضه مع
بعض بالشكوك والارتياب . . وهناك الرعونات والأساطير والتقاليد التي
تدحرجت إلينا مع الاستعمار التركي الذي فصل بين الجنسين بحائط فولاذي
ولعلكم لم تنسوا بعد « فرمان » السلطان سليمان القائل - « كل امرأة
تكشف وجهها في الطريق يقص شعر رأسها ، وتزف في الشوارع ممتطية
حماراً بالملوب » . . ١١ - وهناك الرهبة من كل جديد . وذلك لأن
الأفكار الجديدة تحتاج دائماً إلى تنسيق أو تغيير في عالمنا العقلي . ولقد
ران على عقولنا ، وعلى عزمنا كسل طويل يجعلنا نهرب من الجديد لننجو
من التبعات التي يتطلبها . .

ثم هناك هذا السيل الذي لا يزال دافقاً من المواعظ والخطب
والتوجيهات التي تقال للشعب في كل مكان . في المسجد ، وفي الكنيسة ،
وفي الإذاعة ، وفي المدرسة ، وفي دور الجمعيات الدينية التي تختلف فيما
بينها على كل شيء ويكفر بعضها بعضاً . ولكنها تتفق على شيء واحد .
هو أنه لا مكان للمرأة ولا مكان للبنت سوى أظلم بقعة في بيتها . . ١٢

فلنمكن أعضاء المجتمع جميعهم من حريتهم الشخصية . ذاك أهدى
السبل إلى فضائل راسخة نامية باقية .

واهتمامنا بالعلم كوسيلة فعالة في تنمية الأخلاق لا يقل عن اهتمامنا
بالصحة وبالحرية . وإذا لم يكن هناك فضيلة بغير حرية فليس تمت فضيلة
بغير معرفة - عوها هو ذا الاسلام وقد اعتبر الأيمان بالله على رأس الفضائل
دعا الناس إلى أن يؤمنوا عن معرفة لاعن تقليد . وصب سبيلاً من السخرية
على الدين يقولون : إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . . . ولقد بلغ
من تقدير الرسول عليه السلام للمعرفة كوسيلة لفضيلة الأيمان أن جعل
الشك في الله من صميم الأيمان . وهذا نبأ رويته في كتب لي من قبل ،
وسأظل أرويهِ ما جاءت مناسبتُهُ . . .

فدأت يوم ذهب للرسول قوم من أصحابه تفيض أعينهم من الدمع
حزناً وقلقاً . . . وقالوا : يا رسول الله . إنا لنجد في أنفسنا ما نؤثر
على التلفظ به أن نحترق حتى نصير حمماً . وأشاروا من طرف خفي لي أنه
الشك في الله . . .

ولقد يتوقع المتدينون في بلادنا اليوم أن يكون جواب الرسول
لهؤلاء زجراً وتوبيخاً وقسوة . . . فلينظروا ماذا كان جوابه . . .

لقد ربت محمد العظيم على أكتافهم في حنان رطيب . . . وتهلل وجهه
بإبتسامة كضوء الفجر . . . واثقال الحديث من بين شفثيه عذباً شهيماً كبأنه
بشري . . . وفي مثل هدوء المحيط وقوته قال ابن عبد الله :

— « هل أتاكم هذا الشك . . . ؟ »

« الحمد لله . . . إنه صريح الأيمان . . . » !!

وهكذا يصلصل الإسلام بما انتهى إليه العلم من أنه لا فضيلة بالامعرفة

فباسم من نحرم عقولنا من أن نعرف كل شيء عن كل شيء . . . ؟؟

أباسم الله . . . ؟ - هذا رسول الله يكذبنا .

أم باسم العلم - ؟ - ألا وإن العلم لأشد تكديبا لنا وتقريبا .

إنه باسم التقاليد التركية القديمة . وباسم الخرافة التي تمثل أوسع مساحة في تفكيرنا إن كان لنا تفكير . وباسم المصالح والمنافع التي ارتبطت بهذه التقاليد والخرافات . وجعلت بيننا وبينها نسبا وصهرا .

افتحوا لعقول الناس جميع النوافذ لكي يبصروا الفضيلة في ضوء الثقافة الحرة والعلم المبين .

ذلك أن الثقافة هي الضوء الذي ينير طريق السلوك . وإذا صار الضوء الذي بيننا ظلاما ؛ فكيف سيكون هذا الظلام ويلا . . . ؟؟ حين نلقى نظرة فاحصة على سلوك المجتمع نجد فضائله ظلالا عارضة . أو على أحسن الفروض عادات قائمة . والعادة لا تهب فضيلة راسخة . لأن العادة نفسها قد تزول وتدع مكانها عادة أخرى . إن الشيء العظيم الذي يمنع أخلاقنا الرسوخ والثبات هو قوة اليقين العقلي . واليقين العقلي هذا لا يكون إلا حيث تكون الثقافة حرة ، والمعرفة شاملة - فلنغمر مدارسنا وجامعاتنا المحجوبة من مناهج التربية الشخصية والتثقيف الخلقى بهذين النوعين . ولتقدم لأرواح الطلاب وعقولهم كل ما هو رفيع من الأدب والفن والتاريخ . . والمقياس الصحيح لكل ما هو رفيع يتمثل فيما يعطى طبيعتهم الإنسانية حظها من معرفة الخير والشر . وسيزداد غرضنا وضوحا إذا

نحن تلونا سطورا للكاردينال «نيومن» في بحثه ■ نطاق التربية الجامعية وطبيعتها» - يقول فيها.

« إنا لن نستطيع أن نحول بين الطلاب وبين أن يقذفوا أنفسهم في معمة الحياة بجميع طرقها وحكماتها ومبادئها حين يحين الأوان . ولكننا نستطيع أن نعدم لما لا مفر منه . ؛ فليس الطريق لتعلم السباحة في المياه المضطربة أن نمتنع عن خوض عباها فأنت إذا حرمت الأدب الدينى كله ، وحذفت من كتبك المدرسية جميع المظاهر المكشوفة للإنسان الطبيعى فإن هذا التحريم لن يغنى عنك شيئاً . لأن هذه المظاهر ذاتها تسعى إلى طلابك وتستقبلهم في هيئة حية تسعى إلى عتبة قاعة المحاضرات . وستلقاهم هناك في مظاهر سحر الجديد ، وروعة المجهول ، وفتنة العبقرية أو الظرف . إنهم اليوم طلاب ولكمهم غداً سوف يصبحون أعضاء في العالم الفسبح الأطراف . فإذا حصروا اليوم قراءتهم وثقافتهم في مناسك القديسين . فغداً سوف يقذف بهم في أحضان بابل العظيمة . وسوف يرمى بهم في أحضانها دون أن يتدرعوا بأمانة الفكر المتسامح وروح المرح والدعابة ، وابتكار الخيال . ودن أن يدربوا على التأنيق في الدوق ■ ودن أن توضع أمامهم قاعدة لتمييز الثمين من الفث ، والطهارة من الخطيئة ، والحق الصراح من السفسطة

إن هذه الكلمات الجليلة تكشف عن حتمية الثقافة الحرة لتجويد الأخلاق الكريمة . وهى تنقل حديثنا إلى لون هام من ألوان المعرفة .

ذلكم هو :

المعرفة الجنسية

هنا سؤال توجهنا به إلى تسعين من طلاب المدارس والجامعات تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة ، والثالثة والعشرين .
وتوجهت به زميلة فاضلة إلى أربعين من الطالبات . .

والسؤال هو :

— كيف عرفت إهلال الغريزة الجنسية ، وماذا كان موقفك الأول حيالها . . ؟

وكانت النتيجة بالنسبة للجميع طلبة وطالبات كالتى .
خمس عشرة — ارتبكوا وألقى الخجل على ألسنتهم إجابات مضطربة . .
خمس عشرة — عرفوا ذلك عن طريق الاحتلام . .
ستة وثلاثون — عرفوا عن طريق « الخادم » . . أو « الخادمة » . .
خمسون — عرفوا عن طريق قرنائهم بالمدرسة . .
ستة — عرفوا من الشارع . .
ثمانية — عرفوا من الأسرة أو المجلات . .

هذا عن الشق الأول من السؤال . أما الشق الثانى فقد كانت نتيجة الأجابات أن « ٨٠ ٪ » من المجموع — استجابوا للغريزة استجابة غير طبيعية على نحو مشابه لما ذكرناه فى الفصل السابق . .

ومن الإحصاء المذكور لا نجد لثقافتنا المدرسية ولا لثقافتنا الاجتماعية أثراً — أى أثر . .

وتسأل : أين وزارة المعارف . . ؟ أين وزارة الشؤون الاجتماعية . . ؟

أين وزارة الارشاد ، ومحطة الأذاعة . . ؟

أليس من واجب هذه المؤسسات جميعاً أن تبين للناس كيف تنضج شخصياتهم ، ويتفوقون على أنفسهم ، ويحيون حياة لا تعقيد فيها ولا انحراف ولا اضطراب . . ؟

إذن ؛ فما الذي يمسك بها أن تفعل . . ؟ إنها صاحبة الجلالة التقاليد . . ورعاية التقاليد والاستمسك بها واجباً إذا كانت تستحق الرعاية والاحترام . وإذا كانت تمثل العناصر الأصيلة لنشوء المجتمع وتساير نظوره . أما حين تكون دخيلة وغريبة وتافهة ؛ فمن الضلال الأكيد الاستسلام لها والالتفاف حولها . .

والآن . احذفوا من قاموس الثقافة كلمة « عيب » إذا كنتم تريدون مجتمعاً مترفعاً عن العيب . .

ويجب أن يكون للمعرفة الجنسية في مناهج التعليم المدرسي والتوجيه الاجتماعي نصيب كبير . إن جميع العالم المتحضر قد أدرك ما للتربية الجنسية من أثر بعيد في رقي الأمة وتعلية أخلاقها . وذهب يستعين بالأرقام على اكتشاف الحياة الجنسية لمجتمعاته ، وشعوبه . وهاكم شواهد تصور ذلك الاهتمام .

ففي عام — ١٩٢٤ — أجرت جامعة موسكو بحثاً هاماً لمعرفة نسبة البرود الجنسي وأسبابه بين الفتيات اللاتي سيصرن زوجات ، وتبين أن « ٤٣ ٪ » من اللاتي انتظمهن الأحصاء من ذوات البرود الجنسي . ومعنى ذلك أن الـ ٤٣ ٪ — هؤلاء لا يعتمد عليهن في بناء حياة أسرية

فاضلة ، وزوجية خصيية منتجة ، وفي الحال والتوء بدأ العلاج . .
وفي عامي - ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ - قامت جامعة برلين بعمل إحصاء
مماثل لنفس الموضوع فوجدت بين من شملهن الإحصاء :
٣٤٪ لا يكثرثن بالاتصال الجنسي
٢٢٪ ينفرن نفورا شديدا من هذا الاتصال
أى أن - ٥٦٪ - منهن مصابات ببرد جنسى . . وأيضاً
بدأ العلاج . .

وفي سويسرا ، اكتشف المسئولون أن النسوة في المقاطعات الشرقية
يعانين بروداً جنسياً ؛ فجدوا علماء الإحصاء والتربية والطب . . وحين
وجدوا أن - ٥٠٪ - من هؤلاء النسوة يجهلن الشبق جهلاً تاماً
سارعوا بالعلاج . .

أجل ، ولقد أصبحت الأم الراقية في عقلها وخلقها تهتم برصيدها
من الخبراء في الحياة الجنسية ، مثل اهتمامها بخبراء السياسة
والاقتصاد والمناجم . .

فماذا ننتظر نحن . . ولماذا نعر على تقليد اليمن والبلاد الواقعة وراء
جبل قاف . . ؟ !!

إن كل ما تقدمه المدرسة عندنا من المعارف الجنسية إلمامة خاطفة
تختلسها اختلاسا عند حديثها عن علم الأحياء . ولكن الموضوع أجل من
هذا ، وأخطر ، ولا بد من أن نحدث شبابنا من الجنسين عن كل شيء . .
وأولى الأمكة بأن يدور فيها الحديث هي المدرسة ، والمعهد ، والجامعة .
إذ يتوفر لها الوقار والأمانة

ولقد سئل عالم ألماني كبير هو الدكتور « لودفيج ليفي لينز » :

— متى يجب أن نبدأ بالتربية الجنسية لأبنائنا . . ؟

فأجاب قائلاً : — عندما يبدأ الطفل بالسؤال .

ولكن يبدو أن هذه الإجابة لا تتفق وأوضاعنا . فالأطفال عندما
لن يبدأوا بالسؤال عن هذه الأشياء أبد . لأن جواً غامضاً رهيباً يجعلهم
يدركون بالبدية أن هذه منطقة حرام . . ! فلتبدأ المدرسة بأداء واجبها ،
وعليها أن تحدد متى تبدأ .

إن العلم التجريبي نجبرنا على لسان أحد ثقافته الأخصائيين
« سيرل بيبي »^(١) أن الاهتمامات الجنسية تتطور مع مراحل النمو للفرد .
فبين السنتين الخامسة والتاسعة — يكون الاهتمام الجنسي كامناً ويتجه
إلى نفس الجنس

وبين العاشرة والثانية عشرة — تستيقظ المشاعر الجنسية . وتكون
في البداية مختصة بذات الجنس ثم تتجه بعد هذا شطر الجنس الآخر .
وبين الرابعة عشرة والسادسة عشرة — تزداد الانفعالات الجنسية
وتتجه عادة نحو الجنس الآخر .

وبين الثامنة عشرة والعشرين — تزداد المشاعر الجنسية خصوبة وعمقا ،
ويبحث الإنسان في الجنس الآخر عن تكملة شخصيته وتشبع حاجاته العاطفية .
فمن طريق هذه المعلومات نستطيع أن نعرف متى نبدأ تلقين المعارف

(١) مؤلف كتاب — التربية الجنسية — ترجمه الأستاذان محمد رفعت رمضان ،
ونجيب اسكندر إبراهيم وراجعه الدكتور اسحق رمزي — وتنصح بقراءته

الجنسية لأبنائنا ، ونعرف أيضاً الغذاء الملائم لكل فترة من فترات
نمو المظهر .

ونحن نقترح أن يبدأ من العاشرة . وإذا علمنا أن العاشرة تعادل في
سنواتنا الدراسية الآن - الثانية الإعدادية تقريباً - أى أن معظم تلاميذ
هذه الفرقة في سن العاشرة أو حولها ، أمكن إدراك أهمية هذه السن
كنقطة نبدأ منها . خاصة وقد علمنا من قبل أن هذه السن بداية ليقظة
المشاعر الجنسية كما أنها حتى الثانية عشرة نقطة الانتقال من الاهتمام بالمثل
إلى الاهتمام بالجنس الآخر .

وعلى أى حال فهذه التفاصيل لاتعنيننا . ونحن نؤثر تركها للمختصين ..
وإنما يعنيننا إلى أبعد مدى أن نقتنع بالقضية . ونؤمن بضرورة جعل التربية
الجنسية مادة أساسية في ثقافتنا المدرسية والاجتماعية - ولنكن على يقين
من أن الله ورسوله يباركان هذا العمل ويثيبان عليه . وأن رسول الله
نفسه كان يثير في المسجد موضوعات جنسية يتحدث عنها ويفق فيها .
والرجال والنساء معاً يستمعون ويصفون . ؛ فإذا تطور هذا الوضع بعد
ألف وأربعمائة عام من حديث عابر في المسجد ، إلى منهج وطيد في المدرسة
فلن نكون قد اقترفنا منكراً وزوراً . .

إننا إذا لم نحدث شبابنا عن هذا ، فسيدهبون يحدثون أنفسهم . . .
والويل يومئذ للفضيلة . .

إن الصور العارية التي يحرم القانون بيعها - تملأ مدارسنا الثانوية .
حيث يتبادلها الطلاب ويتخاطفونها . . .

وإن الجدران الداخلية لدورات المياه في هذه المدارس لتزدحم بمهرجان

حافل من العبارات الرديئة ، والرسوم التي يعبر بها الطلاب المساكين عن
معلوماتهم الجنسية (١١)

فأى المساكين أسمى وأفضل لكي يتعرف الشبان إلى غرائزهم . . . ؟
حجرة الدراسة . ، أم مراحيض المدرسة . . . ؟

ألا إن لعنة الله لتزل على كل ورع يؤثر الثانية على الأولى . ، ألا وإن
مجتمعنا الصالح العابد ليفعل هذا . . . !

إن الأشباع الوجداني أكبر حائل ضد الفاحشة . وبث المعارف الجنسية
لأبنائنا يمكنهم من هذا الأشباع . فضلاً عما يسديه إليهم من خدمة ونفع
حين يضع أعينهم على حقائق الحياة الجنسية التي يواجهونها بالرهبة
والاضطراب . والذين يعلمون أن الشباب هو المرحلة التي يتشكل فيها
مستقبل الفرد وعظمة الأمة يكاد الأسف يخنقهم وهم يبصرون شبابنا
وكنوز مستقبلنا في هذا الضباع الويل وتلك الحيرة المدمرة .

ولقد شرع التعليم في الخارج يعني كما ذكرنا بتأهيل الطلاب لهذه
الحياة ، بل وتطالب المدرسة المنزل بأن يشاركها في هذا المجهود النبيل .
وهاكم نشرة عامة أرسلها ناظر إحدى المدارس الثانوية للبنين في لندن
لى آباء التلاميذ جاء فيها :

— « في أثناء العام الدراسي الحالي كان تلاميذ الفرق (كذا - وكذا)
يدرسون علم الأحياء مع (الأستاذ . . . والأستاذ . . .) وقد قضوا فترة
من الوقت في دراسة جسم الإنسان ، وأعضائه ووظائفها . والدروس
الأخيرة تختص بالتناسل في الزهور والحيوانات والجنس البشري . . .
فعند سن الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة تقريباً - يظهر عند

الأولاد اهتمام طبيعي بأجسامهم وبعنشتهم . وإنه لمن الأهمية بـمكان
ألا يستحيل هذا إلى أمر سرى سقيم . . كما ينبغي ألا يناله التحريف
أو يتعرض لسوء التوجيه عن طريق المعلومات الفاسدة التي تنتقل من
صبية صغار في نفس السن يجهلون الحقائق على صحتها ، أو على أحسن
الفروض ، يعرفونها معرفة ناقصة . .

« إن التناسل في الإنسان هو الخاتمة الطبيعية لمنهج علم الأحياء .
ويمكن أن تعرض على التلاميذ الحقائق واضحة بغير تشويش أو حيرة ،
لأن الموضوع كله إنما هو امتداد طبيعي لما سبق أن درسه . .
» وإني أبعث طي هذا بملخص للدرس الذي أعطى للفصل الذي
ينتمي إليه نجلكم منذ بضعة أيام ، فقد ترغب في انتهاز هذه الفرصة
لمناقشة الموضوع مع نجلكم . . »

نحن نعلم أن بعض القراء قد يأخذون علينا أننا في هذه القضية بالذات
نستشهد بدول غير عربية مثل روسيا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وسويسرا . .
ولكن هل هذا ذنبنا ؟

لقد كنا نود أن نضرب الأمثال باليمن والعراق وشرق الأردن ،
وعميات الخليج الفارسي كلها . (١) ولكن هذه البلاد وبلادنا معها -
رفض في عزة وشم أن تعطينا فرصة الاستشهاد بفطنتها وحسن
تقديرها . .

إن نشر المعرفة الجنسية بين الطلاب والطالبات يقض مضجع الرذيلة
يبقين . ويرد سكينه النفس وسكينه العقل إلى هؤلاء الذين يهربون بحيرتهم
وقلقهم إلى جدران دورات المياه ، وإلى الصور العارية ، وإلى العادات

الضارّة . ونحن نعلم أن كثيراً من الناس عندنا لا يستريحون لهذا . كما أن كثيراً من الناس بقاء ربهم كافرون . . فكونهم من الناس ، وكونهم كثرة لا يمنع أن تكون الحقيقة فيما يفضون . وإنا نلتبس هؤلاء العذر ربنا يتبين لهم الأمر ؛ ففي لندن نفسها قامت ضجة منذ عامين أو ثلاثة من الآباء الذين احتجوا على تعليم صغارهم المعلومات الجنسية . والغريب أنه تبين فيما بعد أن هؤلاء الثائرين جميعاً من المنتمين لجمعية دينية . . . وإن كان بعضهم قد عاد إلى صوابه ، ورجع عن تدمره حين دعت المدرسة لسماع بعض الدروس التي تاتي على الأبناء في مسألة الجنس ؛ فاستراح لها وآمن بمجدواها .

منذ سبعة أعوام كنت ألقى محاضرة دينية على مجموعة من السيدات والفتيات . في تفسير قول الله تعالى : - « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسوّاك فمدلك . في أيّ صورة ما شاء ركبك » . وأذكر أنني استرسلت شيئاً ما في تبيان « خلقك ؛ فسوّاك ، فمدلك » . وقلت لمن مينا عظمة الخالق سبحانه ، إنه في أثناء الاتصال الجنسي يدخل في المهبل ما يقرب من مائتي مليون حيوان منوي . تشق طريقها إلى عنق الرحم لكي تلتقي بالبويضة ، وتتم عملية الأخصاب . .

ويبدو أن هذه الكلمات - الاتصال الجنسي ، وحيوان منوي ، وعنق الرحم ، والبويضة ، والأخصاب - قد أنست المستمعات أنهن في موعظة دينية (١) فقد ساد هرج ملحوظ ، وضحكات مكتومة ، ونظرات متسائلة . وألقى الحجل حرته الوهانة على وجوه كثيرة . وأردت أن أزيح عنهن هذه الغشاوة فقلت لمن : ليس فيما ذكرت الآن ما مخجل .

ولقد كان رسول الله يقول في دروسه مثل هذا للرجال وللنساء . وقصصت
عليهن نبأ التي ذهبت تسأله - عليه السلام - كيف تغتسل من الحيض ؟
فأجابها الرسول قائلاً :

« خذي ماءك ، وسدرك ، وصبي على رأسك ، ودلكيه حتى
تبلغني منابته . ثم صبي عليه الماء . ثم خذي فرصة ممسكة - أي ممخضه
بالمسك - فتطهري بها . . »

وتعود المرأة فتسأل الرسول : وكيف أتطهر بها . ١٩
فيجيب الرسول وهو يضحك : سبحان الله . ١ ، تطهري بها . .
وتتدخل عائشة في النقاش فتقول للمرأة : تتبعي بهذا أثر الدم في
الرحم . . وما إن انتهيت من سرد هذه الواقعة حتى كان الهرج قد انتهى .
والحياء المخدوع قد رحل . . وأدركت ساعتئذ حكمة بليغة . هي أن هذا
الحياء الكاذب الذي يغشانا قد انتحل لنفسه في غفلة من الحقيقة صفة
دينية ، وصرنا نوقره كمالو كان شعيرة أو فضيلة من فضائل الدين وشعائره
فإذا ما تبين للناس كذب هذا الزعم نبذوه عن أنفسهم وفتحوا نوافذ
عقولهم للمعرفة الطليقة الحرة .

ولذلك يكون من الخير أن نضع بين يدي مناهج التربية الجنسية
بعض الشواهد الدينية التي يمكن اعتبارها من غير تكلف أو اعتساف
ذوات دلالات ومفاهيم خاصة بالمسئلة الجنسية وتربيتها .

فهل للمدرسة أن تبدأ دراستها . . ؟
إنه لأمر مضحك ومزعج معاً أن ندرس لطلابنا في التوجيهية مثلاً
الجهاز التناسلي عند الأرنب . . (؟) ونهمل أن ندرس لهم الجهاز
التناسلي للإنسان . . . ١١

مرة أخرى . واجهوا الشباب . بحقائق العلم في النور ، فذلك خير
من أن يلتمسها الشباب مشوهة محرفة في الغياهب والظلمات والآن ننقل
إلى الخطوة الثالثة في الطريق .

(٣) الاختلاط : فاسقة ، ومزاج ..

ودعونا نبدأ حديثنا عن الاختلاط بقضيتين هما في حسابنا مفروغ من
أمر صدقهما .

القضية الأولى . . . هي أننا لا ننكر نشوء علاقات عاطفية ، وقيام
علاقات جنسية من جراء الاختلاط . ولكن يقابل هذا أن الخطيئة
الجنسية تقترف كذلك في المجتمع الانفصالي البعيد عن الاختلاط .
أما القضية الثانية وهي مترتبة على الأولى ؛ - فهي احتمال أن تكون
الخطايا الجنسية للمجتمع الانفصالي أقل عدداً منها في المجتمع الاختلاطي -
ولكن يقابل هذا أيضاً أن خطايا الجنسية المثلية ، أي الشذوذ والانحراف
تسجل في المجتمع الانفصالي أرقاماً قياسية عالية بحيث يحرز في سباق
الجريمة تفوقاً لا يطمع المجتمع الاختلاطي في مثله أبداً . . .

وحسبنا أن نوازن بين المستوى الخلقي في بلد كمصر ، ومثله في أي
مجتمع انفصالي من جيراننا الأقربين . . .

أو دعونا من هذه الموازنة ، ولنجعلها بين الريف المصري في الوجه
البحري وبين المدن المصرية . . إن القرى التي ينشأ ناشوها على الاختلاط
الطبيعي بين الجنسين في الطفولة والمراهقة والشباب والشيخوخة . .
في الحقل ، وفي البيت ، وفي السوق . تكاد تنزه عن الانحرافات الجنسية .

بل والنقائص الجنسية تنزها مطلقاً . وحتى حوادث الزنا إن وقعت ؛ فهي من الندرة والتكتم بحيث لا تسبب لمجتمعها الخاص قلقلة ولا ذعراً . . . أما المدن ، فهي لضالة حظها من الاختلاط ، وللتردد الذي ينتابها إذ تقدم عليه بقدم ، وتدبر عنه بأخرى ؛ يعيش أهلها في بلبلة جنسية . لا ، بل في فوضى جنسية بأحسن معاني هذا التعبير . ١

وإنه لسواء علينا أن تصح نظرية « فرويد » بالنسبة للغرب الآن ، أو لا تصح ، بيد أننا على يقين من صحتها بالنسبة لبلادنا . وما حولها من بلاد الشرق العربي كله - أعني أن المشكلة الجنسية هي المنع الذي يطغح بكافة مشاكلنا النفسية ، ونقائضنا الخلقية . ذلك أن التقاليد التي استضافت نفسها وفرضت ذاتها علينا ، تلك التي وفدت مع العزاة والفاتحين دقت طبول القطيعة بين الجنسيتين بعد إذ كانا شيئاً واحداً . وأذعن المجتمع لأمر التقاليد التي قسمته على نفسه وطال به الأمد على هذه الحال حتى تحول عقله الباطن إلى مخزن مشحون بالعقد المتربصة . ولا تظنوا أن الانحراف هو وحده الثمرة العفنة للمجتمع الانفصالي . بل إن كافة النقائص ، وانهايار الأعصاب ، وتوقف الشخصية عن النمو ، والعجز عن التبريز في الحياة ، والفأفة الوجدانية التي تجعل حياتنا العاطمية مأساة مضحكة . . ١١ - كل هذه الآفات هدايا متواضعة يقدمها المجتمع الانفصالي عن طريق الكبت إلى أهله وذويه . .

قبل ضميرنا الحي نطلق صيحة الأنقاذ منادية بحق الفضيلة في أن نحول إلى مجتمع اختلاطي وطيد .

والدعوة إلى مجرد الاختلاط ليست شيئاً جديداً بالنسبة لمجتمعنا الذي

بدأ سيره نحو الاختلاط فعلا - ولكن الجديد الذى ندعو إليه هو أن
نجعل من الاختلاط شريعة مقررة ومنهجاً مرسوماً - وليس مجرد نزوة
عارضة ، أو انسياق لا هدف له ولا موضوع .

فالاختلاط الانسيابي كثيرا ما تغلبه القوضى على أمره ، وتعوق
نضجه وارتقائه . . أما الاختلاط الوطيد الذى رسمت له وسائله ، وعرفت
غاياته ؛ فذلك هو المجال الحيوى لكل فضائل الإنسان .

فلنؤلف من الاختصاصيين شعبة ، أو شعبا . مهمتها دراسة « فن
الاختلاط » ورسم الوسائل التى يتحول بها مجتمعنا إلى الاختلاط المهدب -
ونحن مطمئنون إلى أن الاختلاط قادر على تنظيم نفسه . ولكنه يتطلب
بيئة مستعدة لمعاونته . وإن يثيسر ذلك إلا إذا جعلنا منه فلسفة ونظاما .
أجل ، فلسفة تحدث الشعب عن غاياته النبيلة ، ومزاياه الجليلة
ليثق به ويضع يده فى يده . . ثم نظاما يحدد أجمع الوسائل لبلوغه .
وأهداها سبيلا .

ونحن نرى أن يبدأ الاختلاط المدرسى فى المدرسة لا فى الجامعة فبين
الرابعة عشر والسابعة عشرة تقريبا ، وهى على وجه التقريب كذلك
السن التى ينتظمها التعليم الثانوى - تزداد الانفعالات الجنسية للفتى
والفتاة . وتشتد . ولذلك نرى أصحاب هذه السن . لاسبأ الدين تكبت
انفعالاتهم ، يميلون إلى انتقاد الوالدن ، وانتقاد المجتمع ، ويأخذهم شغف
بالعداؤون وبالتطرف فى مناقشة المسائل الفكرية والانجاهات المذهبية .
وفى هذه السن أيضا يضيقون بالمنازل ويحاولون نسيانها والهرب منها إلى
الطريق . كما تضيق أنفسهم بالجماعات الوحيدة الجنس ويتمنون العيش

في جماعات مختلطة - وأنسب المواقف لتحويل المشاعر الجنسية إلى مودة
وصداقة هي هذه السن . . فليختلطا في إبانها ، فتقود المدرسة عواطفهما
في تمن ورؤية ، وتنصرف عنهما الرؤى الشريرة التي يولدها الانفصال .
إننا إذا فعلنا هذا ؛ فستحول الرغبات الجنسية إلى زمالة فكرية ،
وصداقة إنسانية فواحة بعبير حلو ظهور . وإذا لم نفعل فسنعق في المحذور
الذي نتوهمه ونخشاه .

وسلوا بوليس الآداب عن أعداد الطلاب الذين يضبطهم ، وقد هربوا
من مدارسهم ، وذهبوا يتربصون بآبواب مدارس البنات منتظرين
خروجهن ليتعقبوهن ، ويظفروا منهن ولو بنظرات عطاش . ، وقد يسأل
سائل : إذن فأنت تريد من أجل هؤلاء الضالين أن تجعل الفتيات على
قرب منهم كي لا يتجشموا مشقة المطاردة . . ؟

وأجيب : لا . وإنما نريد أن نجعل الفضيلة على قرب من المجتمع حتى
لا يتجشم مشقة البحث عنها ويدفع ثمن تفريطه فيها . . والفضيلة الجنسية
هنا . في الاختلاط الهادف الأمين .

وإني أسأل : لماذا يعتقد المعارضون للاختلاط ، أنه طريق إلى
الخطيئة والفاحشة . .

ولماذا لا يكون طريقا إلى صداقة نافعة ، ومودة يانعة ، واثلاف
لا غل فيه ولا تأثيم . . ؟

انظروا . . إن الإجابة عن هذا السؤال تكشفهم ، وتسقط معارضتهم
وتجعل السير وراءهم جريمة لا يتحمل مسئوليتها ضمير شجاع . .
والسبب في معتقدهم ذاك ، هو أنهم بدائيون في تفكيرهم ومشاعرهم .

فالمجتمع البدائي للانسان القديم . كان يرى أن المرأة للفراش . وللفراش
حسب . . . وكانت حياته الجنسية لهذا محمدة من المعاطفة وروح الصداقة
والائتلاف . واقد رسمت « مرجريت ميد » صورة لمشاهدتها في بعض
القبائل التي لا تزال تحمل طبائع آباءنا الغابرين . وأودعتها كتابها —
« تنشئة الأطفال في غانه الجديدة » ؛ فقالت :

— « . . . من تقاليد قبيلة مانوس أن يتوجه الرجل بمشاعر الاحترام
لأخته . وبصداقته إلى ابن عمه فيلاعبه ويضاحكه ، أما ولاؤه فلا يبه .
وأما اهتمامه ورعايته فيوجهها إلى أطفاله . ولا يبقى لزوجه بعد ذلك
سوى عملية الجماع وحدها . . . »

إذن ؛ فهذا هو الأنسان البدائي القديم — يهب صداقته ، وملاطفته ،
وولائه ، واحترامه للآخرين . أما زوجته فعلاقته بها جافة يابسة . لأنها
للفراش فقط . . . وليست أهلا لثقته ، ولا لصداقته ، ولا لولائه .

إن الذين يعيشون بيننا ، ويعارضون الاختلاط بقية من أولئك الذين
ذهبوا . . . إنهم يستبعدون أن يفضى الاختلاط إلى صداقة ، وثقة ،
واحترام متبادل بين الجنسين . لأن المرأة في نظرهم ليست أهلا لشيء من
هذا . إنها للفراش مجردا من عواطف الإخوة والتقدير . . . أليس المكان
المناسب لإيواء هؤلاء السادة ، هو حيث تعيش قبيلة « مانوس » التي سمعنا
شيئا من نبأها . . . ؟

أجل . إن مكانهم هناك شاغر يناديهم ، وينادي كل مجتمع يسلم لهم
زمامه ومصيره .

ودعونا نسأل سؤالا آخر :

— لقد كان الانسان البدائي حين يجوع . ينقض على فريسته فيأكلها
بجلدها وعظامها وفرثها أو يتسلق شجرة ويلتهم من أعشابها . . أما اليوم
فأبناء آكلى العشب والعظام ، يزخرفون موائدهم بالمبايع والزهور ،
ويستعملون الشوك والملقة والسكين . . أفئن دعانا داع إلى العودة
للطريقة الأولى ، نطيعه أم نعصيه . . ؟ ؟

إن الأمر كذلك بالنسبة للعلاقات الانسانية بين الجنسين . فما كانت
تعرف سوى اللقاء الجاف على فراش الشهوة .
أما اليوم فقد اتسع نطاقها ، وتسامت غاياتها ، وأضحت زمالة وصداقة
ومشاركة ورحما واثتناسا . وكل محاولة لسلخها من هذا التعاطف يساوى
تماما العودة إلى مضغ الأعشاب ، والتهام الفريسة بلحمها النقي ،
تفثها الردى . .

إن المرأة ليست للفراش وحده . ولكنها للحياة جميعها تأخذ وتعطي ،
وتضرب بعزمها النضر في كل أعماقها . وكل آفاقها . والمجتمع الذى يعجز
عن إدراك هذا — يدفع الثمن من شرفه ومن إنسانيته . .

لقد ساء تقدير اليونان والرومان للمرأة ، ونأت العلاقة بين الجنسين
عن طريق العاطفة الحية . والزمالة الوثقى . وذلك بسبب اعتقادهم المغلوط
أن المرأة ليست شريكة حياة . بل مستولدة للزوج . ومربية للأطفال .
وبسبب تقديس الأثينيين للزمالة الفكرية بين الرجال دون النساء اللاتي
لم يكن في نظرهم كفؤا لها ، ولا قدرات عليها ؛ فماذا نجم عن هذا في أمة
بلغت شأوا المعرفة والفضيلة . . ؟

شاع الانحراف في أثينا حتى لم يعد رذيلة يحاول الناس الخلاص منها

ولقد منحتة اليونان القديمة حظا جزيلا من الأجلال .. وأرهق أفلاطون
قلبه في الدفاع عنه ؛ وانظروا ماذا قال :

— « .. إن وصف المولعين بالجنسية المثلية بعدم الحشمة ، ليس
من العدالة في شيء ؛ فهم لم ينتهجوا هذا النهج لأنهم يفتقدون الحشمة ،
ولأنما هم يعشقون جنسهم بالذات لأنك تلمس في نفوسهم علو الهمة ، وفي
قلوبهم شجاعة الرجال » .. ١١

ترى ؛ لو لم تورط أثينا نفسها في سوء تقديرها للمرأة . أكان حكيما
العظيم — أفلاطون — سيورط مجده الأدبي في هذا الدفاع الحار
الذي قرأناه .. ١٢

فلنأخذ العبرة إذن ، ولنسارع قبل فوات الأوان . إن الاختلاط
الجامعي أخفق غير قليل . ولا ريب أن من أسباب إخفاقه ، الموقف العام
الذي يتخذه المجتمع من الاختلاط — بيد أن هناك سببا آخر ذا بال .
هو أنه يجيء متأخرا عن أوانه . يجيء بعد أن تكون الانفعالات الجنسية
قد كلّمتها من كثرة قرعها الأبواب . وتحولت إلى كبت وعقد . وهذا
ما يجعلنا نؤثر التبكير . والبدء به في مرحلة التعليم الثانوى .. وأيضا نحن
هنا لا نتشبت بالتفاصيل . ونترك أمرها للأخصائيين . ولكننا على يقين
من ضرورة دعم الاختلاط المدرسى والتوسع فيه .

فإذا غادرنا المدرسة إلى المجتمع — أشرنا بالتوسع في إنشاء الأندية
الاجتماعية التي تضم الجنسين وتكون تحت إشراف توجيهى دقيق . ونحن
مسلمون بأن هناك أخطاء ستقع ، ولكننا نعلم أن هذه الأخطاء تقع ،
وربما بصورة أبهظ ، في الشوارع والبيوت . والفارق بين الحالتين أن

الخطأ في الأولى . أي الذي يجيئ نمرة الاختلاط في النادي مثلاً - ستخف
حدثه ، ويتلاشى يوماً ما ، بما سنقدمه للناس من توجيه ، وإشراف ،
أما الخطأ في الحالة الثانية ، فإنه ينمو في الظلام ، ويزداد مع الليالي
تفاهما واضطراباً . . .

ولا بد للأذاعة من أن تؤدي واجبها كاملاً حيال هذا الأمر الجليل .
وتجمل في أحاديثها وتمثيلياتها نصيباً مفروضاً بحيث تساعد الناس على
انتراع أقدامهم الغارقة في أوحال الحياء الجنسي والانحصار النفسي —
وتعرض على أسماعهم مناقشات حرة ومهذبة للحياة الجنسية التي هي بالنسبة
لنا جميعاً طلسم ولغز ومنطقة حرام .

إن سلامة النمو الانفعالي لشبابنا ، وإعادة العافية إلى الوجدانات
المریضة في مجتمعنا — ليستحقان منا أن نضحى بتلك المخاوف التي تسمى
ظننا بالاختلاط وتحرمنا من مغامره المحققة . والآن . إلى الخطوة الرابعة :

(٤) العمل الشريف ، والفراغ الممتليء . .

ذات يوم وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه يودع أحد ولاته قبيل
سفره إلى إقليمه الذي سيحكمه . وألقى عليه هذا السؤال :

.. ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق ، أو ناهب . . ؟

فأجابته الوالي : أقطع يده . . وعقب عمر على جوابه قائلاً :

— « وإذن ؟ فإن جاءني منهم جائع أو عاطل ؟ فسوف يقطع عمر

يدك . » (١) وتابع حديثه المضيء قائلاً :

— « إن الله قد استخلفنا على عباده لنسدَّ جوعتهم ، ونستر عورتهم . »

ونوفر لهم حرقتهم . فإذا أعطيناهم هذه النعمة . تقاضيناهم شكرها .
« يا هذا . إن الله قد خلق الأيدي لتعمل ؛ فإذا لم تجد في الطاعة
عملاً . التمت في المعصية أعمالاً . . . فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك
بالمعصية . . . »

بالله ما أروع . . هذا الإنسان المعجز عمر . . !
إن هذه الأيدي خلقت لتعمل . فإذا لم تجد في الطاعة عملاً . التمت
في المعصية أعمالاً . أى أن العمل وقاية ضد الرذائل والزلل . وإذا ذهبت
البطالة إلى بلد . قالت لها الرذيلة خذيني معك . ١١ ومن هنا يبرز واجب
المجتمع الحريص على نقاوة سلوك أفراد . في توفير العمل لهؤلاء الأفراد .
ولكن ، هل كل عمل يشجذ عظمة النفس وينقى عنها قفها وغبارها . ؟
أبداً ، ولهذا قلنا في عنوان هذا الحديث : العمل الشريف . فالمهنة التي
نتولاها ، والحرفة التي تمارسها تنعكس خصائصها وملايساتها على سلوكنا
وأخلاقنا فالهوان مثلاً رذيلة . وهذه الرذيلة كثيراً ما تجيء ثمرة وضعنا
في غير المكان اللائق ، وتقبلنا هذا الوضع تقبلاً تستمره النفس رويداً
رويداً على الرغم من اشمزازها منه بادية الأمر . حتى تتسلل العدوى
إلى سلوكنا كله فنستمرىء الصمت أمام كل إهال لحقوقنا . ثم يتحول
الصمت إلى رضا وإذعان . وهذا هو الهوان الذي يصير فيما بعد سلوكاً
وطيداً لنا . . ولقد تعودنا أن ننظر إلى حقوق العمل كشئ يساعد
تحقيقه على بث السكينة الاجتماعية في العلاقة بين العامل وصاحب العمل .
ولكن الأمر أجل من هذا ، وبين تركية حقوق العمل والأخلاق علاقة
وثقى . ليس ذلك لأنها تطارد رذائل الحقد ، والتربص ، والخيانة فحسب

بل لأن الارتفاع بالحرفة ، ارتفاع بالبشرية التي تحترفها وتمارسها . ولو
أنا وضعنا في موازنة عادلة اسكافيان ، أحدهما مصرى والآخر - مثلاً -
بريطاني . لوجدنا نصيب الثانى من الشعور بالذات ، وبالعظمة ، وبالتفوق
أكثر من نصيب الأول . . . ذلك لأن المجتمع هناك رفع منزلة الحرفة
التي يحترفها ذلك الأسكاف الانجليزى . حتى لقد بلغ من احترام المجتمع لها -
أعنى لحرفة الأسكاف - أنه لا يجبر لأحد ممارستها إلا إذا حصل على مؤهل
يسمح له احترافها . ومن هنا يشعر الاسكاف الانجليزى أنه يؤدي في حرفته
وظيفة اجتماعية لا تقل شأنًا عن الوظيفة الاجتماعية لرئيس الوزراء . افشرف
العمل سبيل عظيم لشرف النفس . وهو يقتضينا أن نرتفع بمستوى المهنة
والحرفة في المجتمع عن طريق ترسيدها ، ودعم مكانتها وحقوقها . ولا ينبغي
أن ننسى أننا أو الكثيرين منا يؤثرون الأعمال التي لا مشقة فيها . فهذا
الجيش الذي يملأ القاهرة مثلاً من الرجال الأشداء الذين يحمل أحدهم
« علب دبائيس » ليتجر فيها . . أو انظر وأنت تركب عربات الترام
- الآن - فسوف يتقدم إليك « هرقل عظيم » يعرض عليك أن يبدلك
بالأيسال الذي تعطيه شركة الترام لك بديل المليمين - علبة ثقاب . وهذه
كل حرفته وكل دنياه . . . قد يكون سبب هذا التحول السائد بيننا - هذه
القناعة الأسطورية التي لفتنا في ضبابها دهرا طويلا . . على أية حال ؛ فإن
خطرها على النفس ، وبالتالي على فضائل النفس عظيم ووبيل .
ولا بد أن الرسول عليه السلام كان يحذر هذه العاقبة حين دعا
الناس إلى التوجه صوب الأعمال العظيمة الرفيعة والبعد عن التوافه ؛ فقال :
« إن الله يحب معالى الأمور ، ويكره سفاسفها . »

نعم ، وإن لأفلاطون حديثا مشابها - « إن الحياة الخلقية مستحيلة ،
مالم يتعود المرء أن يبصر رؤى العظمة والرفعة »

وكيف يبصر هذه الرؤى أناس يدأب المجتمع ليقنعهم بأنهم تافهون
وضعاء . ١١

وإذا كان العمل غير الشريف خطرا يهدد الأخلاق ؛ فالفراغ غير
المهادف كارثة محققة . ومن خصائص مجتمعا التي ذكرناها في الفصل
الثالث أنه مجتمع عاطل . ولقد قلنا هناك : إتنا لا نعنى بكونه عاطلا - أنه
لا يعمل ليا كل . . بل لا يعمل ليحيا . . والأنسان القدي لا يعرف كيف
يعمل ليحيا يعيش سقيم الوجدان غائم النفس . أما الذي لا يجد عملا ليا كل ،
فليرحمه الله . ١١ فلنملا فراغ اليد بالعمل . ولنملا فراغ النفس بما تتطلبه
من زاد روحي جليل . إتنا بحاجة إلى ساعات وأحيانا إلى أيام نقضيها
في فراغ . ولكن الطبيعة تأبى على فراغنا هذا أن يكون خواء إلا حين ننام .
وحتى في النوم تداعبنا الطبيعة عن طريق عقلنا الباطن بالرؤى والأحلام .
فالفراغ عمل نسي . أي بالنسبة لتخلصنا - مؤقتا - من العمل الدوري
الذي يرهقنا . وإذن فلا بد له من منهاج عملاء . وإلا سارعت إليه
المهاجس السود ، وسعت إليه العادات الضارة التي تتمثل أيسر ما تتمثل
في لعب الميسر ، أو عشق الذات . . ولقد كان صادقا ذلك الحكيم الذي
قال : إني لأعرف عظمة الرجل أو انحطاطه من طريقة استثماره لوقت
الفراغ . ١ ، ففي هذا الوقت تنطلق رغائبنا التي كانت ضوضاء العمل
والحاحه يذودانها عن الظهور . وهي في مثل مجتمعاتنا كثيرا ما تكون
رغبات غير مهيبة . فإذا ما تكررت بعدد فرص الفراغ تحولت بعد قليل

إلى عادة مستحكمة ، وهواية جائمة . وهكذا تصاب الأخلاق بشئ ما يمزقها حين لا يكون لفراغنا هدف كريم . فلنملاً فراغنا إذن . ولكن كيف السبيل . !

إن الوسائل كثيرة وميسورة . إذا كنا نريد . فتيسير فرص الانتساب للمعاهد وللجامعات وسيلة . ، ونشر الأندية الرياضية والاجتماعية في المدن حتى تبلغ الحارات والأزقة وسيلة . ؛ وتيسير ارتياد المسارح ودور السينما وسيلة . ، والمواظبة على عزف الموسيقى المنعشة في جميع الحدائق وفي الميادين الرئيسية طيلة أيام العطلات الأسبوعية والموسمية وسيلة . وتيسير نشر الثقافة الشعبية الخلاقة . وتيسير قراءتها وسيلة . . وكل الطرق توصل إلى روما إذا كنتم تريدون .

(٥) المـاـرة ، أو المـبـارة المنطـاوية :

من الخصائص التي تميز المجتمع الأنساني اليوم ، أن كسب الرزق وتنمية الأخلاق فيه عملان متناقضان . ١ ، وعلى طريقة تصرف البشر إزاء هذه الحقيقة سيتحدد مصير المعركة الفاصلة بين الفضيلة والريذة . ولنترك المجتمع الأنساني الآن جانبا ، لننتحدث عن جزء منه هو مجتمعنا . لقد قلنا من قبل : إننا ورثناه مجتمعا استغلاليا كأشنع ما يكون الاستغلال . وقلنا : إن ظروفنا عديدة تتطلب منا الأناة والحكمة في تطوير هذا المجتمع والسير به إلى أمام . ونريد الآن أن نعرف كيف يمكن رغم القيود التي تحدد سرعة انطلاقنا أن نتحاشى التناقض القائم بين كسب الرزق وتنمية الأخلاق . إن هذه المهمة لأ كبر من أن يقوم بها فرد ، أو يفي بحققها

كتاب . وكل ما نحاوله الآن تجاهها لن يكون أكثر من إشارة ضوئية نرجو أن تهدي إلى الطريق — ولكن دعونا تؤكد مرة ، ومرتين ، وثلاثاً أن لباب مشكلتنا الحلقية متمثل إلى حد كبير في التناقض الذى ذكرناه . وكل جهد يغفل هذا الباب — عناء ضائع ، وهباء منشور .

— أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجارة .؟ وإن سأله سمكة يعطيه أفعى . ١٢ — هكذا وقف المسيح من قديم يسأل الناس . ولا يزال بحاجة إلى إلقاء هذا السؤال اليوم . فالمجتمع الذى يعطى أفراده مكان الخبز حجارة . ومكان السمك أفعى . لا يحق له أن يلومهم إذا أعطوه بدورهم مكان الفضيلة رذيلة ، وبديل الحسنة سيئة . . . ! ونحن نكتفى بحديثنا عن المساويء الناجمة عن المبالاة غير المتكافئة فى الفصل السالف . ونشير الآن فى إيجاز إلى العلاج الذى يقينا شر هذه المساويء . والعلاج يتلخص فى هذه العبارة «المساواة .. أو المبالاة المتكافئة» وتحقيق هذا الهدف لا يملأ المجتمع بالفضائل المرتبطة بالعدل وحدها . بل وبالفضائل الهائلة المرتبطة بالرخاء أيضا . وصدقونى إذا قلت لكم : ليس هناك مكان تزدهر فيه الفضائل مثل المجتمع الذى يفيض ثراؤه ورخاؤه على أهله . المجتمع المتأنق الذى يحوى خير الأمور وأجمل الأشياء . إن أيلافنا المعانى السامية العظيمة . لن يتأتى إلا إذا تعودنا رؤيتها أولا فى المحسوسات التى تحيط بنا وتعيش معنا . إن الصور الذهنية لما نلبس ونطعم . وللبوت التى نسكنها ، والأثاث الذى فى هذه البيوت . عارمة الاتصال بسلوكنا .

وبعبارة أخرى . ولكن قبل أن أسوق هذه العبارة أرجو القارىء أن يسير مع هذه السطور على مهل .

لقد سبق أن قلنا : إن أكثر الفضائل رسوخاً وثباتاً ، تلك التى تزجىها قوة اليقين العقلى . أى التى تصير جزءاً من نظرتنا إلى الحياة وفلسفتنا تجاهها . وعقولنا إنما تكون أحكامها وبالتالي يقينها من رغباتنا واتجاهنا وملاحظاتنا وتجاربنا . فالرجل الذى تدور ملاحظاته وأخيلته حول المحسوسات الرديئة يحمل غالباً نفساً رديئة . وبالعكس منه ذلك الذى تحيط به محسوسات نظرة جميلة ..

ولعل هذا المعنى كان يملأ وعى رسول الله عليه السلام حين كان يقول للناس : « كلوا أطيب الطعام ، والبسوا أجمل الثياب ، واشتغلوا أحسن العمل . ولتبحث الواحد منكم بين الناس ، وكأنه شبيهة مضاعة » ..

وحين كان يقول لهم : - « إن الله جميل يحب الجمال .. نظيف يحب النظافة .. ووالذى نفس محمد بيده لن يدخل الجنة إلا نظيف » .. وأيضاً هذا هو الذى كان يعنيه العالم النفسانى العظيم « ادلر » حين كان يكتب لكثير من مرضاه الذين يشكون فوضى الشخصية هذه العبارة اليسيرة الجميلة : « رتبوا بيوتكم » ..

إن المشاهد الجميلة توجد لنا مستويات عالية وحوافز شريفة ، والأرواح الزكية تطرب لرؤية الجمال ويزداد ثراؤها الأخلاقى بالشخص إلى الحسن .. ولا تصحكوا إذا قلت لكم : أننى حاولت أن أعرف أيهما

أكثر حظاً من اللياقة الاجتماعية — الذى يأكل على « سفرة » أم الذى يأكل على « طبلية » وأجريت اختبارى هذا على ثلاثة وأربعين ؛ فخرجت بنتيجة تساوى فى النسبة المئوية ثمانين للأول وعشرين للثانى . .

إن الفارق بين المتوحشين ، والمتحضرين ليس فى تركيبهم العضوى ، ولا فى بنائهم العقلى . . ولكنه فى المحسوسات التى يأخذ كل منهما من ملاحظتها مادة عقله وتفكيره . فلكى يتاح لعقولنا ، ولأرواحنا أن تبصر رؤى الرفعة والعظمة — يجب أن نحوطها بكل ما هو عظيم ورفيع . . إن طريقة الأكل ومادته ، وطريقة النوم ووسائله وجمال البيوت وأقبحها ، والتنسيق الذى تشرق به الأشياء ، أو الفوضى المظلمة — كل ذلك عامل هام فى تحديد سلوكنا . والرخاء وسيلة الناس لكل ما هو ناضر وجميل . والمباراة العادلة المتكافئة هى التى تستطيع أن تهب الناس رخاء وأمناً . .

أما كيف نظفر بالمباراة المتكافئة ؟ فالجواب على هذا السؤال فى كتابنا السابق « الديمقراطية . . أبدا » إذ نادينا فى الفصل الأخير منه بضرورة الأخذ بـ « الاشتراكية التعاونية » أى بنظام « الإنتاج التعاونى » الذى يجعل الإنتاج من المجموع وللمجموع — وبقى المجمع شرور المبالغة فى تكوين الثروات المردية التى لا تستطيع مهما عسّن نوايا أصحابها إلا أن تعتمد على الاستغلال وامتصاص الدماء . . .

إن كافة القيم فى مجتمع المباراة تخضع لمعايير ضالة مخربة . . والسباق فيه يعتمد على القمار وشراء الدم . فبلاد كالولايات المتحدة مثلاً ، مع كونها حصناً من حصون المسيحية تضطرها المباراة هناك إلى أن تكتب

على واجهات بعض كتائبها الكبيرة بالأضواء اللائحة تـ « هنا صلاة ،
وعشاء » ... !!!

وها هي ذي صحافتنا تضطرها المباراة إلى شراء القارىء باليانصيب ،
حتى لقد بدا وطيس المنافسة بينها حامياً . .

ومن يدري ؟ فلقد بتنا نخشى أن نقرأ غداً على غلاف كتاب للدكتور
طه حسين ، أو كتاب معرب لبرناردشو هذه العبارة - « احتفظ
بالكوبون المرقوم على أسفل الغلاف » ، وتقدم به إلى المؤلف ، أو الناشر
لترجى مائة جنيه » ... !!!

وهكذا تفسد المباراة أجمل ما فى الإنسان ، وهو فكره . إذا تربطه
فى غمار هذا الإيحاء والاغراء بالكلمة التى تقوده إلى مائة جنيه ،
لا بالكلمة التى تهديه إلى الحقيقة . . كما أنها تعتاق نموّ اهتماماتنا الذاتية
بالثقافة الحرة . ، وتفسد الذوق الإنسانى الذى هو زينة الإنسان ونافذته
على الحياة . . ترى كيف يتاح لأمتنا أن تنشئ لنفسها شخصية متسقة
نامية متعفة ، وهذه الآفات تنهشها وترعاها . . ؟ !

إننا لن نكون شيئاً ما فى هذا العالم حتى نعيد بناء شخصيتنا المنهارة .
والناس لن يعنوا بتجويد شخصياتهم إلا إذا أحسوا عناية المجتمع بهم .
وإنهم ينتظرون . ؛ وقبل أن نمضى للخطوة الخامسة دعوتى أذكركم بكلمة
المسيح مرة أخرى :

— « أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خيراً يعطيه حجارة . . وإن سأله
مئكة ، يعطيه أفعى . . ؟ ألا وإن المباراة غير المتكافئة ، لشرّ من
الحجارة ، وشرّ من الأفعى . . »

(٥) احترام الحياة ...!

الناس الفضلاء .. هل يصنعون أم يولدون.؟ القدي نعلمه أنهم يصنعون. وكما قلنا في الفصل الأول : أن الإنسان لا يولد فاضلا . ولا يولد رديثا . إنه يولد فحسب . ونحن بهذا لا نريد أن ننكر أثر الوراثة . وإنما نناقى أكثر المسئولية على البيئة . وعلى الطريقة التي نستجيب بها فيما بعد للبيئة والوراثة معاً . وهنا عنصران من أهم العناصر التي تجعل الاستجابة سوية فاضلة هما - الإرادة ، والمثل الأعلى .. إن تكوين الأخلاق يحتاج إلى زمن طويل . فلا بد لنا من مثل أعلى نحبه ونجمله ، ويظل هذا المثل يخفق من بعيد كالراية مناديا الذين تعيهم مشقة السفر كي يثبتوا على الطريق . ولا بد من إرادة يهيب بها المثل الأعلى ؛ فتساند اللوكب المحفوف بالأخطار . وإذا كانت الفضائل زهورا حلوة العير ؛ فمثل العليا جذورها . ونحن نعرف أن الزهرة إذا فصلت عن جذورها ذهبت نضرتها وغاب أريجها . فالمثل الأعلى بالنسبة لى ، ولك ، وللآخرين يعتبر منبع الحياة الأخلاقية كلها - والمثل الأعلى حين يوجد . يلتقط إرادتنا النائية في أعماقنا ، أجل . فكل واحد منا يستطيع أن يكون صاحب إرادة متفوقة ، ومشكلتنا فقط - أن نعثر على إرادتنا الكامنة فينا . احفظ هذا جيدا . . أنت بلا إرادة وبلا مثل أعلى ، ظلّ ملقى على الأرض . والأرادة والمثل الأعلى قريبا المنال . ولعلّ سائلا يسأل : لماذا إذن لانعثر عليهما في مجتمعنا إلاقليلا . والجواب : لأننا نبحث عنهما في السماء . وهما معنا على الأرض . ولذا فإن هؤلاء الذين نراهم يسقطون من حلق . ويتمرغون في التراب بعد أن كانوا يبدون في أعيننا من أصحاب المثل العليا - هؤلاء ، لو كان الذي معهم

مثلاً أعلى بحق ، لما تقطعت بهم الأسباب . ولو كانت إرادتهم واقعاً لاخيالاً ،
لجنبهم حفر الطريق . والآن يقتضينا البحث أن نبين نوع الإرادة التي
لا تخون صاحبها ، ونوع المثل الأعلى الذي لا يخفى ضوؤه من الطريق . .
هناك أمثلة عليا زائفة ، يلتبس لها عقلنا الواعي منطقاً تسويغياً يسوغها
- ويررها به - وهذه يسقط أصحابها حتماً في الهاوية . . وهناك احتراف
للمثل العليا . أبطاله أناس يرتدون المثل الأعلى ليتقوا به رياحاً معينة ،
أو ليواجهوا به موقفاً خاصاً . ثم بعد هذا يزعون عنهم هذا اللباس الذي
لا تطيقه أرواحهم المريضة . . ونحن مسقطون هؤلاء من حسابنا - ولا نهتم
إلا بضحايا المثل الأعلى الزائف ، لأنهم طيبون وإن كانوا مخطئين . كيف
يتقى أحدنا الوقوع في براثن مثل أعلى زائف . . ؟ هناك معيار للمثل الأعلى
الصادق يدلنا عليه العلم بعد طول تجريب . وذلك المثل هو الذي ينتهي بنا
إلى تحقيق الذات وسعادتها - فليس مثلاً أعلى هذا الذي يملأ الشخصية صراخاً
وعراكاً . بل هو الذي يناديها إلى توافق تام بين جميع اندفاعاتها ورغباتها
وغرائزها . ومن ثم ؛ فهو كما يقول العلامة « هادفيلد » - « فكرة ذات
صفة خاصة . جذيرة بأشباع النفس إلى الإكمال ، ومتفقة مع طبيعة الأشياء
بشكل يمكنها من أن تجتذب إليها انفعالاتنا كلها . »

وبريد هادفيلد بكون المثل الأعلى فكرة ذات صفة خاصة - أنه منطوق
على طاقة هائلة فهو كالجرم السماوي الذي يتحكم في حركات المد والجزر . .
وإذن فالمثل العليا التي تقوم على تحدي طبيعتنا هي الزائفة . . ومثل
هذا يقال في الإرادة . فالإرادة الصادقة هي التي يكون نشاطها تعبيراً
عن الذات لا تحدياً لها . إن تحدي طبيعتنا الإنسانية يخلق قوة مناوئة
للإرادة ومعطلة لرسالتها هي الاندفاعات . فالخطوة الهامة في طريق

الاكتمال الخلقى هي - تصحيح فهمنا الضال للأرادة والمثل الأعلى .
إن الشرق بلاد العماقة ، ومصر بالذات بلاد القراعنة . ولذا ؛ فالأرادة
في وعينا كأن سحرى يقول لشيء كن ؛ فيكون .. ولكن لا . وكل هذه
أوهام أزجها دخان البخور . (١) أما الأرادة فليست سوى وظيفة للذات
التي لا انقسام فيها ولا كبت ولا معارك . . . وكما أن إرادتك مهما تكن
قوتها وجبروتها لا تستطيع أن تغير مسار النجوم ؛ فهي كذلك لا تستطيع
أن تغير مجرى الطبيعة الإنسانية . وإدراك هذا يهدينا إلى الأرادة الصادقة
المسيطرة التي لا بد منها للاستقامة والفضيلة . . قلنا إن المثل الأعلى وثيق
الصلة بالأرادة فهو الشريان الذي يهبها الحياة . وهو الذي يثيرها إلى العمل
والنشاط الهادف . والمثل العليا تختلف وتكثر بالنسبة للفرد وللجماعة .
فهناك في بلادنا من مثلهم الأعلى نبذ التدخين . ومن مثلهم الأعلى إتقان
الصلاة . ومن مثلهم الأعلى غض البصر عن النساء ، ومن مثلهم الأعلى
الزهد في المال ، ومن مثلهم الأعلى ترك المسكرات . ومن مثلهم الأعلى -
النوم مبكراً ونحن لا نضيق ذرعا بمثل هذه المثل ، وإنما نضيق
ذرعا بالوقوف عندها . . إن المثل الأعلى لا يستحق هذا الوصف ولا يكون
مجدياً وخلاقاً إلا إذا كان رائداً لجميع إمكانيات الذات ورغباتها ؛ وطبعي
أن شيئاً مثل نبذ التدخين أو غض البصر عن النساء لا يصلح وحده أن
يكون الإطار الذي تتحقق الذات داخله . فلنبحث لنا عن مثل أعلى شامل
وبليغ . . إنه ما من أمة على ظهر كوكبنا هذا - انتقلت من الغابة إلى
المدينة . وشادت لنفسها حياة خلقية رفيعة إلا وكان لها مثل أعلى ينتفض
بالحياة والعزم . فما المثل الأعلى الذي يستطيع أن يهدي خطوات أمتنا
خلال المرحلة الفاصلة التي تجتازها اليوم . . . ؟ ؟ !

القراء ، فنحن كأمة ليس لنا - الآن - مثل أعلى رشيد . عندنا كثير من المثل العليا الزائفة . والويل لنا منها إذا طال مكثها بيننا
لقد ضرب العدل التاريخي مثلاً ، رجلين : أحدهما وهب أمته مثلاً
أعلى زائفاً ؛ فدمرها به تدميراً . . . والثاني أعطى أمته مثلاً أعلى صادقاً ؛
فأحياها وبث فيها من كل خير بهيج

ألا فارثوا لهتلر . . . وانحنوا لإجلال لغاندى . .

لقد ضلل القوهرر ألمانيا حين جعل مثلها الأعلى - القوة الباغية . .
وما أتعس الدين يتوهمون أن هتلر وهب ألمانيا مجداً وعلماً وتفوقاً . .
لقد كانت ذات مجد وعلم وتفوق قبل أن تلفظه الأرحام . . وقبل أن يولد
شهدت برلين مؤتمراً لعلماء الدرة . . وقبل أن يولد جده العاشر اخترع
« يوحنا جوتمبرج » الطباعة وأخرج للدنيا أول كتاب مطبوع !! فهتلر
بمثله الأعلى الزائف لم يصف لألمانيا سوى القرصنة المسلحة التي أودت بها
ومزقتها . . وحتى القوة التي جعلها مثله الأعلى كانت ضعفاً وبيلا - فقد
كانت قوة جزارين . . والجزار شجاعته في سكينه ، فإذا جرد منها لم يجد
في روحه شجاعة تسعفه ، ولا في قلبه إقداما يستردفه

إن قوة الخلق التي تنبع من العدل . وقوة العقل التي تنبع من الحرية ،
وقوة الروح التي تنبع من كرامة الإنسان - هذه القوى النبيلة الفعالة
جرد منها الشعب الألماني ، وأعطى مكانها قوة باغية باطشة . .

وإني لطيب لى كثيراً أن أسأل نفسى : ما الثمن الذى دفعته ألمانيا لقاء
إيمانها بهتلر ، وبمثله الأعلى الزائف . . ؟ وما المشوبة التي كوفت بها الهند
جزاء إيمانها بغاندى ، وبمثله العليا الصادقة . . . ألا ما أعظم الفارق بين
الوطن الذى تركه هتلر مستعمرة . . . والمستعمرة التي خلفها غاندى وطناً . . !

فعلى ضوء هذه المثالات والعبر ، تعالو نبحث عن مثل أعلى لنا -
أيها الأصدقاء .

وإني لأقترح أن يكون هذا المثل - احترام الحياة . ، أجل . . هذه
هى الحقيقة التى أبحث عنها . . احترام الحياة .

إن البقاء اليوم للقوى الأنسانية التى يدفعها احترام الحياة إلى العمل
الأيجابى من أجل رخاء الإنسان وسلامه ومن أجل ثراء عقله ،
وعافية نفسه . .

انظروا . . أى هؤلاء الرجال تعطر البشرية اليوم وجودها بذكركم . ،
وتجمل أسمائهم ترنيمة عذبة على فمها الشكور . . ؟

- دارون . أم بسمارك . . ؟ ، باستير . أم نابليون . . ؟ كوتفوشيو .
أم جنكيزخان . . ؟ ، ماركونى . أم الدوتشى . . ؟

إنها اليوم لا تذكر سوى الدين آزرُوا الحياة ووقفوا عند مشيتها .
فلنسر على الدرب . إن من سار على الدرب وصل . .

واحترام الحياة عصمة ، أو شئ يشبه العصمة . . هو كذلك بالنسبة
لنا كأمة . ، وكأفراد . ؛ فالفرد الذى يجعل احترام الحياة مثله ورائده
والهامه لا يكاد يرتكب إثماً . .

إن الحياة فى عينه وفى وعيه قصيدة رائعة فاتنة عظيمة . وهو يعمل
جاهداً لتكون أيامه على هذه الأرض بيتاً مشرقاً يأخذ مكانه بين أبيات
القصيدة الخالدة . ؛ فإذا عجز عن أن يضيف إليها جديداً ؛ فلا أقل من
أن يكف عنها أذاها . فلا يشوه بهاءها . ولا يدنس قدسها ...

أعرف «إنساناً» دعت نفسه إلى الإثم بعد طول صيام . وحين وقف
على عتبة الشهوة ، شرع يسأل نفسه : - أهذا الذى سأفعله تشويه للحياة .

وحنث بالعهد الذى أعطيته لها .. ؟ - ولما أجابه الضمير : نعم . قال : -
إذن لن أشوه الحياة . ولن أنقض بيعتها . وليس ذلك فحسب . بل قرر
أن يتخذ من الموقف مزية . ؟ فانطلق فى أرض الأثم يدرس تربتها .
ويتحرى زرعها النكد . لينظر فيما بعد كيف يمكن أن تعود أرضاً طيبة ،
زرعها نضير ، وتراها طهور ...

ولقد ألقاه كثيراً ؟ فأسأله : - ما دينك الذى يصلك اليوم بالسما .. ؟
فيجيبني وكأنه رسول يبشر بوحي جديد - إنه احترام الحياة . .
إننى أرشح لأمتنا هذا المثل الأعلى . ولن تجد مثله سبباً ينقذها مما هى
فيه - إنه فضلا عن توطيده جميع أصول الدين وفضائله ، يهدى الفرد كما
يهدي الجماعة إلى التزام ما تكتشفه الإنسانية من قيم وأفكار ونظم تزيد
من سعادة الإنسان . . وهو بهذا - أعنى احترام الحياة - يفسح المجال
الذى تحقق فيه النفس الإنسانية اكتمالها ، إذ تنطاق نحو فضائل ترومها ،
وتتناغم مع استعدادها .

واحترام الحياة كمثل أعلى لنا - سيفضى بنا إلى المثل الأعلى الذى
تلتزمه الحياة نفسها .. وهل للحياة مثل أعلى .. ؟ .. نعم . هو الواجب .
إن الحياة بكل أشياءها تؤدي واجبها على نحو مدهش . والواجب عندها .
هو القانون . فالشمس تشرق على الكون . والرياح تسوق السحاب .
والنحلة تخرج الشهد . والأرض تنبت الحب ، والشجرة تلقى الثمر . .
وكل ذلك يتم باسم الواجب ، دون انتظار لجزاء أو شكور .
واحترام الحياة كمثل أعلى لنا سيصوغ أخلاقنا فى قالب مبادئ الحياة
ذاتها . وارتباطنا بهذه المبادئ سيكون أوفى ضمان لنا ضد الانحراف نحو
المثل العليا الزائفة .

فمن مبادئ الحياة التي ستصاغ أخلاقنا في قلبها - التكيف وهو
يدعونا إلى تكيف سلوكنا حسب المفاهيم الجديدة والصادقة للفضيلة ؛
فلا نري في الاختلاط وزراً ، ولا في الفنون الجميلة عاراً - لعلكم تذكرون
وزير المعارف بالنيابة الذي ألغى الرقص التوقيعي من مدارس البنات منذ
خمسة أعوام ، وهطلت عليه برقيات التأييد من الهيئات الدينية ورجال
الكهنوت . . . مع أن هذا الرقص التوقيعي شيء بعيد كل البعد عن
هزّ الخصور والبطون . إنه تعبيرات فلسفية متسامية . ولقد كان يوماً ما
ولا يزال في بعض البقاع صلاة دينية يناجي العابدون به ربهم العلي الكبير .
إنه إذا كان التكيف مع الطبيعة هو الذي أبقى الإنسان على هذه
الأرض حتى اليوم . ؛ فإن التكيف مع الحضارة هو الذي يحميه اليوم
من الانقراض والدوبان . . . ومن العسير علينا أن نؤمن بالتكيف إلا إذا
جعلنا مثلنا الأعلى - احترام الحياة .

ومن مبادئ الحياة التي ستصاغ أخلاقنا في قلبها كذلك - التأمل . .
إنه الهاتف الذي يدعو الحياة للتكيف ، ويهدي خطواتها إلى الارتقاء .
وليس هناك شيء سوى التأمل يتجاوز بنا المعارف القديمة صاعداً بنا
إلى حقائق جديدة . وما دمننا نريد أخلاقاً راسخة وفاضلة ، فلا ملاذ لنا
سوى المعرفة التي هي ثمرة مبدأ الحياة الملهم . ألا وهو : التأمل . .
ومن مبادئ الحياة أيضاً : الرسوخ . . وهو رسوخ في خدمة
التكيف لا ضده . . انظروا الحياة في ثقلها المعجزة الباهرة . إنها لا تنتقل
خطوة حتى تؤمن الأرض التي تقف عليها تأمناً وطيداً . وكل نقلة من
ثقلها تعتبر مصباً تأخذ مما قبلها ، ومنبعاً لما بعدها . . ولذا ؛ فليس
في فلسفة الحياة قديم وجديد . . إنه تيار تتدافع موجاته ، وأوله موصول

بآخره في تآخ عجيب . . انظروا الانسان . إنه لا يزال يحمل في تكوينه
الجسماني آثار أصوله القديمة جداً . . لقد انقرضت بعض أعضائه الغابرة .
بيد أن جذور هذه الأعضاء البائدة لا تزال ثاوية فيه . . فلماذا ياترى . . ؟
إنه رسوخ الحياة الذي يتفاعل مع التكيف ليؤمنا بقاء الانسان . وبقاء
الحياة نفسها . . ونحن ، ما أحوج أخلاقنا إلى الانصباب في قالب هذا
للبدأ - الرسوخ . . فكثيراً ، وكثيراً جداً ما ينقلب الصادق فينا كذوباً ،
والأمين خائناً ، والعفّ عريداً ، والشجاع جباناً ، والسيد عبداً ذليلاً ،
والصريح منافقاً ، والمهذب سفياً . . ١١ - أتدرون لماذا - ؟ لأن أخلاقنا
تفقد عنصر الرسوخ ، وهي تفقده لأنها مجرد هوايات تعن لنا يوماً
أو بعض يوم . وليست فلسفة ثابتة ، ولا منهاجاً قائماً . وليس لها مثل
أعلى يهتف بها ويحميها . .
وهكذا ؛ فإن احترام الحياة يهدينا إلى حياة خلقية جديدة وسامية ؛
فلنجعل منه رائداً وإماماً .

وأخيراً... من يحكمكم يا غلامم .. ؟؟

دخل على المنصور وفود من الأقاليم . ووقف خطباء بعض الوفود
يدبحون نحيات يزجونها إلى المنصور . وإذا كان أحدهم يتكلم ويسرف
على نفسه في المدح شق الصفوف غلام من وفد آخر لم يأت دوره
في الحديث . وصاح :

« كلا ، يا منصور . إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً . .
ووالله إن الناس ليستعدون عليك سهام القدر ودعاء السحر . . ويسألون

الله في حياة قائلين : يا ربنا ، لماذا خلقت المنصور . . ؟ وإذا كان لا بد من أن تخلقه ؟ فلماذا رزأنا به . . ؟ ؟

وانبهر المنصور ، وفاح البشر من وجهه . وسأل الغلام قائلاً :
— من الوالى الذى يحكمكم — يا غلام . . ؟ — فوالله إنك لحسنة من حسناته . ولولا أنه يحسن تأديكم ، لما وجدناك هكذا شجاعا . . !
أجل — من يحكمكم يا غلام . . ؟ تلك هى المشكلة . . .

إننا نضع الدولة فى مكانها الذى تحدده تبعاتها حين نجعل الحديث عنها ختاماً للفصل وللكتاب . وسنوجز حديثنا عنها فى سطور . لأننا نؤثر أن تكون علاقة الدولة بالأخلاق علاقة جانبية . فالأخلاق إلى حد ما كالعقائد ، لا يساق الناس إليها ولا يكرهون عليها . وإن خير ما نفعله لناخذ الناس إلى الفضيلة أن نملاً حياتهم بصور جذابة وفاتنة للحق وللفضيلة . ولسنا نريد بجعل علاقة الدولة بالسلوك جانبية — أن نضائل من مسئوليتها الضخمة والأكيدة بل نريد تحديد هذه المسئولية ، وتحديد علاقة الدولة بالأخلاق . هذه العلاقة التى تتمثل فى أن تكون الدولة حافزاً وحارساً . . فما معنى أن الدولة حافز وحارس ؟

. . . إن وضعها كحافز يتطلب أن يتم تكوينها وفق المبادئ الخلقية . . . ذلك أنها لا تستطيع أن تحفز الناس إلى فضائل تقوم هى على أنقاضها . . . وصفتها كحارس يتطلب منها أن تحرس التطور الصاعد للمسلك الخلقى من هجمات الرجعية وفضولها . . .

وكلا الأمرين يتطلب منها — أى الدولة — ثقة وطيدة بالعلم ، وبنفسها . . . أما الثقة بالعلم فستقنعها بأنه لا بقاء لها ولا نماء لمجتمعها إلا فى ظل فضائل تقوم على المعرفة الطليقة . وعندئذ تعنى بالفضيلة . . وتعنى بالمعرفة . . وتعنى

قبل هذا بأن تعيش في نطاق هذين المبدأين — المعرفة ، والفضيلة . .
وأما ثقها بنفسها ؛ فستربأ بها عن أن تساوم الرجعية على مستقبل الأمة
ومصيرها — وتتقي عن عزمها المخاوف الباطلة التي قد توجسها من العلم ،
ومن المستقبل . .

هذا حديث عام عن الدولة — أي دولة — ؛ فإذا نحن طبقناه على
بلادنا قلنا : إن الظروف اليوم مواتية لقيام دولة من ذاك الطراز . .
دولة تكون للأخلاق حافظاً ، وحارساً بالمفهوم الذي سبق . ولكن
علينا لكي نبلغ هذا المستوى أن نوفر لأنفسنا القدرات والامكانيات
التي ترفعنا إليه ، وأن يسير سلوكنا من الآن وفق ما تتطلبه هذه الغاية
الكبرى . وأظنكم تدركون ما أريد أن أقول . . .

بعد هذا يواجهنا واجب آخر . . فنحن نرى أن تقوم فوراً في بلادنا
« وزارة للتربية والسلوك . » أو أن تتحول وزارة الشؤون الاجتماعية
أو وزارة الارشاد ، أو هما معاً إلى الوزارة التي نقترحها .
ما رسالة هذه الوزارة . . . ؟ — إنها بإيجاز : توحيد جميع ضروب
النشاط الاجتماعي ، والديني ، والصحي ، والثقافي الذي يتصل بأخلاق
الفرد ، وسلوك الناس . والاتجاه به في خط طول واحد يقوم على الفهم الصحيح
للمشكلة الأخلاقية ، ويهدف إلى جمع الأمة على سلوك موحد مستقيم . .
أما أن ندع الناس يستمعون في المسجد والكنيسة إلى توجيهات .
ثم يستمعون في المدرسة أو النادي ، أو الإذاعة إلى تقيضها ؛ فعمل يدعو
للرثاء . . ؟

إن قسم المساجد في وزارة الأوقاف ، وقسم الوعظ في الأزهر ،
والطرق الصوفية . والشؤون الدينية بالإذاعة ، والنهج الديني بوزارة

المعارف يجب أن توحد جميعاً تحت قيادة واحدة واعية ، واضغطوا كثيراً على كلمة « واعية » ثم تعمل جميعاً كقسم من أقسام وزارة التربية والسلوك . في خدمه للمسلك الخلقى للفرد وللجماعة . . .

كما تضم الوزاره أيضاً قسماً آخر يشرف إشرافاً تاماً على النشاط المدرسى . . . وقسماً ثالثاً يشرف على الحياة الصحية والرياضية في المجتمع ، ليعنى إنشاء المصحات النفسية ، والأندية الرياضية . ويبحث عن الوسائل التى تنقل هذا الشعب من المقهى والطريق . . إلى النادى الرياضى والنادى الاجتماعى . . وقسماً رابعاً خاصاً بالإحصاء . . نحن نعلم أن فى بلادنا مصلحة للأحصاء - ولكنها شئ مختلف عما نريد اختلافًا بعيداً . . . إننا نريد إحصاء للبواعث ، لا للوقائع . . . بواعث الرذيلة ، وبواعث الفضيلة . . . ونريد مثلاً أن نعلم إن كان من الخير لتقويم السلوك الجنسى - أن نبقى المدارس الداخلية للبنين . وللبنات ، أم نلغىها . . ؟ !

ونريد أن نعرف مثلاً : هل تكثر حوادث الجريمة فى الأحياء الشاغرة من المكتبات ومن الأندية على الأخرى التى بها فروع لدور الكتب وأندية اجتماعية ورياضية . . وما نسبة هذه الزيادة . . ؟ . وأيضاً نريد أن نعلم : ما نسبة الانحراف الخلقى بين الشباب فى جماعة مختلطة . كالتعليم الجامعى ، وأخرى غير مختلطة كالتعليم الثانوى . . نريد أن نعرف كل هذا ، وأكثر من هذا ثم نرسم سياسة أخلاقية على بيئة من هذه المعرفة .

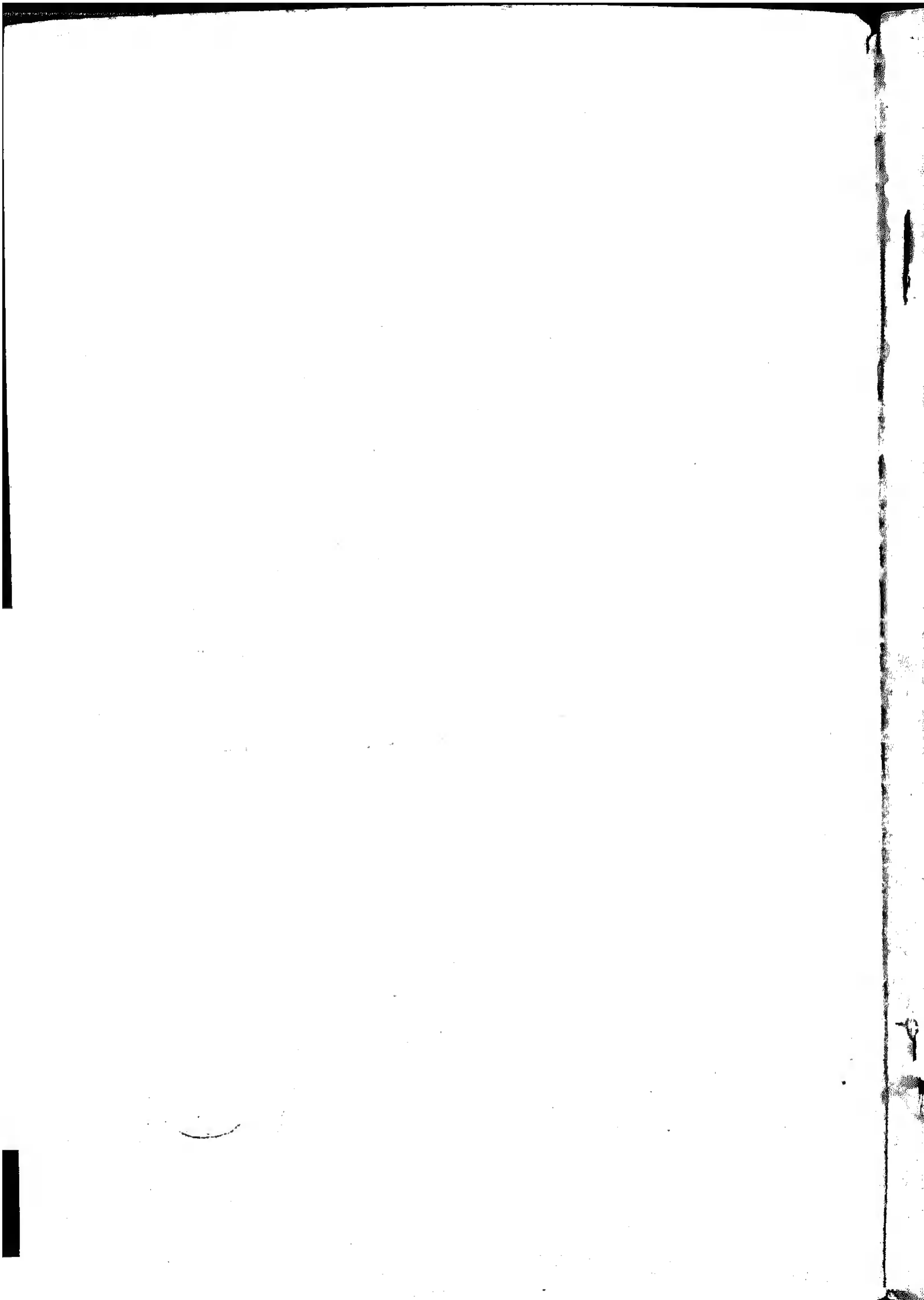
إن قيام وزارة للتربية والسلوك فى بلادنا تشرف على كل ما يتصل بالمسلك الخلقى لعمل رائع وعظيم ، بقدر ما هو حتمى وواجب :

وبعد : فتلك صفحات حملت إلى القراء وجهة نظر تؤمن بها
وما نحسب الحديث في موضوع الكتاب قد انتهى ، فلا يزال هناك من
يرى ، وحديث يقال . . وأغلب الظن أننا سنعود إليه في يوم
قد يكون قريباً .

ونحن لا ننكر أن السير في الطريق التي رسمها الكتاب سيكشفنا
كثيراً من الأخطاء . ولكن أروني غاية واحدة من غايات البشر يعلمها
الناس دون أن يتعثروا في الخطأ . وأروني عاقلاً واحداً ينصرف عن الغاية
المثلى بسبب هذه العثرات . .

إن الأمر كما يقول الفيلسوف الفرنسي « جوير » :
- لكي تبلغ مطالع الضوء ، لا بد لك من اجتياز السحاب . .
وأنا أعرف سبباً واحداً قد يدعوننا إلى تهيب هذا الطريق - ذلك
هو ما يتطلبه من تغيير عالمنا العقلي . . ولكني أقول لكم : إن هذا التغيير
ضرورة بيولوجية ؛ فأما هو . وإما الانقراض .
إنه لا مكان في الحياة للذين يتخلفون عن قوانينها ، ويعصون مشيئتها .
ألا وإن مشيئتها أن تنمو وتتجدد ، والنمو والتجدد يعنيان التغيير ،
والتنطور . ، فلنغير ما بعقولنا . ، ولنغير ما بأنفسنا . .
ولنمض مع القافلة . . إن المستقبل ينادينا .





للمؤلف ..

- ١ — من هنا .. نبداً
- ٢ — مواطنون .. لا رعايا
- ٣ — الديمقراطية .. أبداً
- ٤ — الدين في خدمة الشعب

Bibliotheca Alexandrina



0207589

٤٧١٩

التمن ١٢